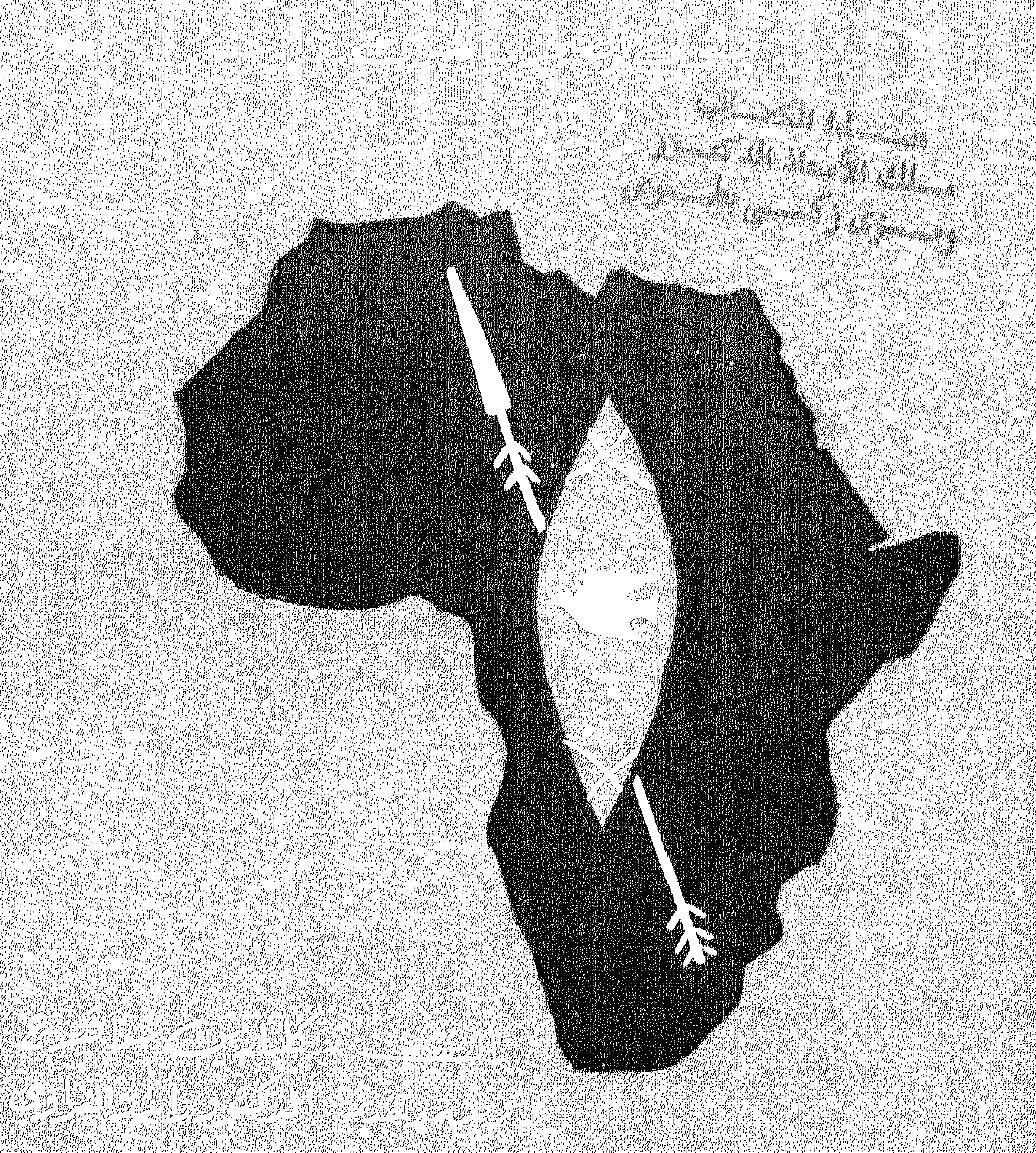
قصص افريقيا



اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

قصة افريقيا

جنوبي الصحراء الكبرى

نشر هــذا الكتاب بالاشتراك

مـع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر

القاهرة — نيويورك

مارس سنة ١٩٦٣

قصة افريقيا

جنوبي الصحراء الكبرى

تأليف

كاثارين سافيج

ترجمة وتقديم

الدكتور راشد البراوي

الناشر

دار النهضة العربية

للنشر والطبع والتوزيع

٣٢ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلفة : كاثارين سافيدج

ولدت فى روشستر بإنجلترا وتلقت تعليمها فى الولايات المتحدة وإنجلترا وسويسرا . وقد أسهمت هذه الفترة الدراسية فى تكوين معلوماتها عن الشئون الدولية. عملت فى وزارة الاستعلامات لمنطقة الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم عينت رئيسة لقسم الدعاية .

عملت بعد الحرب لمدة ست سنوات فى قسم التحرير بمجلة « الاقتصادى » . ألفت كتاب « قصة الحرب العالمية الثانية » ، الذى نشر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٥٨ ، وكتاب « الشعوب والدول » تدوين لتاريخ ألمانيا واليابان وروسيا حتى الحرب العالمية الثانية ، وكتاب « قصة الأمم المتحدة » .

المترجم وصاحب المقدمة : الدكتور راشد البراوى

ولد فى سنة ١٩٠٧ وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا سنة ١٩٢٧ . حصل على درجة البكالوريوس بمرتبة الشرف ، والأستاذية من جامعة لندن ، وحصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة ، ثم اشتغل بالتدريس

فى كلية التجارة بجامعة القاهرة ، ثم عين أستاذاً مساعداً بها ، وعضواً متفرغاً بالمجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى ثم رئيساً لمجلس إدارة البنك الصناعى وعضواً منتدباً لإدارته وعضواً غير متفرغ بالمجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى وعضو المجلس الاستشارى للصناعة وسكرتير اتحاد الغرف التجارية المصرية . وقد اشتغل بالصحافة والتأليف وعالج المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وله مدرسة فكرية كان لها أثر واضح فى الشباب . ترجم كتابى « المذاهب الاقتصادية الكبرى » و « نظرات فى مستقبل الحركة العمالية » وهما من الكتب التى نشرتها هذه المؤسسة .

مصممة الغلاف : عزة أحمد صبرى

بكالوريوس الفنون الجميلة (قسم الديكور)

محتويات الكتاب

مقدمة

بقلم

الدكتور راشد البراوى

كانت أفريقيا فى السنوات الأخيرة مسرحاً لتطورات شاملة ، لعلها بلغت الذروة فى عام ١٩٦٠ حين توالى الاعتراف باستقلال عدد كبير من البلدان الأفريقية . حقيقة لا تزال هناك أقاليم فى حالة التبعية بصورة أو بأخرى ، كما تعانى أقاليم أخرى متاعب ناشئة عن العلاقات العنصرية ، ولكن الإجماع يكاد ينعقد بين المراقبين من ذوى النظر البعيد على أن هذه المشكلات المتبقية سوف تشق طريقها الى الحل السليم .

وأصبحت شئون القارة موضع اهتمام العالم بوجه عام ، والدول النامية بوجه خاص ، لأن النهضة الأفريقية متعددة الجوانب ، ولأن الاستقلال ـ فى الحاضر والمستقبل ـ ليس سوى مقدمة لتغييرات عميقة فى المجال الاقتصادى وحياة المجتمعات الأفريقية .

ومن هنا تشتد الرغبة فى معرفة كل شىء عن أفريقيا . وهذا يفسر السيل الضخم من المطبوعات والمنشورات التى تخرجها دور النشر والهيئات العلمية المتخصصة وبسرعة يكاد يعجز القارىء عن ملاحقتها . والمؤلفات

الصادرة إما أنها تقتصر على إقليم معين أو جزء منه ، وإما على جانب واحد من جوانب الحياة، وإما على مشكلة واحدة يرى الكاتب أن لها أهمية خاصة .

ولكنا لاحظنا ندرة نسبية فى طراز معين من المؤلفات ، ونقصد به ذلك الذى يعالج القارة بصورتها كلية ويخلو من الطابع الأكاديمى العميق. ولهذا اخترنا الكتاب الحالى لأنه يتابع تطور القارة بمراحله المتعاقبة ، ويتحدث عن معالمها الجغرافية الرئيسية ، وأجناسها وفروعها المتعددة ، ومواردها الطبيعية ، وتقدمها الحالى وإمكانياتها ، ومشكلاتها البارزة مع محاولة الإشارة إلى حلولها ، وكل ذلك فى إيجاز معتدل ، وبأسلوب سهل ، وروح من الدقة العلمية والنزاهة فى العرض ، وهذه مميزات يزيد من قيمتها ما يشتمل عليه الكتاب من خرائط ورسوم توضيحية وصور كثيرة . والواقع أننا هنا أمام مؤلف يشبع رغبة القارىء غير المتخصص ، ويعتبر مرشداً إلى مزيد من الإطلاع لمن يشاء .

القاهرة . يولية سنة ١٩٦٢

كلمة المؤلفة

فى الوقت الذى أكتب فيه الصفحات الختامية فى هذا الكتاب تشهد أفريقيا تغييرات شاملة ، ولا يزال من السابق للأوان أن نتنبأ بالنتيجة التى سوف تسفر عنها سنة الحسم هذه . فاستجابة لمطالب القومية الأفريقية سلم البلجيكيون الكونغو إلى أهله ، ومنح الفرنسيون الحكم الذاتى إلى خمسة عشر إقليماً ، واعترف البريطانيون باستقلال الأفريقيين فى نيجيريا . وكل هذه الدول فى المراحل الأولى من الحكم الذاتى . وتوشك تطورات جديدة أن تقع فى جنوب أفريقيا وفى الأقاليم البريطانية الواقعة إلى الشمال منه .

واحتفلت الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة ، فى اجتماعها بنيويورك فى سبتمبر من عام ١٩٦٠ بانضمام سبع عشرة دولة حديثة العهد بالاستقلال منها ست عشرة افريقية ، و يستطيع ممثلو هذه الشعوب الجديدة أن يتحدثوا عن أنفسهم ، وسوف تسمع أصواتهم فى جميع المشكلات المتصلة بالجنس والعدالة والتى تعتبر حيوية بالنسبة إلى سلام العالم .

كاثارين ساڤيدج ــ نوفمبر ١٩٦٠

الفصل الأول

أفريقيا جنوبى الصحراء

بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر ، وعبر ذلك الجزء المنبعج من القارة الأفريقية ، تمتد الصحراء الكبرى وهى منطقة فسيحة الأرجاء من الصخور والرمال ، تكاد تكون قاحلة تماما . إنها أكبر صحراء بالعالم ، وتحدها من أقصى الشمال جبال أطلس التى تمثل حاجزاً ضخما يفصل بين ذوى البشرة البيضاء ممن يقطنون شمالى أفريقيا و بين القبائل ذات البشرة الأكثر سواداً والتى نلقاها صوب الجنوب . وقبل عصر السكك الحديدية والطائرات كان الجمل الوسيلة الوحيدة لعبور الصحراء الكبرى فى طرق القوافل المليئة بالأتربة . وتبلغ المسافة من تونس إلى بلدة تمبكتو ألفى ميل ، وهذه الرحلة لم يكن ليقدم عليها سوى أشد الرحالة طموحاً ، ولم يكن الكثيرون منهم ليبلغوا غايتهم . أما الذين كانوا يخفقون فى إتمام الرحلة فكانوا يضلون الطريق وسط العواصف الرملية التى تذهب بالأبصار ، أو يفقدون صوابهم نتيجة العطش ، أو تقتلهم قبائل الدراويش التى تجوب الصحراء .

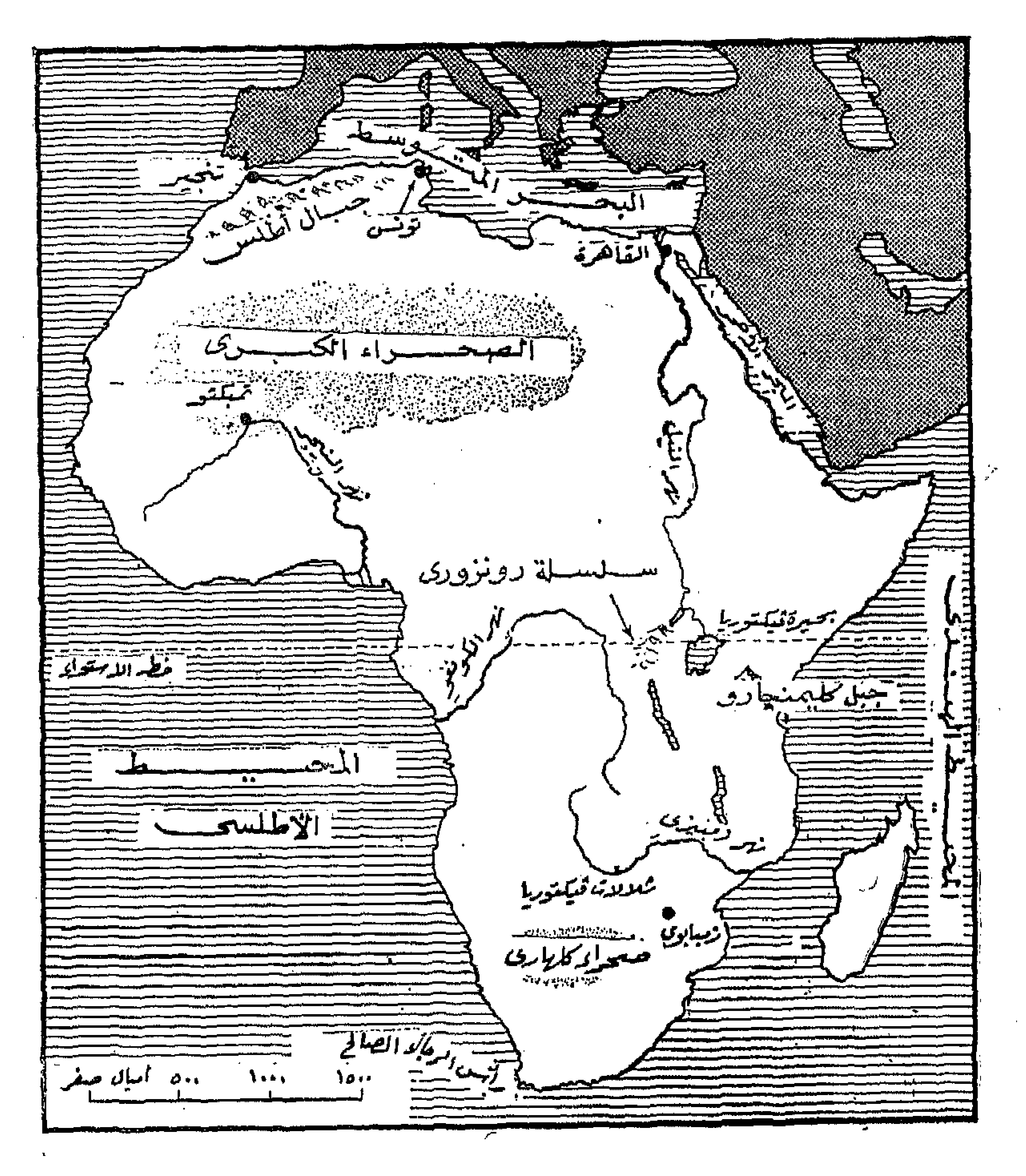
ولذلك ، وعلى مر العصور ، تأثر أهل أفريقيا الشمالية بثقافات سكان

البحر المتوسط المحيطين بهم، وفتوحهم ودياناتهم ، أما الافريقيون المقيمون إلى الجنوب من الصحراء فـكان اتصالهم بالبيض يسيراً .

هذا الإقليم الجنوبى وهو أرض الزنوج والبانتو والهوتنتوت والبوشمن والأقزام وغيرهم من الشعوب الأخرى ، تعادل مساحته ثلاثة أمثال مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو الموضوع الذى يعالجه هذا الـكتاب .

فى حوالى عام ٦٠٠ قبل الميلاد بعث نخاو ، فرعون مصر ، بأسطول تولى قيادته بحارة فينيقيون ، عبر جنوباً فى البحر الأحمر ،وتحدثنا السجلات التى خلفها القدماء أن هذه السفن عادت الى مصر بعد سنوات ثلاث مخترقة مجاز أعمدة هرقل الذى نعرفه الآن باسم مضيق جبل طارق ، و بذلك دارت حول القارة . و إذا كانت هذه السفن قد عادت تحمل الروايات عن البلدان التى زارتها ، فإن يد الضياع امتدت إلى هـذه الروايات منذ ذلك الحين .

وخلال ألفى عام بعد ذلك لم نـكن نعرف إلا القليل عن أفريقيا الاستوائية إلى أن جاء القرن الخامس عشر الميلادى وتزعم البرتغاليون فى ظل ملـكهم الشاب هنرى الملاح ، رحلات الـكشف ، فنزلوا إلى البر الأفريقى وعقدوا معاهدة مع سيد الـكونغو وأنجولا فى الجنوب الغربى ، ثم أنشأوا إلى الشمال من هذه المناطق محطات للاتجار بقصد شراء الفلفل الأسود ، والعاج ، والعبيد الزنوج . وفى عام ١٤٩٧، أى بعد أن اكتشف



أفريقيا من الساحل إلى الساحل

خريستوف كولمبس أمريكا بخمس سنوات ، دار القبطان البرتغالى فاسكو داجاما حول رأس الرجاء الصالح وحط رحاله فى الهند . ونُظّمت حملات أخرى بعد عودته المظفرة .

وأنشأ الجنود والقساوسة والتجار المستعمرات فى أماكن متناثرة على طول الساحل الأفريقى ، وراحوا يستكشفون المناطق الداخلية . كانوا قوما يتصفون بالجرأة والمثابرة ، ونجح القساوسة فى تحويل بعض السكان إلى المسيحية ، كما قام الجنود بأعمال غزو متسمة بالقسوة ولكن مخاطر القارة ومقاومة السكان الوطنيين والحميات المنتشرة بالمناطق الاستوائية — كل هذه حملتهم على العودة إلى السهول الساحلية . ففى ذلك الوقت لا بد أن امتلأت نفوس الأفريقيين بالخوف من عدوان هؤلاء الدخلاء الأجانب ، ولكن البرتغاليين فى النهاية جاءوا لهذه البلاد بأكثر مما جنوا منها ؛ إذ جلبوا معهم القمح ، والطباق ، وقصب السكر ، والبرتقال ، والليمون ، وعلموا أهلها كيف يزرعون هذه النباتات . وبينما كان العالم الجديد فى الأمريكتين يكتسب الحكمة والثراء ، وكان الرواد يستكشفون أمريكا الشمالية من ساحلها الشرقى إلى الغربى ، ظلت افريقيا القارة المظلمة التى يحيط بها الغموض وتذود الغير عنها . ويبدو أن قيمتها بالنسبة إلى العالم الغربى خلال القرون التالية ، اقتصرت على توسطها الطريق إلى الهند وكونها مورداً للعبيد الزنوج للعمل فى المزارع الأمريكية .

وكانت تصل إلى أوربا بين الحين والآخر شائعات عن الذهب المخبوء يرددها العرب ممن كانوا يقايضون ملح الصحراء الكبرى بتبر أفريقيا الغربية ، أو يتجرون فى العاج وعبيد شرقى افريقيا بالسوق الكبيرة فى

زنجبـــار . هذه القصص لم تجتذب المغامرين والتجار فى إنجلترا وفرنسا وهولندة و إسبانيا والبرتغال ، إذ كانوا مشغولين فى بلاد أخرى . كان نشاطهم متجهاً بعيداً صوب الشرق جرياً وراء كنوز الصين والهند ، أو نحو الغرب يجتذبهم ما تبشر به الأمريكتان من آمال براقة . وفى القرن السابع عشر أقام التجار الهولنديون محطة عند رأس الرجاء الصالح لتزويد بحارتهم بالغذاء والماء خلال رحلاتهم الطويلة بين هولندة والشرق الأقصى، ولـكن هؤلاء المستوطنين لم يجسروا على التوغل فى الداخل .

ولم يتحول الاهتمام العام إلى أفريقيا مرة ثانية إلا بابتداء القرن التاسع عشر ، وكان السبب الأساسى فيه أن المصلحين فى إنجلترا أثاروا ضمير الناس ضد الشرور المترتبة على تجارة الرق . فقام رجال البعثات التبشيرية من أهل العزم ، والمستكشفون من ذوى الجرأة ، وفى أعقابهم مباشرة الباحثون عن العاج والساعون الى الثراء ، بتحويل الوثنيين إلى الديانة المسيحية ، و إلغاء تجارة الرق ، ورسم الخرائط للبلاد ، وتنمية التجارة . ثم جاء بعد ذلك بناة الإمبراطوريات ؛ ذلك أن الـكثير من الدول الـكبرى الأوربية كانت تريد الحصول على المستعمرات واشتركت بتحمس فى التهافت العام على الأراضى الأفريقية . ولم يحل عام ١٩٠٠ حتى كان الأوربيون قد أخضعوا الزعماء القبليين أو عقدوا معهم المعاهدات، و بسطوا سيطرة الرجل الأبيض فى كل مكان جنوبى الصحراء الـكبرى ، فيما عدا جمهورية ليبيريا

الزنجية الصغيرة فى الغرب ، و إمبراطورية أثيوبيا فى الشرق . إن تاريخ ليبيريا منذ تأسيسها حتى اليوم جزء من القصة التى نقدمها ، فى حين ترتبط الأحداث فى أثيوبيا ارتباطاً وثيقاً بأفريقيا الشمالية ، و بهذا تخرج عن نطاق هذا الكتاب .

ومنذ هذا الغزو الأوربى الشامل حدثت تغييرات ضخمة ، فدخلت الزراعة فى مساحات واسعة من البرية القفر وجُمعت ثروات خرافية . واليوم تنتج أفريقيا معظم ماس العالم وأكثر من نصف ذهبه . وتم الكشف عن النحاس واليورانيوم والقصدير والفضة ، وسُخِّرت أنهار جبارة فى توليد كمية هائلة من القوة الكهربية .

و ينمو الطباق والشاى والبن والقطن والفول السودانى فى المرتفعات الشرقية ، والكاكاو والرز فى الوديان الغربية الحارة . وتزرع الكروم والخوخ وفاكهة الآلام والبرتقال والتفاح والليمون والبرقوق بوفرة فى المزارع الخصيبة بمستعمرة الرأس الواقعة فى المنطقة المعتدلة الجنوبية . وفى المناطق الداخلية المجاورة وعلى سفوح كارو الخضراء ترعى قطعان الماشية والأغنام .

إن أفريقيا أرض المتناقضات ؛ فالثراء والفقر يعيشان جنباً الى جنب . وتقوم المدن البديعة التى تضم ناطحات السحاب والملاعب الرياضية التى تغمرها الأنوار ، على حين تكاد قرى الوطنيين تحتفظ بطابعها البدائى الذى كانت عليه دائماً . وحوالى ثلاثة أرباع الأفريقيين الوطنيين



غابة استوائية

لا يستطيعون القراءة أو الكتابة ، ولايزال الجهل والخرافة والمرض والجوع تسيطر على أقاليم كثيرة .

وتكاد القارة فى كل مكان تزخر بالجمال . فالجبال رائعة المنظر ، والغابات شاسعة متشابكة الأغصان ، والألوان نضرة متنوعة .

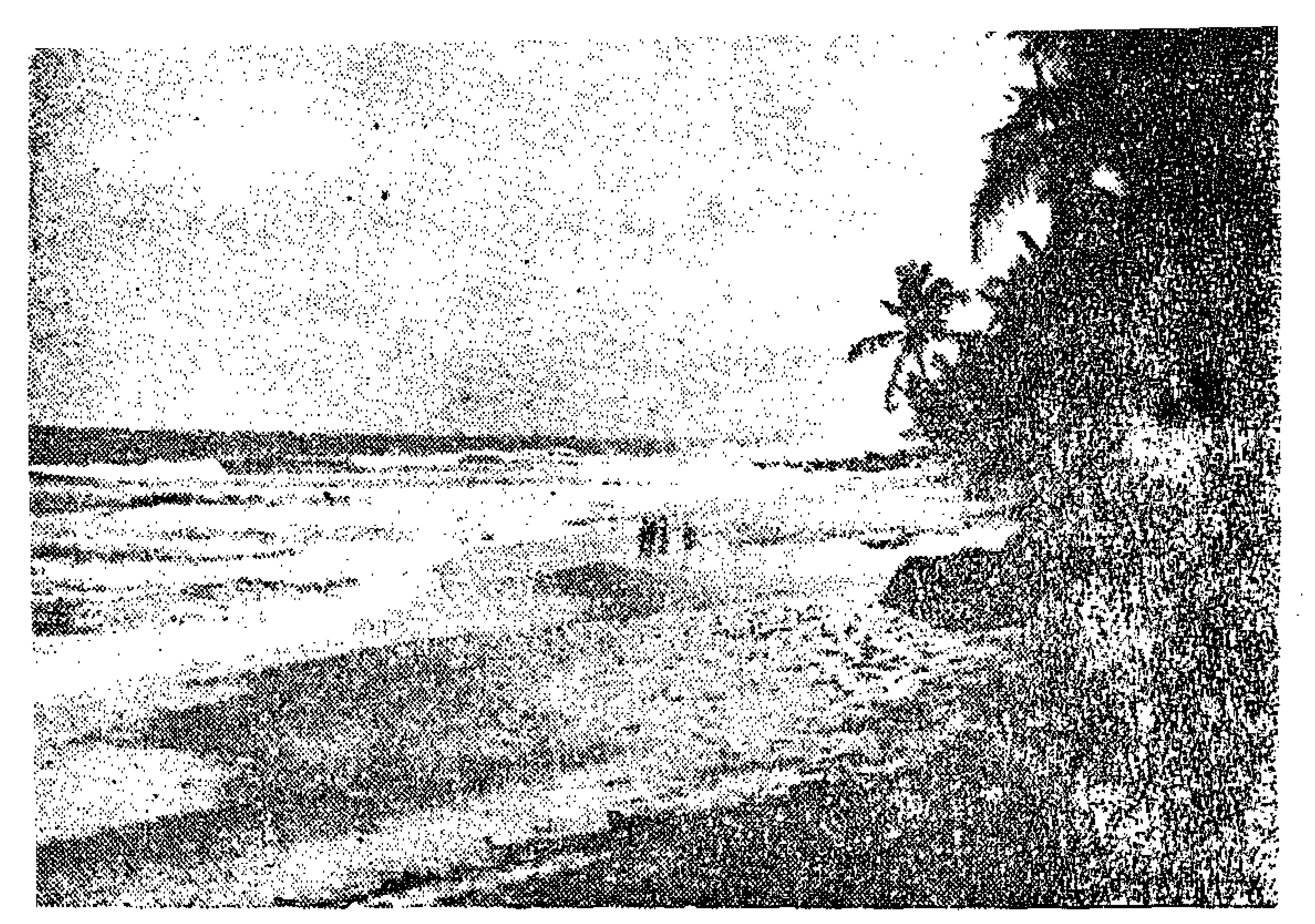
وفى غرب أفريقيا ، حيث تقترب الصحراء الكبرى من خط الاستواء ، تتحول الصحراء تدريجيا الى النبات الصغير ، وتظهر الأشجار التى تعوق السير والتى تتخللها أجزاء تكسوها الحشائش . هذه هى منطقة السافانا أو « بلاد الآجام » و بداية أفريقيا الاستوائية . و يزداد سقوط المطر ، وتزداد الأشجار ارتفاعاً وتقارباً الى أن تتشابك أغصانها فى الغابات الكثيفة . هذه الغابات التى تعيش على المطر تمتص الماء كأنها قطعة من الإسفنج ، وتلتف الأوراق فوقها فيتكون منهاما يشبه ظُلَّةً خضراء ، مضفية على ما تحتها من الغابة المنتفخة شفقا باهتا فلا تكاد ترى .

فإذا بعدنا فى اتجاه الجنوب شاهدنا قطعان جاموس النهر تخوض مياه نهر الـكونغو الدافئة ، والتماسيح مستلقية بأجسامها المسمرة المائلة على الشواطىء المظللة ، وحيات الفوقون [١] تتربص فى جـذور أشجار النخيل المنجروف [٢] .

وأرض الأجمات فقيرة، فالوطنيون فى حوض الـكونغو يزرعون قطعة الأرض سنوات قلائل ثم ينتقلون إلى تربة جديدة . وهم لا يستطيعون تربية المـاشية بسبب مرض قاتل تحمله ذبابة تسى تسى . فتمرض الماشية وتموت . وهذه الذبابة نفسها تمثل خطراً قاتلا بالنسبة إلى الآدميين ؛ إذ تسبب مرض النوم ـ وهو لعنة مريعة تستطيع أن تمحوقرى بأ كملها . ولـكن العلماء بذلوا الجهـد من أجل التغلب على أمراض المناطق الاستوائية ، وابتدعوا عقاقير لمنع الملاريا وعلاجها ـ وهى أ كثر هذه الأمراض انتشاراً ، و بذلك لم يعد فى الإمكان بحق أن يطلق على غرب أفريقيا عبارة « قبر الرجل الأبيض » .

هذا الشاطىء ـ الذى تـكثر به الأمواج ـ من أعظم الشواطىء خطراً على الملاحة ، وظلت القوارب الوطنية التى تقاوم الأمواج والتى يقودها بحارة أفريقيون بحذق ومهارة ، تنقل البضائع ـ قروناً ـ من السفن إلى الشاطىء مخترقة هذه الموجات الـكبار . ووراء

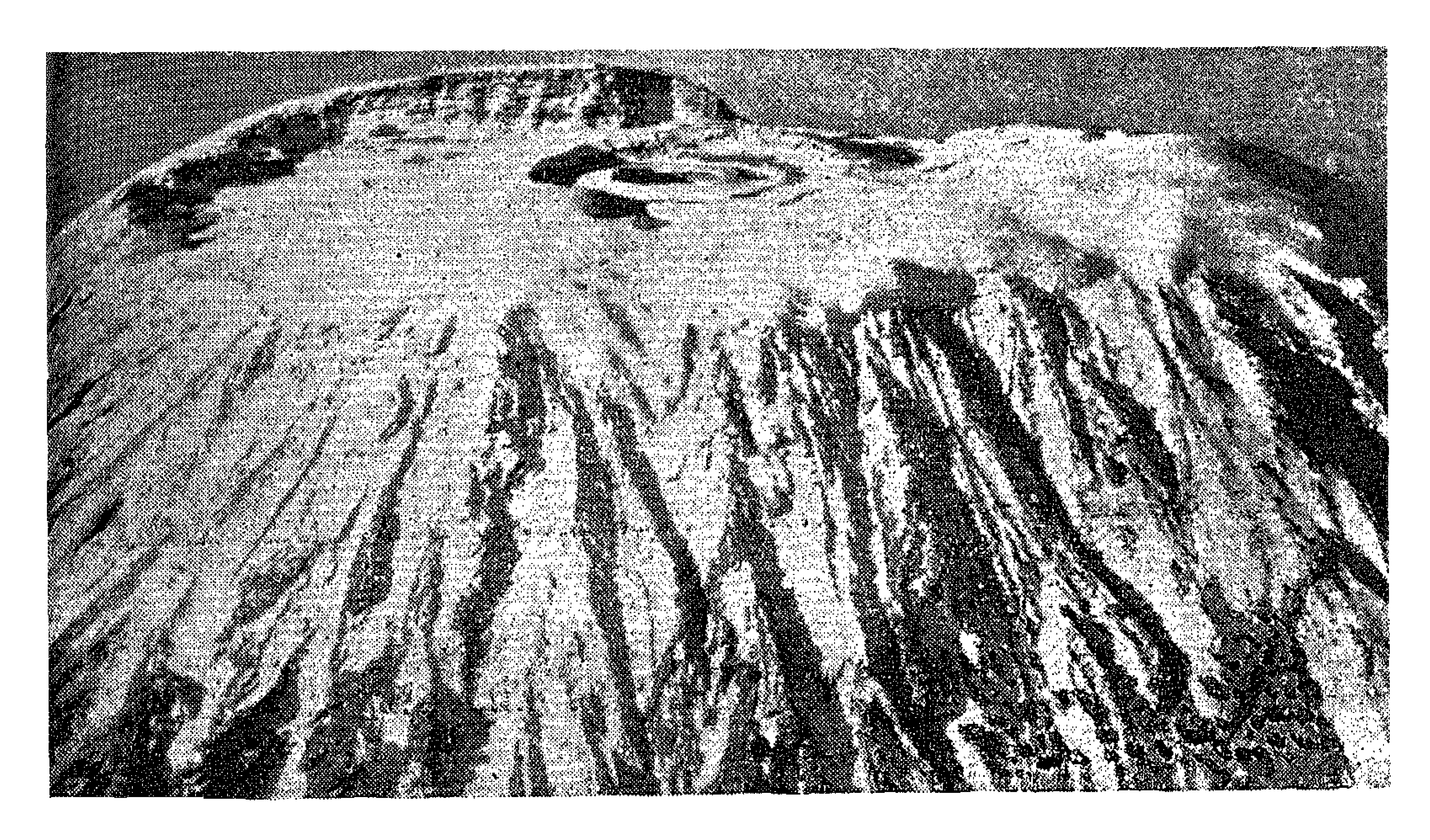
١ ـ يقال لها الأصلة « Python » وهى حية كبيرة الحجم (المترجم)
٢ ـ المنجروف « Mangrove » نوع من أشجار تخرج كثيرا من الجذور الهوائية . (المترجم)



ساحل الذهب

الشاطىء نلقى مستنقعات مليئة بالأحراج تؤدى إلى الغابات التى يستحيل اختراقها ، والمرافىء الطبيعية نادرة ، وغالبا مانلقى مصبات الأنهار وقد سدتها الحواجز الرملية الخائنة . ففيما بين لاجوس الواقعة على ساحل خليج غينيا وثغر مدينة الكاب الجميل فى أقصى الجنوب حيث يلتقى المحيطان الأطلسى والهندى لايوجد سوى القليل من الموانى الجيدة .

ويختلف شرق أفريقيا جنوبى الصحراء عن غربها اختلافاً يلفت النظر ؛ إذ تأخذ الأرض فى الارتفاع بشدة من السهول الصحراوية إلى هضبة صخرية عالية تتخللها سلاسل كبرى من الجبال البركانية ، وتغور فى أرجائها وديان ملتوية تملؤها البحيرات التى تعيش على ضفافها طيور البجع ، والكركى بأعرافها ، ومالك الحزين . وحين يحل الظلام ترد جموع من الحيوانات البرية ، كبيرها وصغيرها حجماً ، لتشرب . وهنا



جبل كايمنجارو

تطير جموع البشاروش الحجولة إلى الجو فتشكل سحابة من الريش ذات لون قرنفلى .

وفى هذه المرتفعات ينبع النيل و ينساب شمالا من أوغنده لمسافة أربعة آلاف ميل وقد أطبقت عليه الصحراء ، إلى أن يصل إلى البحر المتوسط مكونا دلتا كبيرة على هيئة المروحة ، و إنه لمن أروع المشاهد أثراً فى النفس أن نرى ذلك الخط الرفيع الأخضر والملتوى الذى يخترقه نهر النيل والذى هو الجزء الوحيد من هذه الصحراء الهائلة الذى يمكن أن تزدهر فيه الحياة والنباتات .

وكينيا وأوغنده هما بلدا الجبال الاستوائية ، ويقعان عبر خط الاستواء . ولكن أعلى المنحدرات تغطيها الثلوج بصفة دائمة . وهذه المنحدرات جميعا

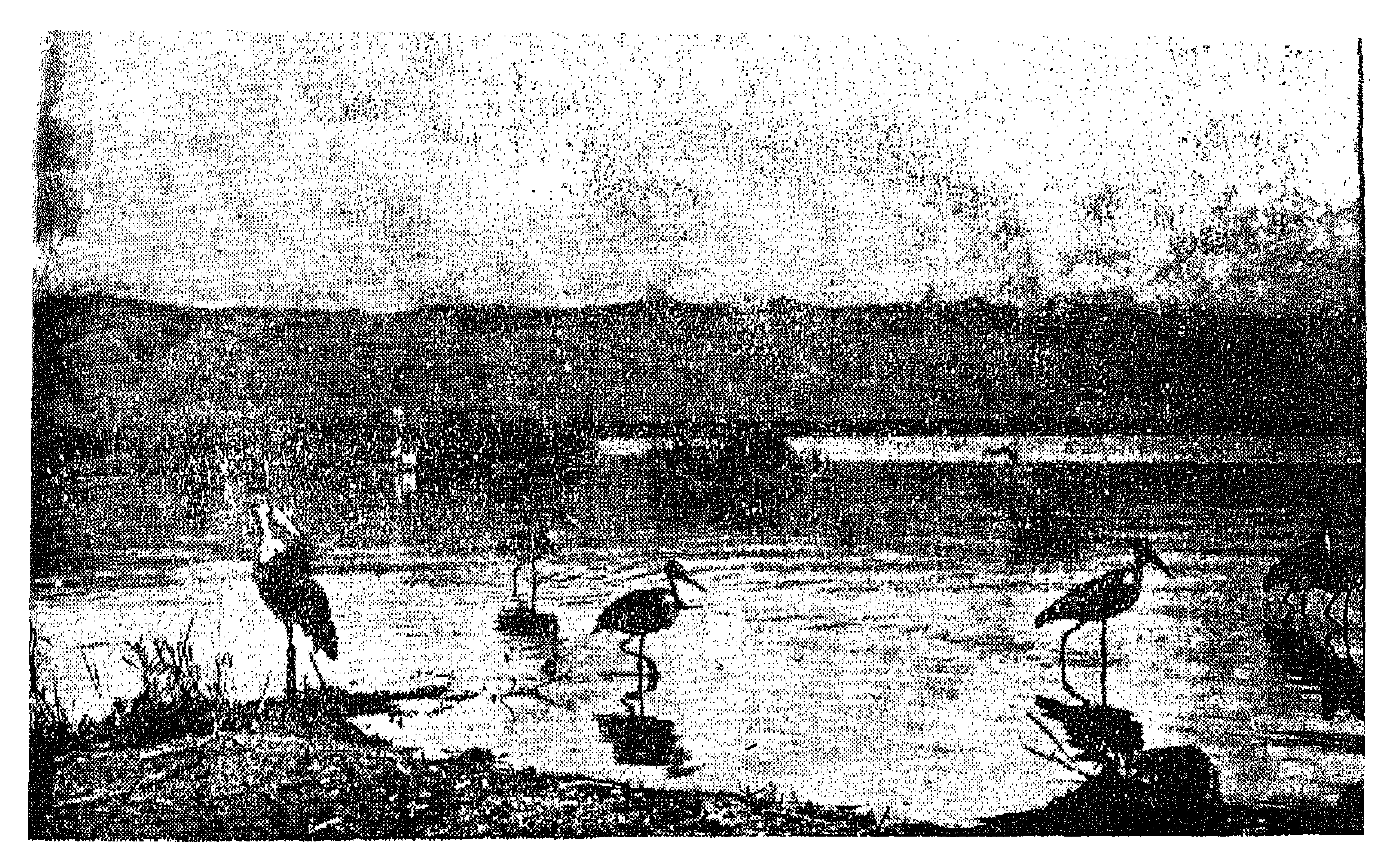
يعلو فوقها جبل كليمنجارو ، ملك القمم الأفريقية إذ يقرب ارتفاعه من ٢٠٫٠٠٠ قدم . وفى السهول الخصيبة الواقعة فى ثنايا الجبال يزرعون البن والطباق والقطن بوفرة .

وعلى مقربة من كليمنجارو يتجه وادى الأخدود الكبير شمالا صوب البحر الأحمر الذى هو شق عميق فى القشرة الأرضية .

وإلى الغرب من كينيا وعلى طول الحدود الفاصلة بين أوغنده وجمهورية الكونغو ، [1] تغطى الغابات العالية من أشجار البامبو المتمايلة سفوح سلسلة بركانية تفتقر إلى الاستواء ، وهنا تحيا الغوريلا الضخمة حياة عائلية منعزلة . ولقد ظل الناس سنوات يظنون أن هذه القردة الكبيرة حيوانات ابتدعتها الأساطير . وظل هذا الظن قائما حتى عام ١٨٦٥ حين عثر المستكشف الأمريكى الجنسية والفرنسى المولد ، دى شايو ، على موطنها ، ودرس عاداتها البشرية ، وأقنع علماء الحيوان بحقيقتها .

هذه هى سلسلة رونزورى ، جبال القمر الأسطورية ، التى ظلت قرونا تثير حب الاستطلاع وروح الشك . فقد أشار إليها الجغرافى الإغريقى بطليموس الذى عاش بمصر فى القرن الثانى قبل الميلاد والذى تتبع الطرق التى سلكها الرحالة الأولون ، مواصلا السعى من أجل أن يكتشف منها المنبع الحقيقى للنيل .

١ — يقصد بها « الكونغو البلجيكى سابقا » وعاصمتها ليوبولدفيل وذلك تمييزا لها عن جمهورية تحمل الاسم نفسه وعاصمتها برازافيل وكانت قبلا من المستعمرات الفرنسية (المترجم)



أرض الجبال الاستوائية

والقصص التى كان يرويها السكان الوطنيون عن جبال «الملح» التى لامثيل لها فى بياضها الذى يأخذ بالأبصار ، كانت تسحر خيال الرحالة فى ذلك العصر العظيم الذى شهد اكتشاف النيل فى القرن التاسع عشر ، وراحوا يبحثون على غير طائل ، ذلك أن القمم تختفى فى العادة وراء السحب.

وفى عام ١٨٨٨ وجد المستكشف الأمريكى هنرى ستانلى الجبال التى سبق أن وصفها بطليموس ؛ إذ بينما كان فى طريقه من الكونغو متجها ناحية الشرق أشار الحمالون المرافقون له فجأة إلى قمم بيضاء لامعة كانت

تضيء خلال فتحة في السحب ، كأنما حدث ذلك بفعل السحر . كانت القمم تبدو كأنها معلقة في السماء وذلك البريق اللامع المنبعث من الثلج الذي يكسو سفوحها التي ترتفع من ظلام الغابات المطرية ، أضفى عليها منظراً لا يمت الى الأرض بصلة ؛ منظراً مستقلا وسماويا .

وإذ نهبط من الجبال الاستوائية ونتجه جنوباً صوب الروديسيتين تنفرج الأرض مكونة سهولا واسعة تتناثر فيها الآجام والأدغال . وروديسيا الشمالية غنية بالنحاس ، ولكن المظهر العام خشن قاحل حيث تتصاعد إلى السماء على هيئة ربى ومنحدرات من الحجر الجيري اللامع . وفي روديسيا الجنوبية تبدأ أرض البراري (الفلد « Veld ») وهي أرض بور وصخرية أولا في البراري العالية ، ثم تختلط بالتدريج مع مزارع الطباق والأراضي الزراعية كلما أخذت في الاقتراب من رأس الرجاء الصالح .

وجمال الفلد في وقت الربيع مما يجل عن الوصف ، ففي فصل الجفاف تصبح الأرض سمراء اللون ويتقاص كل نبات ، ولكن حين تأتي الأمطار ينبثق الحشيش النضر فيجعل منها بساطا أخضر وتضفي الأزهار زينة على السهول . وتزدهر ورود الفلد والأزهار السنغارية القرمزية ، وتخرج أشجار الموجاني غلالة مورقة . ويهبط المنحدر من الفلد العالي إلى المنخفض على صورة مدرجات من الصخر .

ومنذ قرن مضى كانت أراضي الحشائش والفلد تزدحم بالحيوانات

البرية . ولكن صيادى الحيوانات الكبيرة من جميع الجنسيات قضوا على جانب كبير منها. ورغبة فى إنقاذها من الانقراض الكلى بُنيت لها معازل خاصة فى أجزاء كثيرة من أفريقيا حيث تستطيع أن تعيش فى ظل بيئتها الطبيعية . وفى هذه المساحات الكبيرة المحمية تسرح الفيلة والزراف والسباع والفهود والخرتيت والجواميس وحمير الوحش والغزلان والخنازير البرية فى حرية . وتسير الحياة البرية وفقاً لقوانين الطبيعة . فالوحوش الكاسرة تترقب وتقتل ، والجوارح تتجمع فى أسراب تنذر بالخطر كى تلتقط عظام الضحايا ، وتسير الفيلة بهيبتها وجلالها أمام تطفل الإنسان ، وتقفز النعام عبر السهول وهى تتمايل فى حركة غريبة كأنها من راقصات الباليه .

والفلد العالى تقسمه مياه نهر زمبيزى الذى ينساب من منبعه فى الداخل إلى المحيط الهندى . وفى سنة ١٨٥٤ ، وبروح الشعور بالفوز والدهشة ، اكتشف الدكتور ليفنجستون شلالات فيكتوريا — وهى من أعظم روائع أفريقيا . وفوق الشلالات يشق زمبيزى لنفسه مجرى مفتوحاً واسعاً ، وتقوم على جانبيه تصل إلى غابات حافة الماء . وتقفز النسانيس من شجرة إلى شجرة وهى تثرثر بلا انقطاع . وتحط الببغاوات بريشها البديع فوق الأغصان المتفرعة ، وترهى طيور التمرة وصياد السمك عبر الماء.

وفجأة تنتهى نعومة سطح النهر الزجاجية حين يهوى بهدير دافق

فوق هاوية إلى خانق ضيق فى أسفل . ومن سفح الشلالات يحلق حائط لامع عن رشاش الماء إلى ارتفاع ألف قدم . ويطلق الوطنيون على هذا اسم « الدخان الذى يرعد » وينظرون إلى الشلالات نظرة يتجلى فيها الاحترام والخوف .

وطرف القارة الافريقية والذى يشبه الكمثرى يشمله اتحاد جنوب افريقيا ، حيث الثروة الخرافية والفاقة التى تبعث على اليأس . ففى مدينة جوهانسبرج حيث الذهب ، وفى كمبرلى حيث الماس ، نلقى الثروات التى لاحصر لها . أما فى صحراء كلهارى وإلى الغرب قليلا حيث لا يسقط مطر خلال تسعة أشهر فى السنة فإننا نلقى مجموعات صغيرة من البوشمن ذوى الأجسام الضئيلة تكاد تعيش فى أدنى مستوى من الحياة الإنسانية .

هذه هى أفريقيا !!

الفصل الثانى

الأفريقيون

هناك أفكار مختلفة كثيرة حول أصل الأفريقيين ، ولكن يبدو من المرجح أنه منذ زمن طويل عبرت الحيوانات شريط الأرض الواقع بين آسيا وأفريقيا والذى شقت فيه الآن قناة السويس ، وذلك هربا من البرد وهجمات الإنسان البدائى . وربما كانت هذه الفيلة وأفراس البحر والقردة والظباء موضع المطاردة بلا هوادة نحو الجنوب من جانب الصيادين الذين أقاموا فى ذلك العصر وأصبحوا السكان الأول فى أفريقيا الاستوائية .

ولم تكن للقبائل الكثيرة التى تعيش اليوم جنوبى الصحراء معرفة بالكتابة قبل مجىء الرجل الأبيض ، ولهذا لم تخلف بعدها أية سجلات . إننا نستخلص الماضى الأفريقى من القصص والأغانى والرقصات القبلية ومن المخلفات القديمة القلائل . لقد قيل إن أفريقيا أرض بلا تاريخ ، وهذا غير صحيح ، ولكن المؤكد أنه لم يصل إلينا إلا القليل جداً .

وثمة أمثلة قليلة عن الثقافة الوطنية لا تزال قائمة ؛ ففى الأزمنة التى كان فيها البوشمن يجوبون أنحاء أفريقيا الجنوبية كانوا من الفنانين



رسم قديم من البوشمن

الموهوبين . وخلفوا وراءهم رسوما فى الصخر تمثل الاحتفالات الدينية ومجموعة متنوعة من الحيوانات؛ إذ كانوا من الصيادين العظام. وكان سكان أفريقيا الغربية نحاتين يمتازون بجودة الخيال ، وخلفوا لنا تماثيل رائعة للآلهة والناس . ولا شك أيضا أنهم صنعوا تماثيل من الخشب التهمها النمل الأبيض منذ ذلك الحين .

ولقد وصلت إلينا الآن بطريقة الرواية . فحول نيران القرية كانت أجيال كبار السن تقص على أبنائها أنباء أعمال الشجاعة والسحر والتكتيكات

القبلية . من الصعب أن نربط بين هذه في ترتيب زمني متصل ، ذلك أن الكثير من القبائل التي كانت منهمكة في الصراع اليومي من أجل البقاء ، لم تفكر كثيراً في الماضي أو المستقبل. والواضح أنها لم تجد من الضروري أن تخترع الساعات أو أية وسيلة أخرى تحتسب بها مرور الزمن .

وحين دخل المستكشفون البرتغاليون الأوائل الإقليم المعروف الآن باسم روديسيا الجنوبية اعترتهم الدهشة وأثير خيالهم حين وجدوا الخرائب العظيمة في زيمبابوى ، شاهداً على وجود إمبراطورية أفريقية عفى عليها الزمن . واختلف علماء الآثار حول التاريخ الذى قامت فيه حضارة زيمبابوى ، ولكن الرأى المتفق عليه عموما الآن أن المدينة بنيت في حوالى القرن التاسع الميلادى ، أى قبل أن كشفها البرتغاليون بستمائة عام .

ومن المحتمل أن القوم الذين عاشوا في زيمبابوى أخرجتهم من ديارهم الهجمات الوحشية التي شنتها عليهم القبائل المعادية ، فهزمت جيوشهم وتحطمت إمبراطوريتهم .

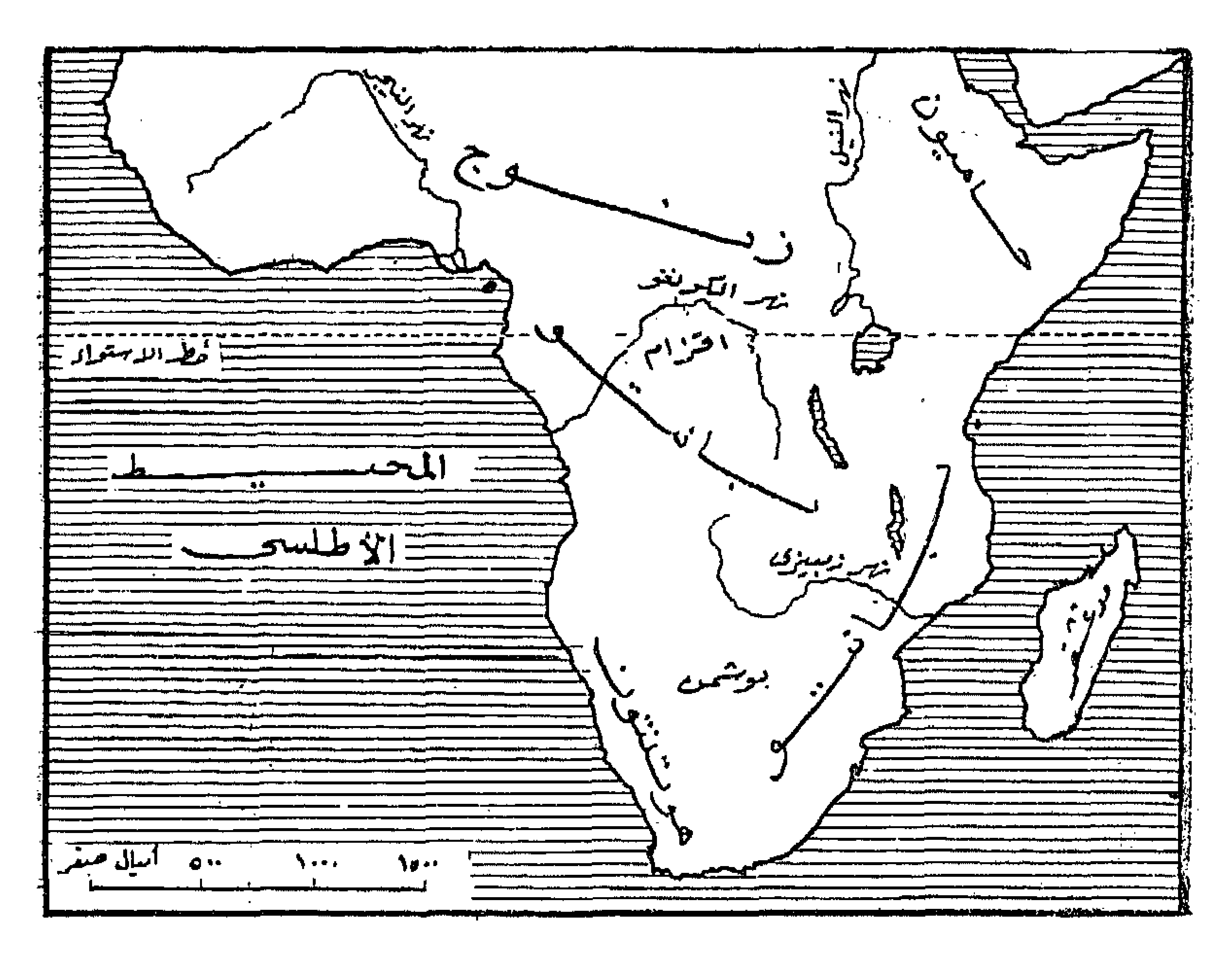
وفيما بين زيمبابوى والساحل التقى المستكشفون بمناجم الذهب القديمة ، ولا يزال بعض الناس يعتقدون أنها كانت مناجم الملك سليمان التي ورد وصفها في التوراة ، ومصدر ثرائه والذهب الذى استخدمه في معبده الفخم

ويبلغ عدد سكان أفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى الآن ١٣٧ مليون نسمة تقريبا . وفى جنوب أفريقيا حوالى أربعة من الأفريقيين مقابل أوربى واحد ولكن النسبة فى أفريقيا الاستوائية تصل إلى مئات كثيرة مقابل فرد واحد .

وفى أفريقيا جنوبى الصحراء خمس مجموعات رئيسية من السكان الوطنيين ويمكن أن يقال لهم بحق الأفريقيون . ويقيم الزنوج بالمعنى الحقيقى فى أفريقيا الغربية بين الصحراء وخليج غينيا ، والأقزام فى الغابات الاستوائية على مقربة من خط الاستواء ، والبوشمن فى صحراء كلهارى ، والهوتنتوت فى مستعمرة الرأس ، أما أكبر مجموعة - وهى البانتو - فقد انتشرت فى أفريقيا الشرقية من الصحراء إلى رأس الرجاء الصالح ، وامتزج أفرادها بالحاميين ذوى البشرة البيضاء ممن وفدوا من الشمال ومع البوشمن الصغار الحجم الذين يعيشون فى الجنوب .

وتختلف الأجناس الأفريقية اختلافا كبيراً فى مظهرها ولغتها وعاداتها . فالزنجى من أهل أفريقيا الغربية لا يستطيع التفاهم مع بانتوى من أهل كينيا بأفضل مما يستطيعه النرويجى مع الإسبانى .

والزنوج الخلص من أشد الأجناس سواداً . وهم رياضيون أقوياء جداً وممتازون ، وكانوا فى أزمنة الحروب القبلية من المحاربين القساة . وهم يعيشون أصلا بين الصحراء وخط الاستواء حيث المناخ حار شديد الحرارة



الأجناس الأفريقية جنوبى الصحراء الكبرى

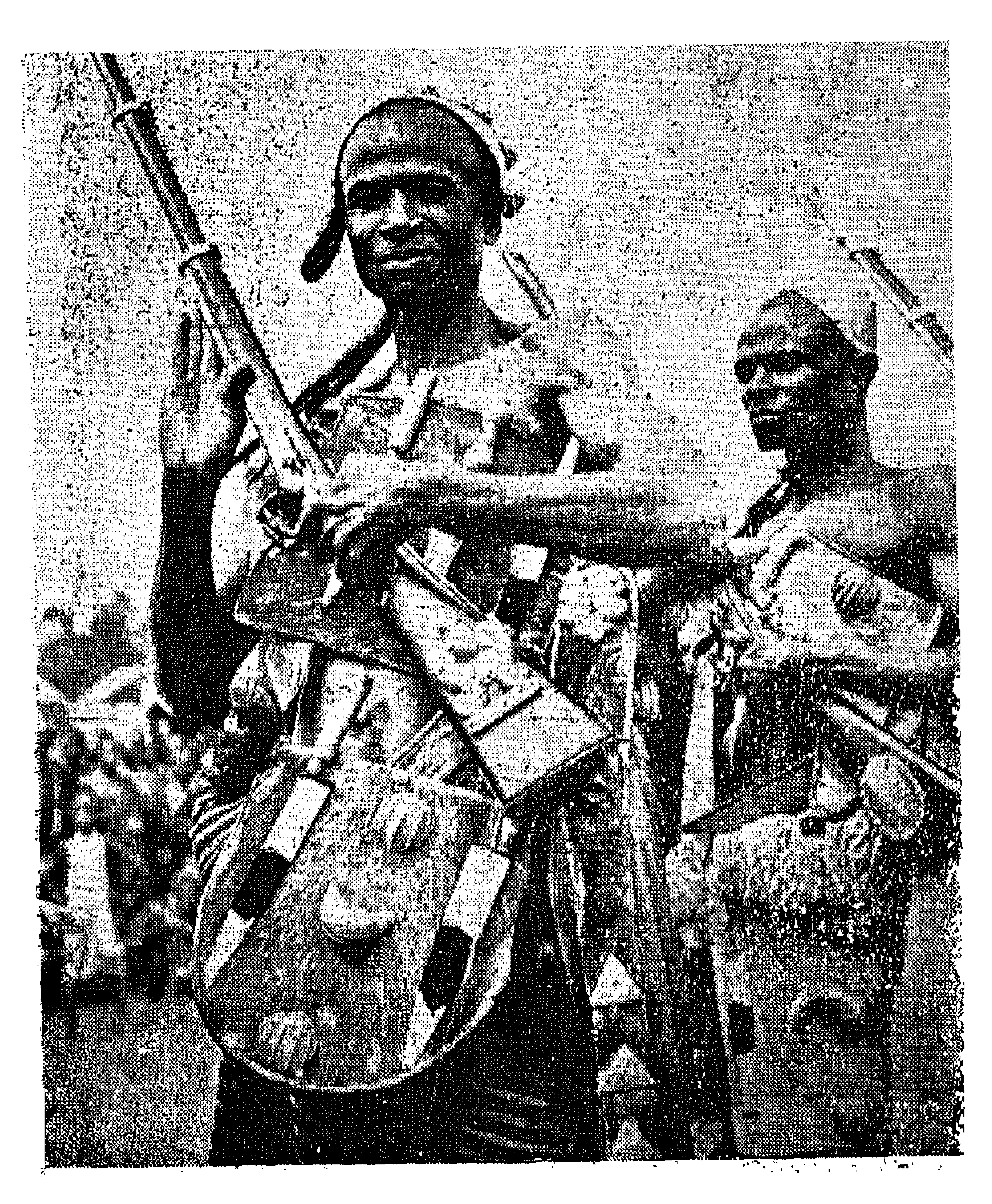
على مدار السنة . ولم يجر استغلال الثروة المعدنية تماماً حتى الآن ، وتقضى ذبابة تسى تسى على الماشية . ولذلك يعمل معظم أهل أفريقيا الغربية فى الأرض وينتجون الكاكاو والموز والرز . ولا يزال الكثيرون منهم يقيمون فى أكواخ خشبية كل منها من حجرة واحدة سقوفها من أوراق النخيل المضفورة ، ويزرعون قطعة أرض صغيرة بالطباق لاستعمالهم الخاص . وجميع الأفريقيين تقريباً يحبون التدخين الذى يعتبر بالنسبة إلى الكثيرين اللون الوحيد من ألوان الترف .

إن الأزمنة والأحوال فى طريقها إلى التغيير ، وفى كل عام يزداد عدد الذين ينتقلون للعمل بالمدن ، وكذلك يزداد عدد الأطفال الذين يتوجهون إلى المدارس والكليات حيث يحصلون على التعليم الذى يؤهلهم لأن

يصبحوا مدرسين ، ورجال دين ، ومعماريين ، ومهندسين . ولقد انتخب حديثاً أحد المثقفين من أبناء أفريقيا الغربية زميلا فى كلية جميع الأرواح بجامعة أكسفورد ، وهذا من أعلى ضروب التكريم الأكاديمى فى العالم .

وأطلق الملاحون الأوائل الذين أبحروا إلى أفريقيا الغربية على الشواطىء الواقعة على طول خليج غينيا أسماء تتفق مع السلع الموجودة فيها ، فقالوا سواحل الحب (وكان هذا هو الفلفل) والعاج ، والذهب ، والعبيد ، بل وأثبت العبيد أنهم سلعة أكثر أربحية من الذهب . وكانت التجارة تتضخم بفعل الحرب ، لأن الفانتى واليوروبا والهوسا والداهومى والأشانتى وغيرهم من رجال القبائل الأخرى كانوا يبيعون أسراهم فضلا عن محصولاتهم لتجار البيض مقابل عقود الخرز ، والأسلاك التى تستخدم للاصطياد ، والقماش والروم . وكانت جيوش الأشانتى من أكثر الجيوش تعطشاً للدماء ، وعن طريق سلسلة من الفتوح البربرية تمكنت القبيلة من بناء شعب قوى اتخذ من بلدة كوماسى عاصمة له . وتقع بلاد الأشانتى فى جمهورية غانا الجديدة .

وثمة أسطورة تقول إنه فى القرن الثامن عشر كان يعيش فى كوماسى ساحر ماهر يقال له أنوتشى استطاع فى حضور الملك وجمع غفير من الناس أن ينزل من السماء كرسياً ذهبياً ، معلناً أن هذا الكرسى تقمصت فيه روح شعب الأشانتى . ومنذ ذلك اليوم أصبح الكرسى أثمن مايملكون ،



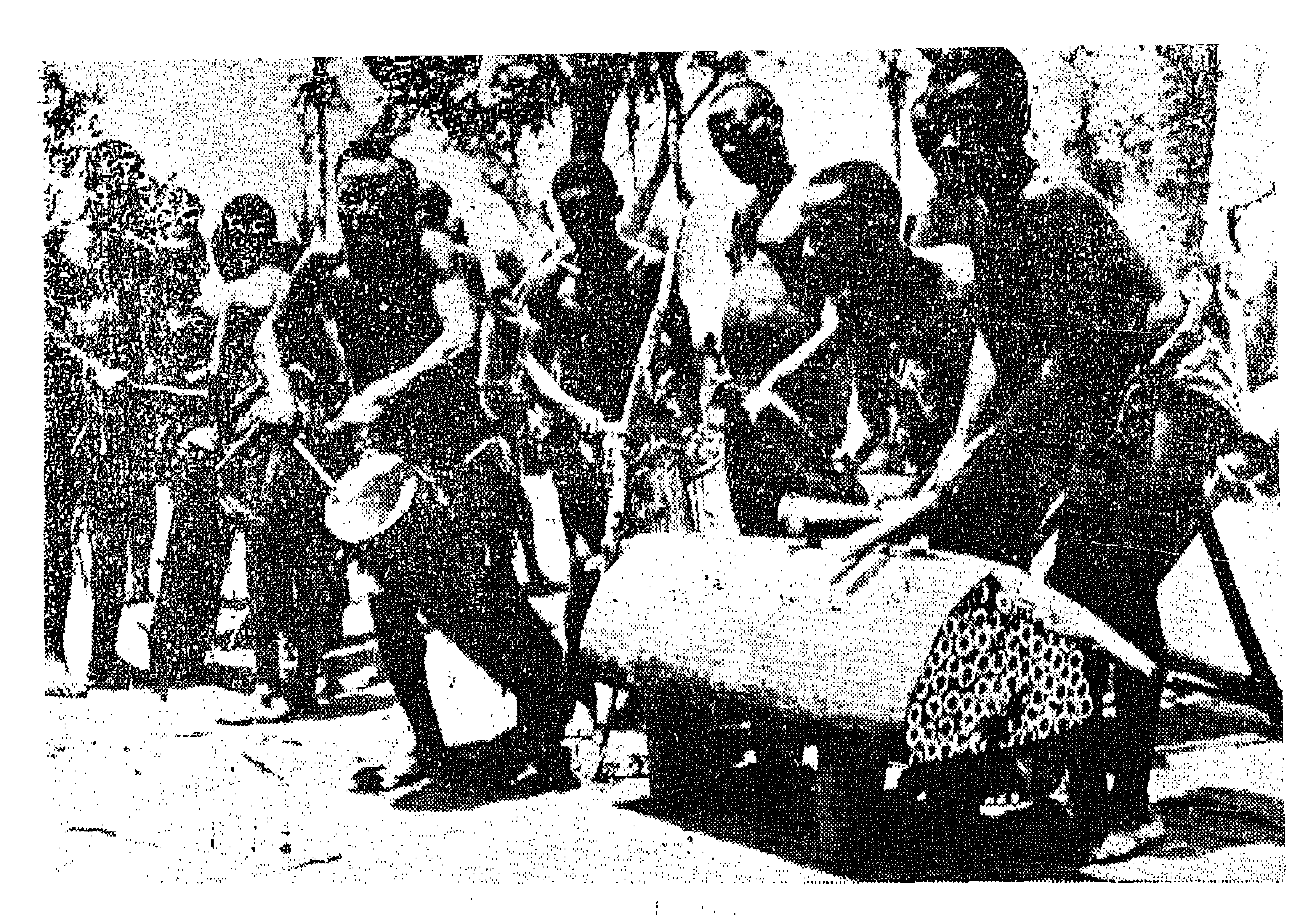
الملابس التقليدية لأحد حملة البنادق من شعب الأشانتى

ما من ملك جالس فوق هذا الكرسى ، ولكنه كان يوضع فى كل احتفال يقام على جلد فيل وفى مركز رفيع الشأن . وكان يعرض مرة فى كل عام فى موكب رائع ، ويحمل عالياً تحت المظلة المخصصة له . وإذ اتخذ الأشانتى من الكرسى رمزاً لهم أصبحوا فى الحروب أعظم نجاحاً منهم فى أى وقت

قبل ذلك . وكانوا يقايضون الأسرى الكثيرين الذين يقعون فى أيديهم ، وكانوا مبعث رعب للقبائل المحيطة بهم .

واحتفظ الزنوج ، قروناً كثيرة باعتقاد ثابت ومطلق فى قوى السحر. فعالم الروح لا يزال قائما حولهم ، وبخاصة أرواح أسلافهم . وكانت جميع طقوس القبيلة الدينية وقوانينها وعاداتها تستهدف إرضاء الأرواح التى تحيط بها . إن المسيحية والإسلام آخذان فى الانتشار فى صفوف عدد متزايد من الجماعات ، ولكن الكثيرين من الأفريقيين يتعلقون بأهداف عقيدتهم ومخاوفهم القديمة . ولرجال الطب فى القبيلة والذين يطلق عليهم اسم نجانجا نفوذ قوى جداً ، فيلجأ الزعيم إلى استشارتهم قبل أن يتخذ قراراً يتصل بشعبه ، كما يستشارون فى حالات المرض ، ويطلب إليهم أن يبعدوا الأرواح الشريرة . وتعامل آراء النجانجا باحترام عظيم ، ولا يجرؤ على إغفالها إلا قلة من الناس . إنهم خبراء فى السحر والشعوذة ، ودرسوا طريقة استعمال الأعشاب فى علاج سموم وحميات معينة .

ويعتقد الكثيرون من الأفريقيين أن النكبات تأتى عن طريق السحر الأسود الذى يفرضه عدو ما . ولهم إيمان بقوة رجال الطب على حمايتهم وعلى تحقيق النجاح والحظ الحسن مقابل ذلك عن طريق استخدام السحر الأبيض . وللنجانجا أساليب كثيرة للتأثير فى نفوس قبائلهم ، فهم يقيمون الحفلات الدينية المقدسة ، ويصنعون الأحجبة والأدوية . إن



موسيقى الأنزام

أكل لحوم البشر وتقديم القرابين البشرية آخذان فى الزوال ، ولكن درج رجال الطب على اختيار مذنب بأن يعتبروه أشد إجراماً ، أو يجلب سوء الحظ للقبيلة ، وكانوا يقدمون دائماً هذه الضحية التعسة قرباناً .

كان هذا نظاماً قاسياً يقوم على الخرافة ، ولكن من المحتمل أنه لم يكن أكثر وحشية من ضروب التعذيب التى كانت تستخدمها محاكم التفتيش الإسبانية باسم إله المسيحيين ، أو من إحراق من كان يقال لهن الساحرات بمن فيهن برايعة جان دارك ...

وثمة منازعات كثيرة تقسم الأجناس السوداء والبيضاء في أفريقيا ، ولكن لعل أعظمها حدة ما يتصل بملكية الأرض . وبلغت المنافسة على الأرض ذروتها في المرتفعات الخصيبة ذات المناخ المعتدل في كينيا ، أما في غرب أفريقيا حيث عدد المقيمين البيض قليل فلسنا نجد شعوراً سيئاً إزاء هذا الموضوع ، إذ ليس هناك ما يغرى الفلاحين الأوربيين بالاستيطان هناك ، فهم يكرهون حرارة المناطق الاستوائية . ويملك الأفريقيون الأرض ، وحاول البيض تعليمهم كيف يجنون منها أكبر الفائدة .

ومنذ تركز الانتباه على ما يعانيه الزنوج من فاقة وألم ، وكان الفضل في ذلك التركيز يرجع إلى المصلحين الذين بذلوا الجهد من أجل إلغاء تجارة الرق ، أسهمت الولايات المتحدة وأوربا بالرجال والمال في قضية تحسين الأحوال القائمة في غرب افريقيا . وبفضل هذا التأثير أقيمت المحاكم والمستشفيات والمدارس والحكومة الزنجية على غرار النظم المماثلة في العالم الغربي .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يعتبر الأقزام أشد الأجناس تأخراً في أفريقيا ، ولم يكن للمسيحية والتعليم سوى تأثير يسير فيهم . وهم يعيشون في الغابات الاستوائية على مقربة من خط الاستواء ، وكان أول من وصفهم الرائد دى شايو الذى كشف الغور يللا . ويرتبط الأقزام بالجنس الزنجي ،

ولكنهم صغار الأجسام وعلى جانب كبير من قبح المنظر ، فسيقانهم دقيقة وبطونهم كبيرة . ولم يحققوا أى تقدم فى التعليم أو المعيشة ؛ إذ يعيشون كما تملى عليهم غرائزهم ، ويتصفون بالحكمة فى معرفة الأساليب التى تناسب الغابات فيأكلون ما يستطيعون قتله . وهم لا يحاولون زراعة الأرض أو بناء بيوت دائمة ، ويتكلمون لغة أية قبيلة يتصادف أن تكون أقرب إليهم .

ويكاد البوشمن من أهل صحراء كلهارى يكونون فى بدائية الأقزام . وأظهر اكتشاف الرسوم القديمة على الصخر أنهم درجوا على العيش فى مناطق الحشائش الواقعة شمالى كلهارى وشرقيها . ولكن البوشمن ليسوا مقاتلين بطبيعتهم ، وقد طردهم الهوتنتوت أولا ، ثم قبائل البانتو المتوحشة بعد ذلك . وهم يعيشون الآن عيش الكفاف مما لا يرضى به سواهم . وهم شعب يمتاز بالخجل والبساطة ، وضآلة الحجم والنحافة ، ولهم بشرة فى لون البن . وتستطيع أن تميزهم بطريقتهم الغريبة فى الحديث التى تشبه القرقعة ، وربما كانوا هم الراقصين الصغار الذين ورد ذكرهم فى أوراق البردى المصرية القديمة والذين احتفظ بهم الفراعنة كوسيلة للتسلية بالأسلوب نفسه الذى استخدم به ملوك أوربا فيما بعد الأقزام كمضحكين فى البلاط .

ولا ينقسم البوشمن إلى قبائل ، ولكنهم يعيشون فى مجموعات عائلية صغيرة ، إذ التربة من الفقر بحيث لا تستطيع أن توفر سبل العيش لجماعة

كبيرة فى أى مكان واحد . وهم دائماً فى حالة جوع إذ لا يوجد أبداً الغذاء الكافى فى أى فصل من فصول السنة فى صحراى كلهارى . فالمنطقة من أشد جهات العالم حرارة فى الصيف ، كما يغطى الصقيع الأرض خلال الشتاء . وينعدم فيها المطر لمدة تسعة أشهر ثم يسقط بوفرة فتفيض المياه وتطارد كل فرد من مكانه . ويأكل البوشمن ليمون الصحراء والتوت والجذور ويتخلل ذلك وليمة من وقت لآخر حين يقتنص أحد صياديهم غزالا أو ظبياً .

ويتعين عليهم التنقل من مكان إلى آخر سعيا وراء الغذاء . ولا تقتنى الأسر عملياً أية ممتلكات ، وتنام فى حماية الحشائش أو الأغصان أو فى بقعة صغيرة فقط توضح مكانها عصى يغرسونها فى الأرض . ويلبس الرجال القماش المشمع ، وترتدى النساء قوطا مصنوعة من الجلد ، وإذا كن من المحظوظات جداً وضعن على الرأس غطاء . والحلى الوحيدة التى تتزين بها النساء تتمثل فى عقود الخرز الملونة والمصنوعة من بيض النعام ، ووسيلتهم الوحيدة للتسلية هى الغناء والرقص .

وينسج الأطباء الأحجبة لتفادى شرور الصحراء من السباع والحيات والعقارب ، وفوق كل شىء من الجفاف . وليس لهم من الأعداء سوى القليلين ، بل إنهم يطلقون على أنفسهم عبارة الشعب الذى لا يؤذى أحداً .

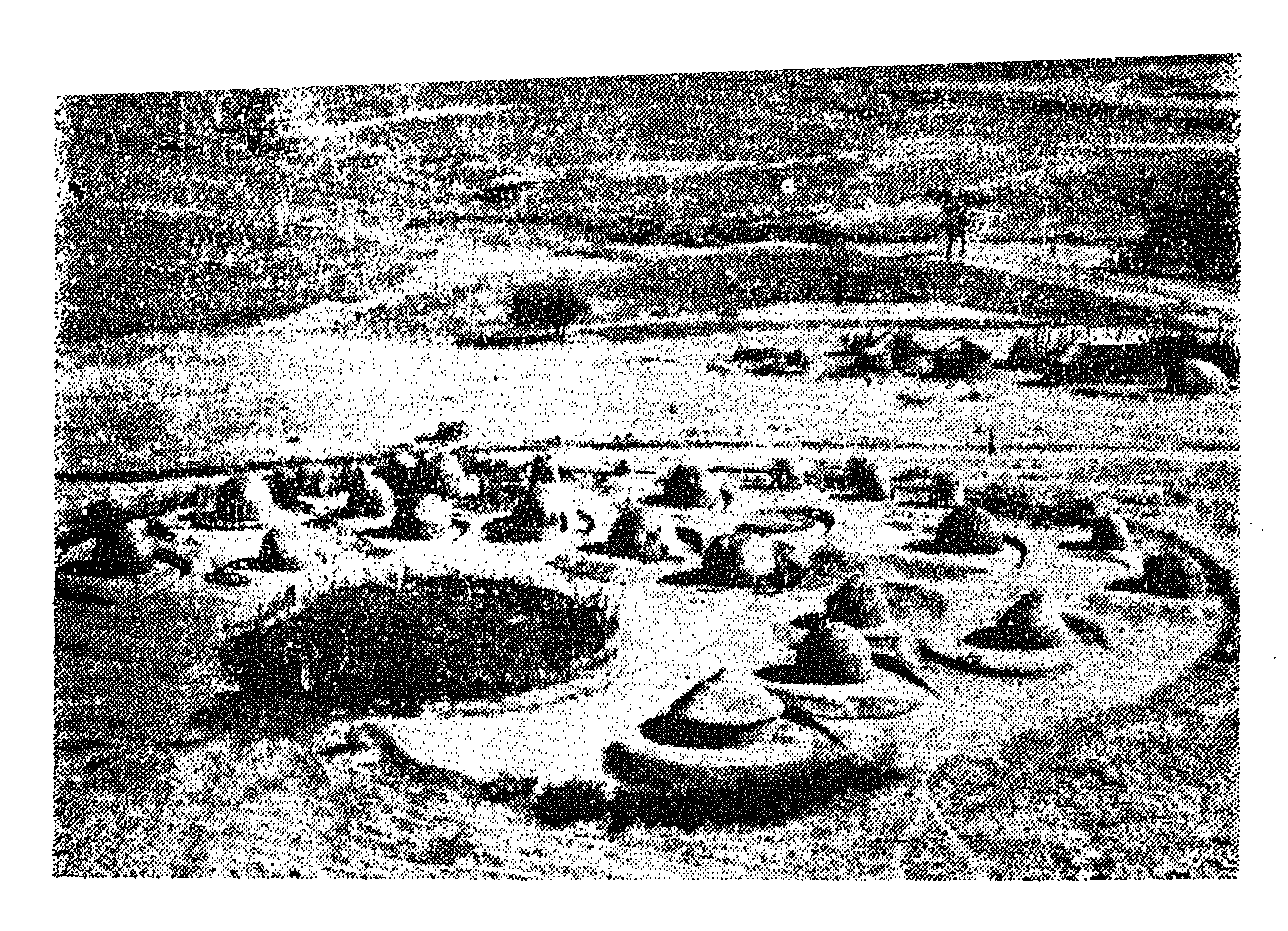
أما الهوتنتوت الذين يجاورونهم فيحتمل أن يكونوا همزة وصل بين البانتو والبوشمن . ولقد أبدوا استعداداً أوفر من البوشمن فى الأخذ بالأساليب الأوربية ، وقبلوا العمل فى المزارع والمناجم والمدن ، وأصبحوا يشتغلون بتربية الماشية والتجارة لحسابهم . فى أوائل عهد مستعمرة الرأس كنا نراهم غالبا يملأون مخازنهم عن طريق الهجمات التى يشنونها على قطعان الأوربيين .

والبانتو أوفر عدداً بكثير من الزنوج والأقزام والبوشمن أو الهوتنتوت . والبانتو كلمة أفريقية معناها فقط الشعب . ويستخدمها الأوربيون فى وصف مجموعة ضخمة من القبائل مثل الزولو ومن يتفرع منهم ، الماتابيلى ، الأنجونى ، البشوانا ، الباسوتو ، الكيكويو وغيرهم كثير من القبائل الأخرى . ويتحدث البانتو فيما بينهم بحوالى مائتين وستين لغة مختلفة . ويبلغ عدد المسيحيين منهم الآن حوالى الثلث ، واعتنق ثلث آخر الإسلام بفضل رجال الدين المسلمين ، أما الباقون فلا يزالون محتفظين بوثنيتهم .

ولا يزال البانتو فى أجزاء كثيرة من أفريقيا الشرقية رعاة وفلاحين . والماشية هى الأساس الذى تقوم عليه الحياة القبلية ، ولا تهيئ لهم سبيل العيش فحسب ، بل وتكسبهم مركزاً فى القبيلة وغالباً ما تكون وسيلة الحصول على الزوجة . وطبقا لقانون البانتو يسمح للرجل بأن يتخذ لنفسه أى عدد من الزوجات يشاء .

وقبل مجيء الأوربيين كانت عادة الحصول على الزوجة بطريق الماشية واسعة الانتشار بين رجال القبائل ، وكان يطلق عليها لوبولا ، أى «مهر العروس» . واستنكر رجال الإرساليات المسيحية الأوائل عادة تعدد الزوجات ونظام الحصول على الزوجات مقابل الماشية . ما من شك أنهما يتعارضان مع المبادىء المسيحية ولكن نظام مهر العروس نجح تماماً فى مجتمع البانتو ، فكان الرجل يعطى الماشية إلى أسرة زوجته ، لا على سبيل التعويض عن الخدمات التى كانت تقوم بها فحسب ، بل كبرهان على حسن إيمانه بالزواج . وكان والد الزوجة وإخوتها يريدون أيضاً أن يدوم الزواج لأنه إذا أخفق تعين عليهم أن يعيدوا الماشية ، وكانت النتيجة قلة حالات الطلاق فى القبائل التى مارست عادة اللوبولا . وإذ تعلم رجال الإرساليات لغات البانتو وبدأوا يفهمون الشعب على نحو أفضل ، اعترف بعضهم أن تلك العادة لم تكن ضارة تماماً .

وبانتشار التعليم الحديث والنقل الآلى تزحف على البلاد عادات جديدة . إلا أنه فى الأيام السابقة كانت الحياة والقانون القبليان يسيران وفق طقوس دقيقة . لم يكن هناك مجال للعمل الفردى ، وإنما كان يجرى تخطيط كل شيء لخير القبيلة . وفى كثير من القبائل كانوا يعلمون الأطفال إذا شبوا أن يطيعوا قوانين السلف ، ويدربون الأولاد على أن يكونوا محاربين ، والبنات أن يكن زوجات . وحين كان الأولاد يبلغون مرحلة



قرية من قرى الزولو

النضج كانوا ينزعون من أسراتهم و يوضعون فى قرى مستقلة . ويجرى ضرب الأولاد بالسوط وكيهم بالنار وتعليمهم أن يتحملوا الألم الشديد دون أن يجفلوا . وكان الذين يجتازون هذه الاختبارات بنجاح يربطون بروابط خاصة من الولاء بقية حياتهم . وكان يجرى تعليم البنات فى كل وجه من وجوه الزواج . هذه الطقوس المتبعة عند ما يشب الأطفال بدت فى نظر المسيحيين قاسية وغير ضرورية ، ولكنها كانت فى نظر البانتو حيوية تماما لتعويد الصغار الحياة القبلية

ويحب الأفريقيون الموسيقى والرقص حباً جماً ، ويثير أعماقهم نغم دق الطبول . وظلت الطبول قروناً تستخدم فى دعوة القبائل إلى الحرب

وتبعث فيها البهجة التى تبلغ حد الجنون أيام الأعياد وحفلات الطرب . ويغنى الرجال والنساء فى أثناء قيامهم بأعمالهم ، وحين يرعون أطفالهم أو ماشيتهم ، أو يحملون الماء أو يطحنون الدقيق . وهناك أغان تقليدية للمناسبات الخاصة كما هى الحال عندنا فى حفلات الزواج أو عيد الميلاد ، أما فى الأيام العادية فإن الناس يغنون لكل شىء : الحب والمحصولات ، والصيد والحرب ، والمجاعة والأعياد . وأحيانا يصوغون الألفاظ وهم يغنون حتى تتفق مع حادث له طابعه الخاص .

وربما كان أشد رجال القبائل فردية فى شرق أفريقيا « الماساى » الذين يرعون ماشيتهم القوية فى السهول المغطاة بالحشائش فى شمال كينيا. والماساى خليط من البانتو والحاميين ، ويتصفون بالكبرياء والنزعة الاستقلالية ، كما أن بنيتهم طابعها الاستقامة والنحافة . وكان نساء الماساى فى أيام تجارة الرق يعتبرن جميلات جداً ، وكان يدفع فيهن أعلى الأثمان . وفضلا عما يمتزن به من الجمال فإنهن متصفات بالقوة والإخلاص وبذلك يصبحن زوجات وخادمات ممتازات .

وحياة الماساى مرتبطة بقطعان الماشية . فرجال القبائل لا يتنازلون لزراعة الأرض . ولم يقتبسوا الأفكار الأوربية ، ولم يغيروا نظرتهم من اليوم الذى لم يكن فيه بيض على مقربة من ديارهم . وهم يعتقدون اعتقاداً ضمنيا أن الماشية حق لهم بحكم المولد ، فهى هبة منحها إلههم إليهم وحدهم .

وأخفق الأوربيون إخفاقا تاما فى تغيير هذا الاعتقاد . وبالرغم من أن السلطات حرمت الغارات لسلب الماشية فلا يزال محاربو الماساى يهددون القبائل المجاورة لأن مطمعهم الوحيد أن يزيدوا من حجم القطعان التى يملكونها . ويبلغ متوسط ما يملك كل رجل وامرأة وطفل الآن عشر بقرات . وهم يعيشون على ألبانها ويقويهم الدم الذى يحصلون عليه من الأبقار ذاتها . وهم يجدون أن هذا الغذاء يزودهم بالقوة اللازمة للقيام بغارات جديدة . ويلى الماساى الكيكويو وهم أكبر قبيلة فى كينيا .

ولقد هجر الكثيرون من البانتو قراهم ووجدوا عملا فى مناطق التعدين الكبرى فى جوهانسبرج وكمبرلى وحزام النحاس Copper Belt فى روديسيا الشمالية ، وفى مدن الكاب وسالسبورى ونيروبى وممباسا ونبذ الكثيرون عاداتهم وتقاليدهم القبلية وغيروا أسلوبهم فى اللبس والتفكير . وهم يريدون أن يشتروا الأشياء التى تتكون منها الحياة فى مدينة كبيرة ــ مثل الدراجات والسيارات وأجهزة الراديو وأقلام الحبر والملابس الغربية . وتحولوا من الأشربة السحرية التى يجهزها الأطباء السحرة إلى العلاج بطريق الأدوية الحديثة . وهؤلاء هم الأفريقيون الذين يطالبون بحق التصويت والمنازل والتعليم والفرصة التى تجعلهم يقفون على قدم المساواة مع الأوربيين .

إلا أنهم بوجه عام ليسوا ثوريين يعتزمون القضاء على عالم الرجل الأبيض الذى قام حولهم . ولكن ، إذ يزداد التصميم من جانبهم ، فإنهم يطالبون بالسلطة ، وبأن يضطلعوا بدور السيادة .

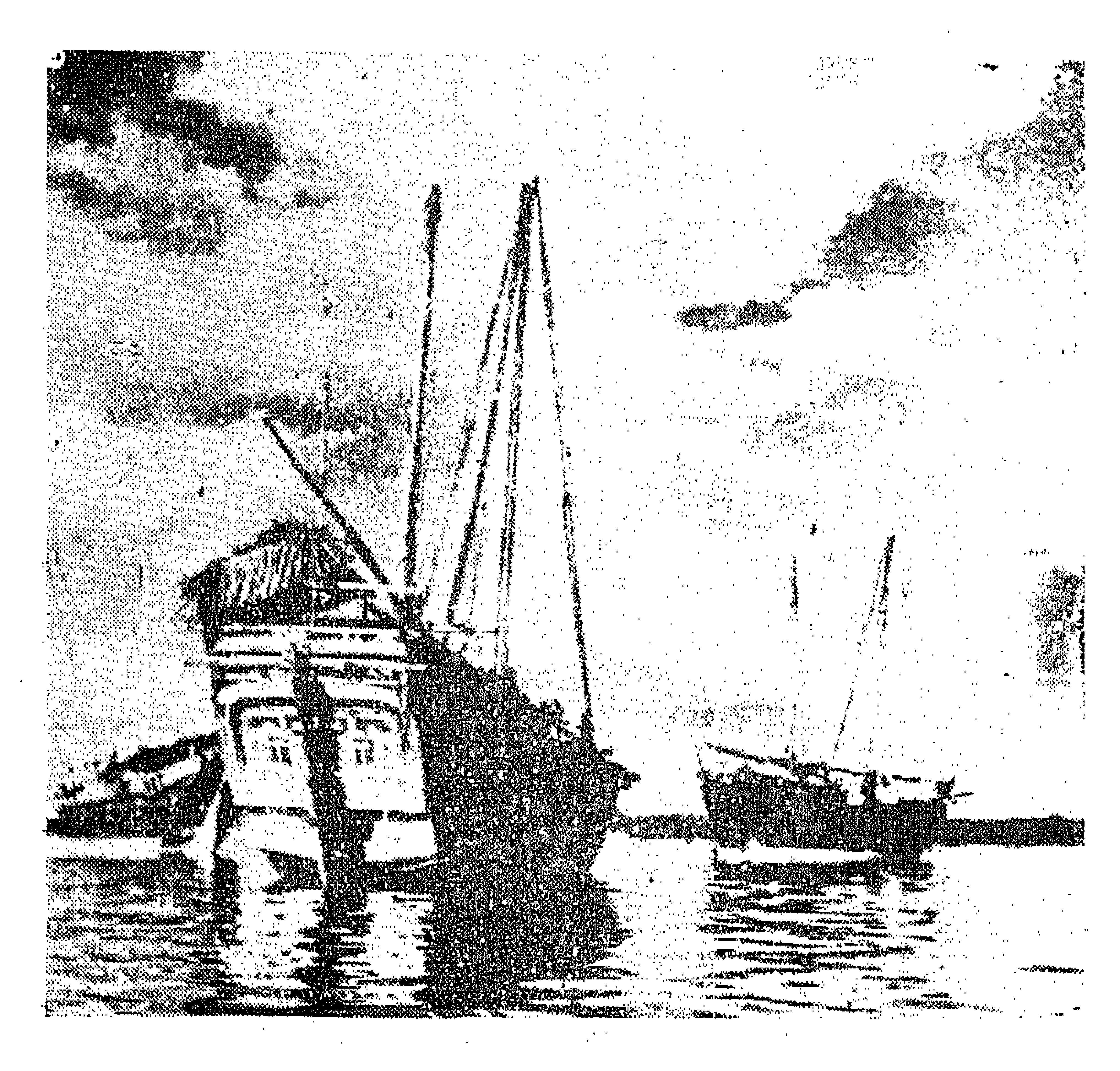
الفصل الثالث

تجـــارة الرقيق

كان الأفريقيون ، مدى قرون لا حصر لها ، يبعدون من ديارهم ويباعون رقيقاً للسادة الأجانب . وكان تجار الرقيق فى العصور الوسطى يأتون إلى موانى شرق أفريقيا فى مراكبهم الوطنية ، ثم يعودون بها محملة بالرجال والنساء حيث يبيعون تلك الشحنات بربح طيب إلى السلاطين والشاهات والمشايخ فى بلاد الشرق الأوسط

وكان بعض هؤلاء الأفريقيين يحيون حياة طيبة ؛ إذ كانوا يستخدمون فى حراسة الحريم حيث تعيش الزوجات الكثيرات لهؤلاء الحكام الأغنياء . ولم يوات الآخرين حظ مماثل ، إذ كان يبعث بهم للقتال فى صفوف الجيوش الصحراوية التابعة لسادتهم الشرقيين . ولكن أتعسهم حظا كانوا أولئك الذين يقيدون بالسلاسل فى فرق العمل ويرغمون على العمل تحت سياط قواد الرقيق .

وكان البرتغاليون — وهم أول الرواد الأوربيين الذين زاروا أفريقيا — أول من عادوا إلى ديارهم وقد اصطحبوا معهم العبيد ، إذ كان من المألوف



الزوارق العربية فى زنجبار

عند النبلاء فى ذلك العصر الاحتفاظ بالخدم السود ، وكانوا ينصرونهم ويأخذونهم إلى بيوتهم ويحسنون معاملتهم . ومن المرجح أن الحياة كانت أيسر ، وعلى التحقيق كانت أوفر أمناً من التنازع على البقاء فى الغابة .

وفى أوائل القرن السادس عشر أنشأ الإسبان مستعمرات لهم فى جزر الهند الغربية والمكسيك وفلوريدا وأجزاء أمريكا الجنوبية ، وكانوا مصممين على انتزاع الثروة من العالم الجديد ، ولكن خاب أملهم لقلة عدد السكان الوطنيين وعدم رغبتهم فى العمل . كان هؤلاء السادة الإسبان تنقصهم الأيدى العاملة بصورة تبعث على اليأس ، إذ لم يكن فى

مستطاع البيض أن يشتغلوا فى مناجم الذهب بالمكسيك ، وماتوا من الحرارة المرهقة فى مزارع السكر بكوبا . وبعد مفاوضات طويلة وقع ملك إسبانيا عقداً مع التجار الهولنديين والبرتغاليين كى يزودوه بالعبيد من أفريقيا الغربية . وكان هؤلاء الزنوج من أبناء أفريقيا الغربية يشبعون حاجة ملحة تشعر بها الشعوب الأوربيـــــة الحاكمة التى تحاول بناء إمبراطوريات لها فى الأمر يكتين .

وفى سـنة ١٥٦٢ حصل القبطان الإنجليزى چون هوكنز على عقد يورد بمقتضاه العبيد من غرب أفريقيا إلى جزر الهند الغربية ، وقام برحلات ثلاث حمل فيها سفينته شحنات من الرجال والنساء الذين اشتراهم أو اختطفهم ،ومنذ ذلك الحين قامت بريطانيا بدور رئيسى فى تجارة الرقيق .

ولما أنشأ المستوطنون الإنجليز المستعمرات فى چمايكا ثم ڤرجينيا بدأ تجارهم يشترون العبيد ، لالبيعهم إلى الشعوب الأخرى فحسب ، بل ولقومهم أيضا . كانت تجارة مثلثة الأطراف : فيؤتى بالعبيد من أفريقيا إلى جزر الهند الغربية ، ويرسل قصب السكر من جزر الهنـدالغربية إلى إنجلترا ، ويصنع الروم من قصب السكر ، ثم يبعث به إلى أفريقيا ليشترى به مزيد من العبيد . وكانت الأرباح طائلة وقدر أنه خلال فترة لاتتجاوز القرن إلا قليلا ـ أى من ١٦٨٠ إلى ١٧٨٦ ـ نقلت السفن أكثر من مليونين من الزنوج عبر المحيط الأطلسى . ونظراً لشدائدالرحلة كان يموت عبدواحد على الأقل من كل ثمانية حتى قبل وصولهم إلى العالم الجديد .

وكان العبيد فى أول الأمر يأتون من غمبيا وهى الطرف الغربى الأقصى من أفريقيا ، ثم من ساحل الذهب والعبيد المطلين على خليج غينيا . وهنا كان يتم الحصول عليهم إلى حد كبير بسبب الحروب المستمرة التى يشنها الأشانتى الذين كانوا يأسرون الألوف من الأسرى خلال غاراتهم المظفرة ويسيرون بهم نحو الساحل حيث يبيعونهم لمن يدفع أعلى ثمن . وحققت قبيلة داهومى المقيمة فى المنطقة المجاورة نجاحاً أيضاً فى الحرب وتجارة الرقيق.

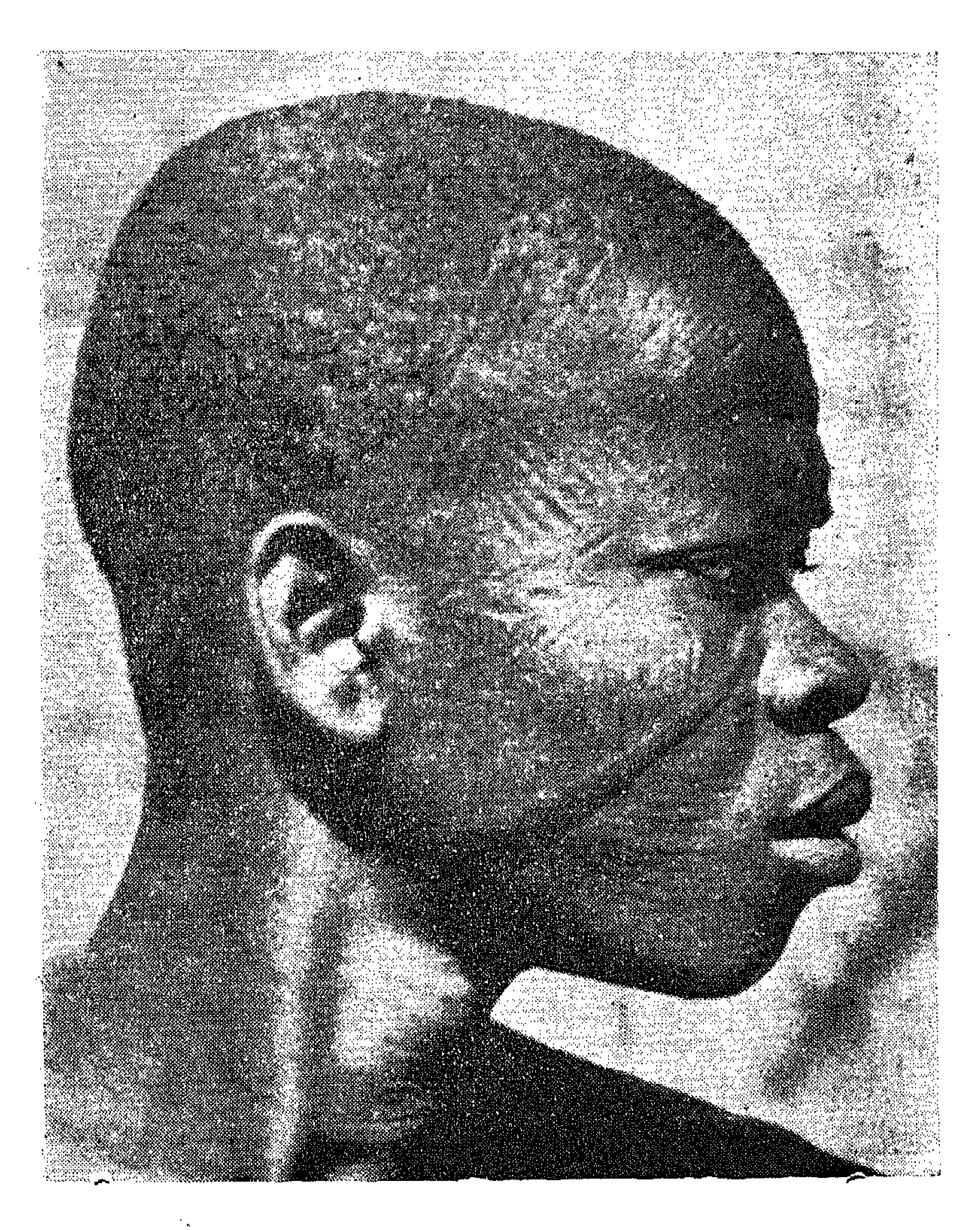
ومن الحقائق المجردة أن شعوباً كثيرة فى ذلك العصر ممن تعتنق المسيحية كانت تتنافس فيما بينها فى تجارة تسبب آلاماً لا توصف لبنى الإنسان الآخرين . بل وكانت الرحلات أسوأ مما كان يعانيه العبيد على أيدى تجار الرقيق ، كما كانت أطول وتجرى فى جو عاصف بصورة أعنف . وظلت تلك التجارة قائمة مدى قرنين ونصف قرن دون أن تؤرق الشفقة الضمائر إلا فى نفوس نفر يسير أو يطاردهم الأسف . وربما حاول البعض أن يلتمسوا لأنفسهم العذر قائلين إنه لو بقى هؤلاء العبيد فى أفريقيا لقُدِّم الكثيرون منهم قرابين للآلهة الوثنية ، أو امتلأت بلحومهم ولائم أكلة البشر ، أو قتلوا فى الحرب .

وكان تجار الرقيق يعطون الزعماء الأفريقيين البنادق والبارود والسلك المصنوع من النحاس والخرز والقماش والروم ، مقابل أسراهم . ولم يكن العبيد أحراراً فى اختيار الجهة التى يرسلون إليها . فالذين انتهى بهم

الأمر فى البرازيل حيث يشتغلون للسادة البرتغاليين كانوا أحسن حالا من إخوانهم بالمستعمرات الأمريكية . وطبقاً للقانون البرازيلى كان فى استطاعة العبد أن يسترد حريته إذا دفع ثمن شرائه ، كما كان فى وسعه أن يطالب بالحرية إذا أنجب عشرة أطفال . وفى أيام الآحاد والقديسين الواردة فى تقويم الكنيسة كان يسمح للعبيد بالعمل لحسابهم إذا رغبوا فى ذلك. وادخر الكثيرون منهم المال الذى كسبوه بهذه الطريقة وأصبحوا مواطنين أحراراً ، بل إن بعضهم اشتغل بتجارة الرقيق .. وأقام القساوسة الجزويت الكثير من الكنائس والبعثات التبشيرية فى البرازيل . كان الجزويت يتصفون بالشدة والعنف فى معاملة قومهم ، ولكنهم كانوا يبذلون جهوداً لا تنقطع من أجل التخفيف عن العبيد ومساعدتهم .

ودخل الهولنديون تجارة الرقيق بحماسة ، فأنشأوا حصناً فى « المينا » بغرب أفريقيا ، و بعثوا بالعبيد إلى جيانا الهولندية فى أمريكا الجنوبية ، ثم بعد ذلك إلى مستعمرة الرأس فى جنوب أفريقيا . وكان العبيد موضع المعاملة السيئة فى جيانا بحيث كان أغلبهم يلوذ بأذيال الفرار منها ، فيختبئون فى الغابات الكثيفة و يمتزجون بالوطنيين ، و يكونون عصابات مسلحة تزعج ملاك المزارع الهولنديين .

وفى عام ١٦١٩ جىء بأول عبيد إلى المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية ؛ ذلك أن سفينة محملة بهم فى طريقها إلى المستعمرة



رجل من ساحل الذهب ، وعلى وجهه العلامات الدالة على القبيلة

الهولندية فى نيوأمستردام ، توقفت فى ميناء جيمستاون بولاية فرجينيا للتزود بالغذاء والماء ، وهنا انتهز أصحاب مزارع الطباق الفرصة واشتروا العبيد . كانت مزايا استخدام العمال السود واضحة . فقد كان السائد من قبل أن يرسل المجرمون من السجون الإنجليزية للعمل بالمزارع الجنوبية ، ولكنهم لم يكونوا معتادين العمل فى الحرارة فكانوا ينهارون ويموتون . وبعد أن تم استعمار كارولينا الجنوبية وجورجيا أدخلت زراعة الرز ، ثم زرع القطن فى عام ١٧٧٠ لأول مرة . وكانت الأحوال فى هذه المزارع الجديدة غير صحية مطلقاً ؛ إذ كان العبيد يشتغلون فى أرض شديدة الحرارة وملأى بالمستنقعات ، وكانت مساكنهم مجرد حظائر ، ولم يكن ثمة وجود للعناية الطبية . كان الكثيرون من أصحاب المزارع لا يعبأون بالإبقاء على حياة العبيد ؛ إذ كان شراء العبيد الجدد أرخص من العناية بمن يقتنونهم إذا ما طعنوا فى السن .

وفى نهاية القرن الثامن عشر جمعت ثروات سريعة فى أجزاء كثيرة من العالم . وبدأ الرواد القادمون من الولايات الشرقية فى أمريكا يسبرون غور ثروة الغرب ، وكان أصحاب المزارع بالولايات المتحدة الجنوبية يعيشون كالأمراء ، فى حين أنه على الجانب الآخر من الأطلسى غيرت الثورة الصناعية وجه بريطانيا . لقد أسهمت تجارة الرقيق فى تحقيق الرخاء البريطانى بصورة بالغة ، وكان ميناء ليفربول وبرستول يثريان

على حساب تجارة أفريقيا الغربية . كانت مصانع لانكشير تغزل القطن الوارد من المزارع الأمريكية ، وكان الطباق والسكر يستوردان بمقادير كبيرة من جزر الهند الغربية البريطانية . وكل هذا الإنتاج كان ثمرة العمل الذى يؤديه العبيد . لقد شحن التجار الإنجليز عبيداً وحققوا أرباحاً أكثر من أى شعب آخر .

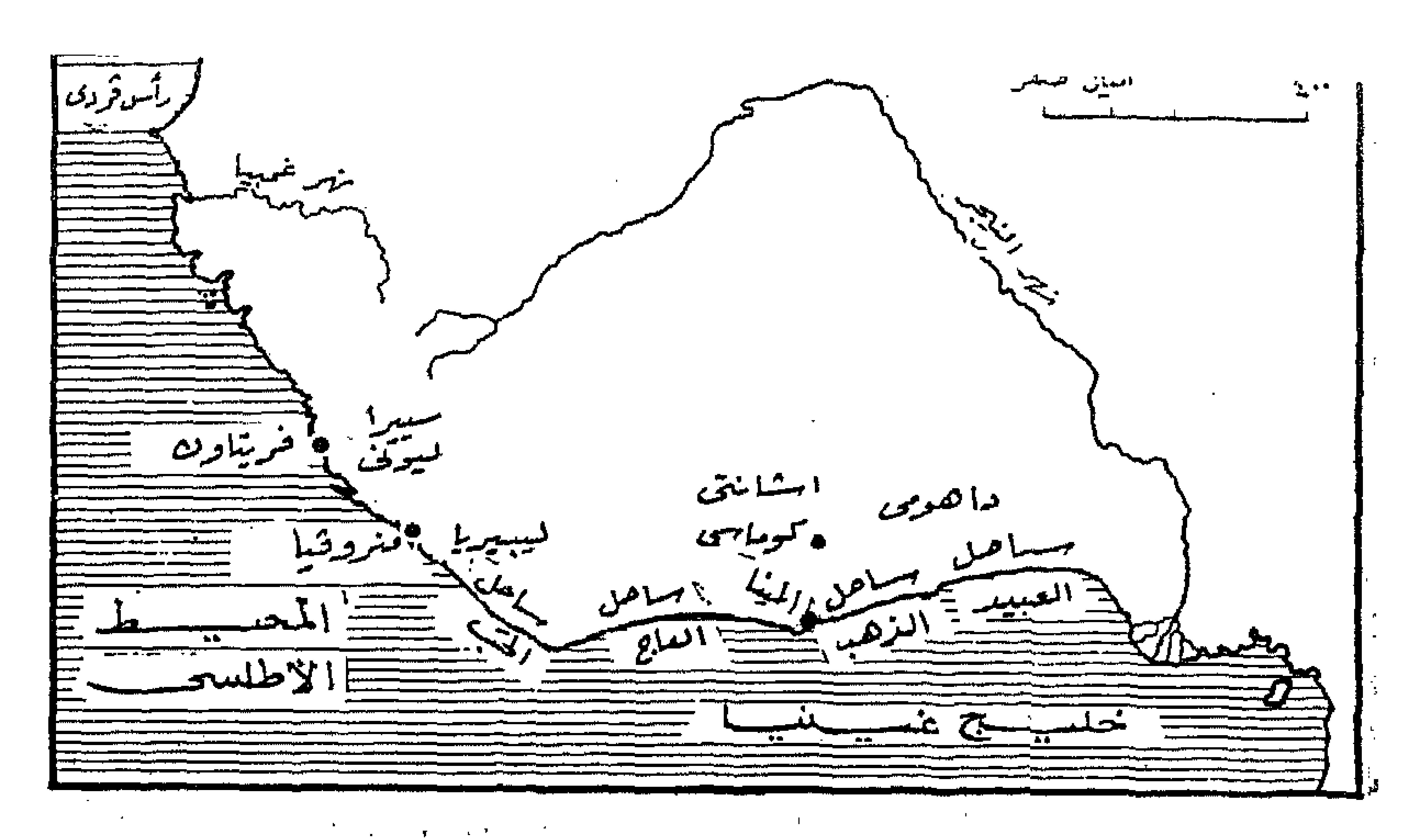
وأخيراً ، وبالرغم من ذلك ، ثارت ضمائر الناس بدافع الإشفاق والغضب ، وكرست جماعة من المصلحين الإنجليز جهودها لإلغاء تجارة الرق . وكان جرانفيل شارب ، ووليم ويلبرفورس ، وتوماس كلاركسن ، أول من نشروا الحقيقة عن الرق . وحتى فى ذلك الوقت تباطأ الناس فى الاعتراف بما انطوى عليه من ظلم وقسوة . وواصل الثلاثة حملتهم مدى عشرين عاماً فى وجه المقاومة العنيدة من جانب الذين كانوا يثرون من أرباح هذه التجارة . وأخيراً أصدر البرلمان فى عام ١٨٠٧ قانوناً أعلن فيه أن تجارة الرق غير قانونية .

كان هذا عصر حروب نابليون ، وكانت انجلترا قد أرست دعائم سيادتها على البحار بعد النصر الحاسم الذى أحرزته على الفرنسيين فى موقعة الطرف الأغر . وأرسلت الأميرالية البريطانية عمارة بحرية مسلحة تجوب المحيط الأطلنطى على مسافة من ساحل أفريقيا الغربية وتحول دون دخول وخروج السفن المحملة بالعبيد إلى عرض البحر .

وبالرغم من ذلك ظل المهربون من ذوى العزم يواصلون شحن سفنهم وبخاصة من الممتلكات البرتغالية فى أفريقيا ، وزادت حدة الآلام التى يعانيها العبيد . ولما كانت التجارة الآن بمثل هذه الخطورة كان القباطنة يحملون شحنات أكبر حتى يقللوا من عدد الرحلات . فكان العبيد يشحنون عراة و يكدسون فى العنابر بصورة لا يستطيعون معها الجلوس والرقاد ومات الكثيرون من الاختناق . وكانوا يتركون إلى جانب الأحياء إلى أن ينقلوا من السفينة فى ختام الرحلة . و إذ هدد القباطنة بالاستيلاء على سفنهم فإنهم كانوا يأمرون بإلقاء العبيد فى البحر .

كانت ولايات نيو إنجلند تستنكر تجارة الرق منذ زمن طويل ، على حين دافع عنها الجنوب ، وأخذ التوتر يشتد . وفى عام ١٨٠٨ حرم الكونجرس استيراد العبيد إلى البلاد بعد ذلك ، وحذت حذوه بالتدريج الشعوب التى كانت تزاول تلك التجارة .

ولما مات جورج وشنطن منحت الحرية لعبيده وفقا لشروط وصيته ، واقتفى أثره غيره ممن أشربت نفوسهم الروح الإنسانية ، ولكن العبيد الذين تحرروا لم يكن لهم حق التصويت ، وغالبا ما أصبح عدم وجود عمل يزاولونه مشكلة مزعجة ، وبذلك كانوا مبعث تهديد للمجتمع وعبئا عليه . وتكونت جمعية التوطين الأمريكية ، وقررت - بعد بحث الأمر مع الجمعيات التبشيرية - أن أحكم طريق هو إرسال عدد من هؤلاء الزنوج



أفريقيا الغربيه فى نهاية عصر تجارة الرقيق

على الأقل إلى أفريقيا حيث قد تتاح لهم فرصة الإقامة فيها أحراراً . وأيد الكونجرس المشروع ، ونزلت الجماعات الأولية التى نقلت من البلاد فى إقليم سييراليون التى سبق إنشاؤها قبل ذلك بثلاثين عاما ليقيم فيها العبيد الذين حررتهم بريطانيا . غير أن الخطة لم تنجح تماما ، فقد كانت لدى البريطانيين متاعبهم وزاد الزنوج الأمريكيون من تعقيد الموقف .

وفى عام ١٨٢١ أرسل الرئيس جيمس مونرو ممثلين من قبله إلى غرب أفريقيا لشراء أرض من الزعماء ، فحصلوا على شقة على طول ساحل الحبوب ، طولها مائة وثلاثون ميلا وعرضها أربعون ميلا . وسرعان ما وصلت الفرقة الأولى من الزنوج تصحبها مجموعة صغيرة من البيض لمساعدتهم على الاستيطان . كان الجو رديئا ، ولم يتعود العبيد أن يرعوا

شئونهم بأنفسهم ، ومات جميع البيض من الحمى . وكاد المشروع ينهار لولا أن وصل من أمريكا فى عام ١٨٣٢ أحد رجال الدين البيض وهو جيهودى أشمون ، وأخذ أمر المستعمرة فى يديه . كان أشمون رجلا يؤمن بمثل عليا ، وعلى درجة بالغة من المقدرة وقوة التصميم ، فعامل المستوطنين بحكمة وكفاية ، ودافع عن الحدود الضعيفة ضد هجمات الوطنيين بشجاعة فائقة الحد . وأطلق على المنطقة اسم ليبيريا ، وعلى عاصمتها اسم مونروفيا نسبة إلى الرئيس مونرو . وفى سنة ١٨٤٧ نودى بها جمهورية، وصدر لها دستور على نمط دستور الولايات المتحدة .

وظهر من صفوف أبناء ليبيريا نفر من القادة البارزين ، ولكن طريق التقدم أمام البلاد لم يكن سهلا . وفى عام ١٩٠٤ انتخب آرثر باركلاى رئيسا للوزراء — وهو زنجى خالص ينتمى إلى شعب داهومى وكان قد قضى حياته فى ليبيريا . وفى سنة ١٩١٠ ، وبفضل دبلوماسيته إلى حد ما ، وافقت الولايات على أن تضطلع بالمسئولية عن بقايا ليبيريا .

وفى بداية القرن التاسع عشر كانت تجارة الرقيق بين أفريقيا والبلاد العربية لاتزال خارج نطاق الرقابة من جانب الأوربيين ، وازدهرت سوق هائلة للرقيق فى ظل الحماية التى كفلها سلطان زنجبار .

وأخيراً ، وتحت التأثير القوى من ناحية رجال الإرساليات المسيحية

والرواد ، أنزلت الحكومة البريطانية قوة على الساحل الأفريقى قرب زنجبار واستولت على حصن ممباسا العربى. وإذ قوى ذلك النجاح من مركز البريطانيين لذلك عقدوا معاهدة مع السلطان تصبح بمقتضاها تجارة الرقيق عملا غير قانونى ، وشجعته على الاتجار بطرق أخرى ، واستمر التجار سنوات يسلبون القرى الأفريقية من أهلها ، ولكن قضى على نشاطهم فى النهاية .

الفصل الرابع

الرواد ورجال البعثات التبشيرية

إن القصة الكاملة لاستكشاف أفريقيا وارتيادها لا يمكن أبداً أن تروى ، ذلك أن الكثيرين ممن راحوا يزيحون الستار عن الغوامض الخفية التى انطوت عليها القارة المظلمة لم يعودوا ، فلم تسجل شجاعتهم وقوة احتمالهم ، وضاعت قبورهم الوحيدة فى الغابات والصحارى والأنهار والجبال بالداخل . إن الأنهار الجبارة مثل النيل ، والنيجر ، والكونغو ، وزمبيزى ، تحدت أجيالا لاحصر لها من الرواد ، لأن منابعها خفية فى أرض برية موحشة ، ومجاريها تعترضها الجنادل والشلالات . فمنذ عصور الحضارات القديمة حاول المصريون والفرس والإغريق والرومان والعرب أن يجدوا منبع النيل وهلكوا فى المحاولة .

ثم جاء على أثرهم رجال ينتمون إلى شعوب أوربية كثيرة ومجالات مختلفة كثيرة من الحياة . فبعضهم كانت مهنتهم أن يحملوا الوثنى على اعتناق المسيحية ، والبعض الآخر كان يسعى وراء الشهرة أو الثروة ، وغير هؤلاء جميعاً كان الدافع لهم مجرد المغامرة . وحين تكشفت الحقائق الرهيبة

عن تجارة الرقيق فى القرن الثامن عشر نهضت فى إنجلترا فئة من الناس من أولى العزم ، وكان اهتمامهم الأساسى التكفير عن المظالم التى وقعت خلال القرنين السابقين ، وإتاحة الفرصة أمام الأفريقيين كى يلحقوا بالحضارة الغربية .

إن الرحالة الأوربيين الذين عبروا حدود الصحراء الكبرى كانت قد ترامت إلى أسماعهم القصص الزاهية المثيرة عن تمبكتو ، التى وصفها التجار العرب بأسلوب امتزجت فيه الدهشة والغبطة ، مدينة الثراء والجمال الواقعة فى منحنى نهر عظيم . إن البيض لم يسبق لهم التوغل إلى مثل هذه المسافة البعيدة فى الصحراء ، ولكن كان المظنون أن هذا النهر قد يكون النيجر الذى ورد ذكره فى الحوليات القديمة ، وأنه إذا رسمت خريطة له أمكن استخدامه طريقاً للتجارة من البحر إلى الداخل .

فى هذا الوقت كانت بريطانيا بلداً يشيع فيه الرخاء والغنى ، وكانت الثورة الصناعية فى طريقها إلى اتخاذ صورتها الخاصة بها وأصبحت بحاجة إلى أسواق جديدة .

وفى عام ١٧٨٨ تأسست فى لندن الجمعية الأفريقية بقصد استكشاف نهر النيجر وارتياده . وخلال السنوات القلائل التالية أرسلت الجمعية رجالا جرى انتقاؤهم بعناية ، ولكن أحداً منهم لم يعد سالما على قيد الحياة ؛ إذ قتلهم المتوحشون وفتك بهم المرض أو اختفوا دون أن يتركوا أثراً وراءهم .

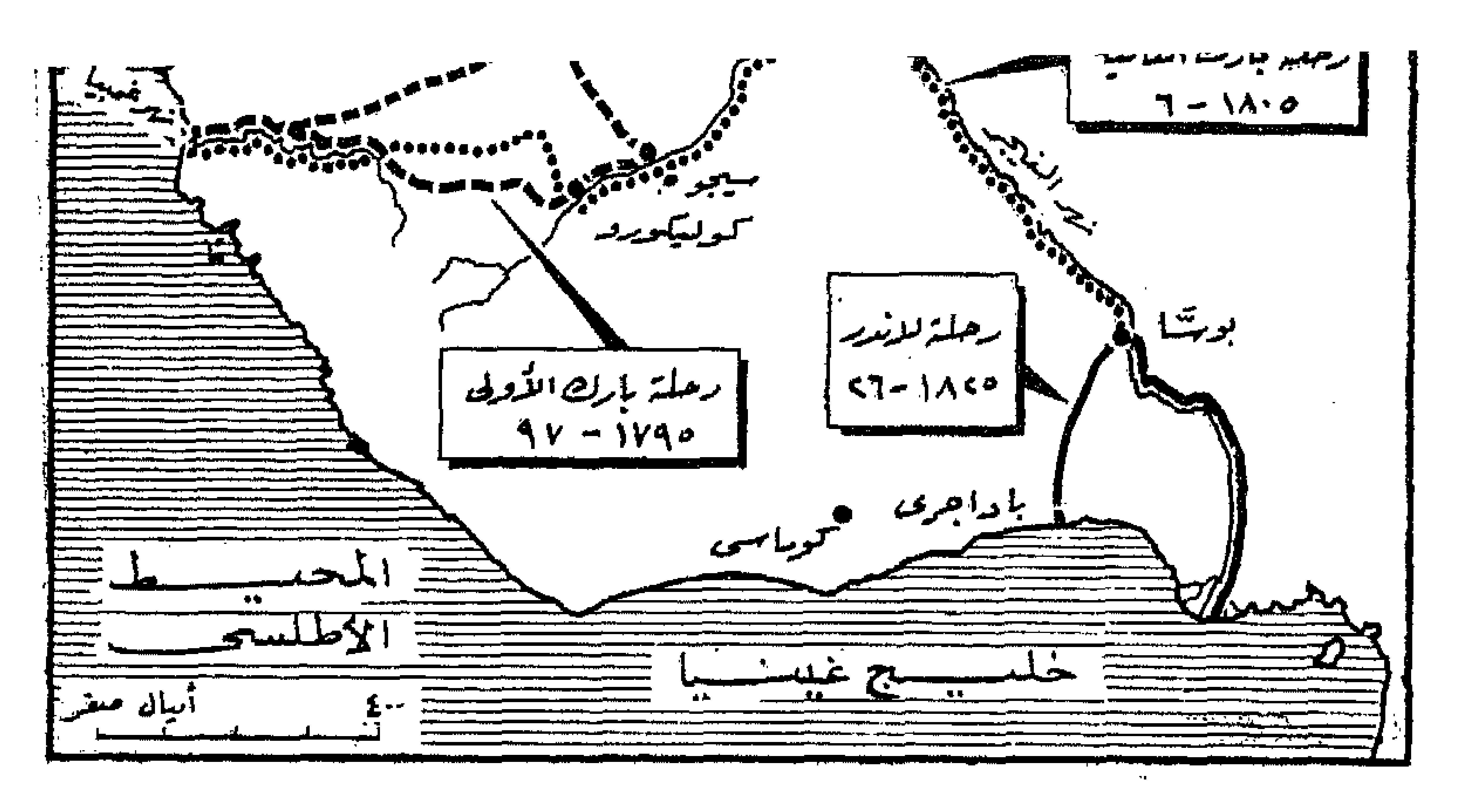
وإذ أبت الجمعية أن تتقبل الفشل نراها تعيد المحاولة فى عام ١٧٩٥ ، وفى هذه المرة جندت منجو پارك وهو جراح اسكتلندى شاب سبق أن دلل على أنه رحالة متحمس مقدام . نزل منجو پارك فى غرب أفريقيا على مقربة من مصب نهر غمبيا ، ثم ضرب فى الداخل مصطحباً معه خادما زنجيا ، وهو صبى من الوطنيين ، وحصاناً وحمارين . وعانت الفرقة الصغيرة شدائد رهيبة ، وأصيب الرجال والحيوانات بالهزال من أثر الجوع . وسجن أحد الزعماء پارك الذى كاد يفقد الأمل ، ولكنه استطاع الفرار بمعجزة . وأخيراً وبعد أن قطع مسافة قدرها حوالى ألف ميل فى الغابة والصحراء بلغ نهراً عريضاً ينساب نحو الشرق ، عرف أنه لابد أن يكون النيجر . فى ذلك الوقت كان پارك على بعد أربعمائة ميل من تمبكتو ، ولكنه لم يجسر على التوغل إلى أبعد من ذلك بعد أن فقد مقتنياته وحل به المرض ، وعاد حزيناً ليقدم تقريره عن الكشوف التى توصل إليها . وأحدثت الأنباء التى جاء بها إحساساً مثيراً بين الجغرافيين إذ كانوا جميعاً يظنون أن النيجر يجرى غرباً ، وكانوا يبحثون عبثاً عن مصبه على طول ساحل المحيط الأطلسى .

وبعد عشر سنوات اتصلت الجمعية بمنجو پارك مرة أخرى فوافق على القيام بمحاولة ثانية . وغادر نهر غمبيا وكان أفضل إعداداً من ذى قبل ، واصطحب معه فرقة تتكون من حوالى أربعين من البيض لم يبق

منهم سوى عشرة عندما وقعت أنظارهم على النيجر ، أما البافون فقد قضت عليهم الحمى . وفي المرحلة الثانية من الرحلة مات خمسة آخرون . ورفض بارك أن يستسلم وأبحر في النهر مع رفاقه الأربعة الذين ظلوا على قيد الحياة ، ولم يصلوا إلى الدلتا . وقال الأفريقيون الذين أسروا بعد ذلك و بيعوا رقيقاً إن المتوحشين هاجموا الرواد الذين غرقوا وهم يحاولون النجاة .

وبذلت جهود باسلة لإكمال العمل الذي بدأه بارك فتوالت بعده البعثات التي أبيدت كلها عدا واحدة حتى قبل الوصول إلى نهر النيجر .

وبعد خمسة وعشرين عاما ـ أي في عام ١٨٣٠ ـ نزل ريتشارد لاندر بساحل العبيد . وكان لاندر قد قام قبل ذلك بعدة رحلات بوصفه خادما للمستكشف الإنجليزي هيو كلابرتون ، واكتسب خبرة لها قيمتها . فلما مات كلابرتون في الصحراء الأفريقية قرّ رأي لاندر على أن يحل مشكلة النيجر . كان شابا، ونشيطا، وطموحا ، وواقعا تحت تأثير سحر أفريقيا . واقتنع أحد أثرياء الإنجليز برعاية المشروع وتقديم المال، ثم شق طريقه ، مع أخ له أصغر منه سنا، في الغابات حتى وصل إلى النقطة التي قال الأفريقيون إن بارك قتل عندها . كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر ، إذ تمت وسط بلاد معادية تنتشر فيها الحميات . واشترى الأخوان زوارق مما يستعمله الوطنيون وسارا في اتجاه النهر مدى شهرين متغلبين على الكثير من الأخطار . وأخيراً ، وقد اعترتهما الدهشة والغبطة ، وجدا نفسيهما في دلتا مليئة بالمستنقعات تنتشر



كشوف نهر النيجر

على هيئة مروحة حتى خليج غينيا . وحين وصلا إلى البحر عرفا أن البحث الطويل الذى اضطلعا به قد انتهى ، وأن مجرى النيجر قد رسم وحدد أخيراً .

وفى هذه الأثناء أخذت المعرفة عن أفريقيا تزداد بسرعة كلما فتح المستكشفون من شعوب كثيرة أرضاً جديدة . ولقد اضطلع البريطانيون بالنصيب الأوفر فى تتبع مجرى النيجر واستقصائه ولكن أول رجل أبيض دخل تمبكتو وعاد سالما عبر الصحراء كان فرنسيا يدعى رينيه كاييه . وكان طب المناطق الحارة قد خطا خطوة واسعة بكشف الكينين لمعالجة الملاريا . وبهذا العقار تسلحت إحدى البعثات وأبحرت فى النيجر دون أن تفقد أحداً من رجالها .

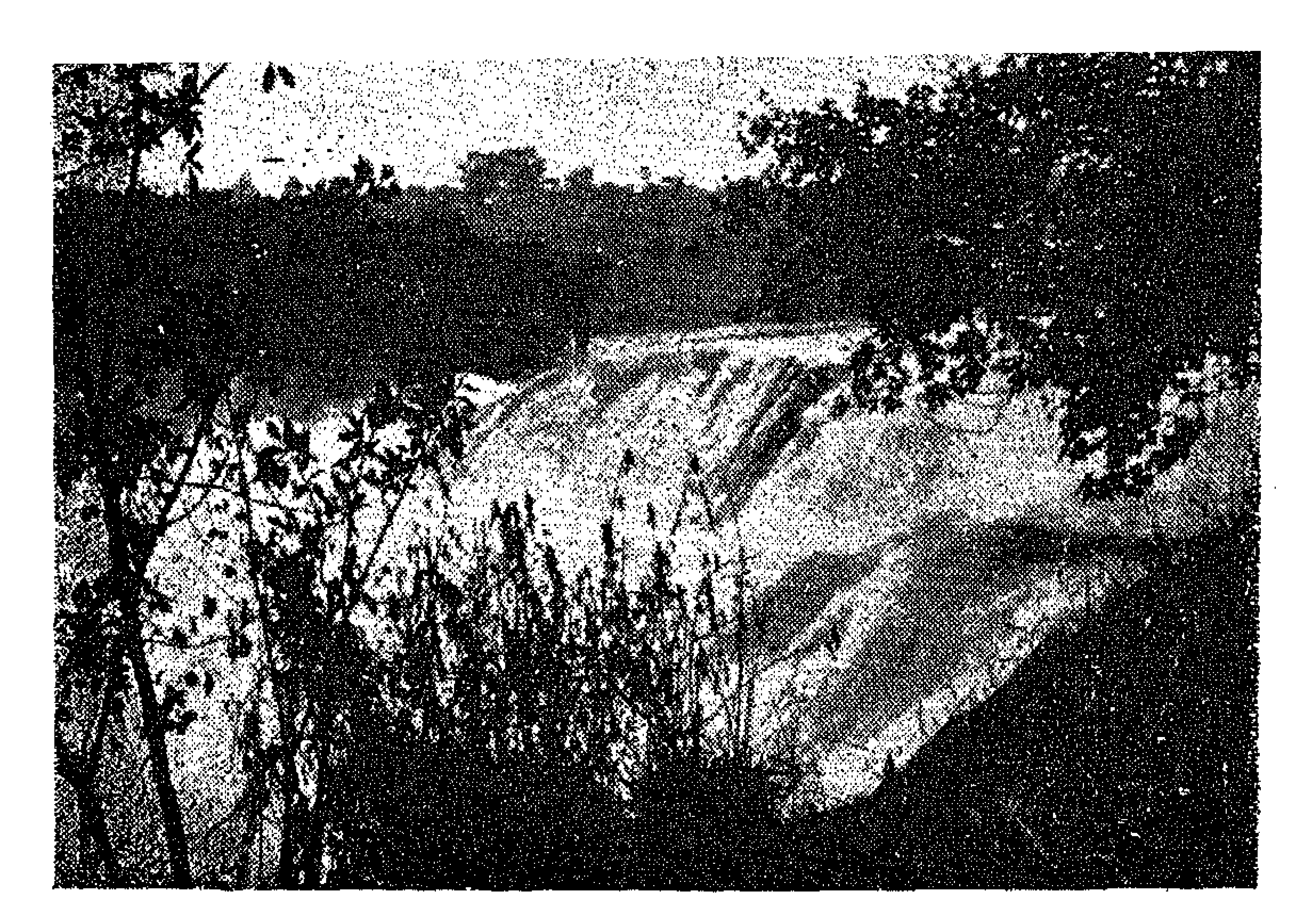
وكان كثير من الألمان رواداً باسلين . فقام أحد العلماء من مدينة همبرج ـ ويدعى هنريخ بارث ـ بسلسلة من الرحلات الواسعة النطاق فى

الصحراء الـكبرى ، ووصف فى خمسة مجلدات ضخمة و بدقة لا تهمل حتى التوافه كل مارآه وسمعه .

وفى حوالى عام ١٧٧٠ ، وبشعور من الفوز والإثارة ، وجد الاسكتلندى چيمس بروس ينبوع ماء رائق يتدفق من أرض مغطاة بالمستنقعات فى موضع مرتفع بالجبال الحبشية . واعتقد بروس ، وشاركه فى الاعتقاد الزعيم القبلى الذى كان يتولى إرشاده ، أن هذا كان نهاية البحث عن منبع النيل ، ولـكن اتضح أنه منبع النيل الأزرق — وهو نهر أصغر .

لقد مر تسعون عاماً كان الناس خلالها يرسمون الخطط لاستكشاف أفريقيا ويحلمون به . وأخذت خريطة القارة تتكون معالمها ببطء . وكبرت الجمعية الأفريقية وأصبحت تعرف باسم الجمعية الجغرافية الملـكية التى بعثت باثنين من الرواد من صفوف العسكريين إلى أوغندة — أرض الجبال الاستوائية . وهذان هما ريتشارد بيرتون الذى تولى قيادة الحملة وچون سبيك الذى كان يليه فى القيادة . فقاما بعمل نافع ولـكنهما لم يتمكنا من التفاهم ، وعاد سبيك إلى إنجلترا حيث نال العطف واستعد لرحلة جديدة بموارد جديدة وشريك أقرب إلى نفسه وهو چيمس جرانت .

وفى رحلة رائعة عثر سبيك وجرانت على منبع النيل ، فكان ذلك ذروة سنوات طوال من الشك والجهد . هذا النهر الجبار الذى كان مهد



منبع النيل

المسيحية الأولى وقرونا من الحضارة ، كان يملأ عقول الناس بنوع من الهيبة تكاد تكون خفية . والآن انتشرت الأنباء في العالم فأثارت دهشة وحماسة ، حين عرف كيف حقق الرجلان كشفهما المظفر في جبال أوغندة وشواطىء البحيرة الكبيرة التي أطلقا عليها اسم فيكتوريا نيانزا . لقد وقفا على حافة رف صخرى ورأيا مياه النيل تهوى من سكون البحيرة محدثة سيلا يغطيه الزبد لتبدأ رحلتها الطويلة إلى البحر .

هذا الفوز أخذت بهاءه الغيرة والغضب . ونظراً إلى أن سبيك لم يتبع مجرى النيل بأسره فإنه حين رجع إلى إنجلترا أبى بيرتون أن يتقبل دعاواه . ونظمت الجمعية الجغرافية الملكية اجتماعا ليعرض كل من الرجلين قضيته . ولم يعقد هذا الاجتماع أبداً . وانتظر المجتمعون دون أن يظهر سبيك ، واتضح أنه

كان قد خرج لصيد الحمام وأصيب بحادثة ومات من جرح سببته رصاصة . وخلال السنوات القلائل التالية أيد الرواد الآخرون جميع الروايات التى أوردها سبيك .

ومن أعظم الأعمال الباسلة فى الأسفار الأفريقية الرحلة التى قامت بها زوجة المستكشف الإنجليزى صمويل بيكر والتى صحبت زوجها فى أشد الرحلات إرهاقاً التى كان الغرض منها تتبع مجرى النيل وسارت السيدة بيكر خلال المستنقعات المليئة بالغابات وقد ألصقت بجسمها ملابسها الفيكتورية وحذاءها ذا الأزرار وهى تجر أهداب ثوبها ، دون أن يساورها التردد . وقد سقطت فى حمأة من الطين ، وتحملت حرارة الأقاليم الاستوائية وهجمات الوطنيين والحمى والجوع والإعياء الكامل فى شجاعة لا تقهر ، وسدت مع زوجها الثغرة التى كانت فى رحلة سبيك ، وعاش الاثنان ليرويا التجارب التى مرا بها . وأنعم على صمويل بيكر بلقب اعترافا بأعماله الباهرة ، وعاش وزوجه إلى سن متقدمة فى إنجلترا .

هذا التوفيق لم يحالف فتاة فرنسية جميلة هى ألكسندرين تن . لقد قامت برحلات مدهشة فى رصانة بصحبة أمها وعمتها . وحين ماتت الأخيرتان من الحمى واصلت ألكسندرين السير بمفردها إلى أن قتلها الوطنيون فى نوبة جنون خلال حفل دينى .

وبينما كان هؤلاء المستكشفون يرسمون خريطة النيل ، أصبح جنوب

أفريقيا — حيث كان المستعمرون الهولنديون والإنجليز يوسعون رقعة أرضهم — مركز النشاط التبشيري ، وتدفق الناس من بلاد مسيحية كثيرة لتنصير الأفريقيين ، وركزت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية جهودها في الأقاليم الخاضعة لحكم الدول الكاثوليكية ، وهي مستعمرات أنجولا ، وموزمبيق البرتغالية . وفي جنوب أفريقيا أنشأ الكلفنيون من اسكتلندة ، واللوثريون من ألمانيا ، والهيجونوت من فرنسا ، والبروتستانت من إنجلترا وأمريكا ، مراكز التبشير بحماسة لاتلين . ومن أكثر هؤلاء حكمة وإقداماً الأمريكي داڤيد ليندلي الذي عاش بين الزولو يدرس عاداتهم ويحاول أن يجعلهم يتلاءمون مع قوانين الحياة المسيحية . وكان ليندلي واسع الأفق سديد الرأي ، أدرك أنه لا يمكن وجود قاعدة ثابتة تنطبق على جميع أنواع الناس وأحوالهم ، وأثار دهشة رؤسائه بدفاعه عن نظام « مهر العروسة » .

وفي أوائل القرن التاسع عشر اشتعلت نار الحرب في جنوبي شرق أفريقيا . فمن دولة الزولو ، بعث ملكها الكاسر القوي « شاكا » بجيوشه تنشر الموت وتقوم بأعمال الغزو . وكان البانتو يطلقون عليه اسم الساحق .

كان شاكا جنديا لا يتطرق الخوف إلى قلبه ، وقائداً يتصف بالحذق والمهارة ، ودرب محاربيه منذ الصغر على فنون الوحشية بأسلوب علمي .

وكان نظامهم شديداً ولا يلين . لقد درس فن الحرب ، وابتدع «تكتيكا» جعل جيوشه لا تغلب فكان الزولو يتقدمون فى تكوينات تشبه الهلال ، وهم مسلحون بالرماح و بالدروع المصنوعة من جلود الثيران ، و يحيطون بأعدائهم ثم يطبقون عليهم بسرعة و يمزقونهم إربا . هذه الطريقة شبيهة بحركة الكماشة التى تستخدمها الفرق المصفحة فى الحرب الحديثة .

وكانت طبول الحرب التى يدقها شاكا منذرة بالويل تدوى فى أرجاء الغابات وعبر المروج . وكان رجال القبائل الذين يتزينون بالريش وطلاء الحرب الأصفر الرهيب ينشرون الرعب والدمار عن القبائل الأضعف منهم شأنا ، فتحطمت قبائل كثيرة وتفرقت ، وخضع غيرها لسيطرة الزولو . وخلال الصراع والاضطراب انفصل الماتابيلى عن الزولو وأقاموا فى ترنسفال الواقعة شمالى مستعمرة الرأس مباشرة ، تحت قيادة زعيمهم الكبير ميزيليكازى .

وفى عام ١٨٢٠ ، و بينما القبائل لا تزال فى حرب بينها ، أنشأ المبشر الأسكتلندى رو برت موفات وزوجه الشابة وأسرته مركز التبشير فى كورومان فى بتشوانا لاند . كانت الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس يحميها خط من الحصون ، ولم يجرؤ على تجاوز هذا الخط إلا العدد القليل من البيض ، ولم يعبر أحد أبداً نهر لمبو بو و يتوغل فى أرض الملوك السود . لقد بدت إرسالية كورومان فى نظر الكثيرين من الناس ضربا من الجنون

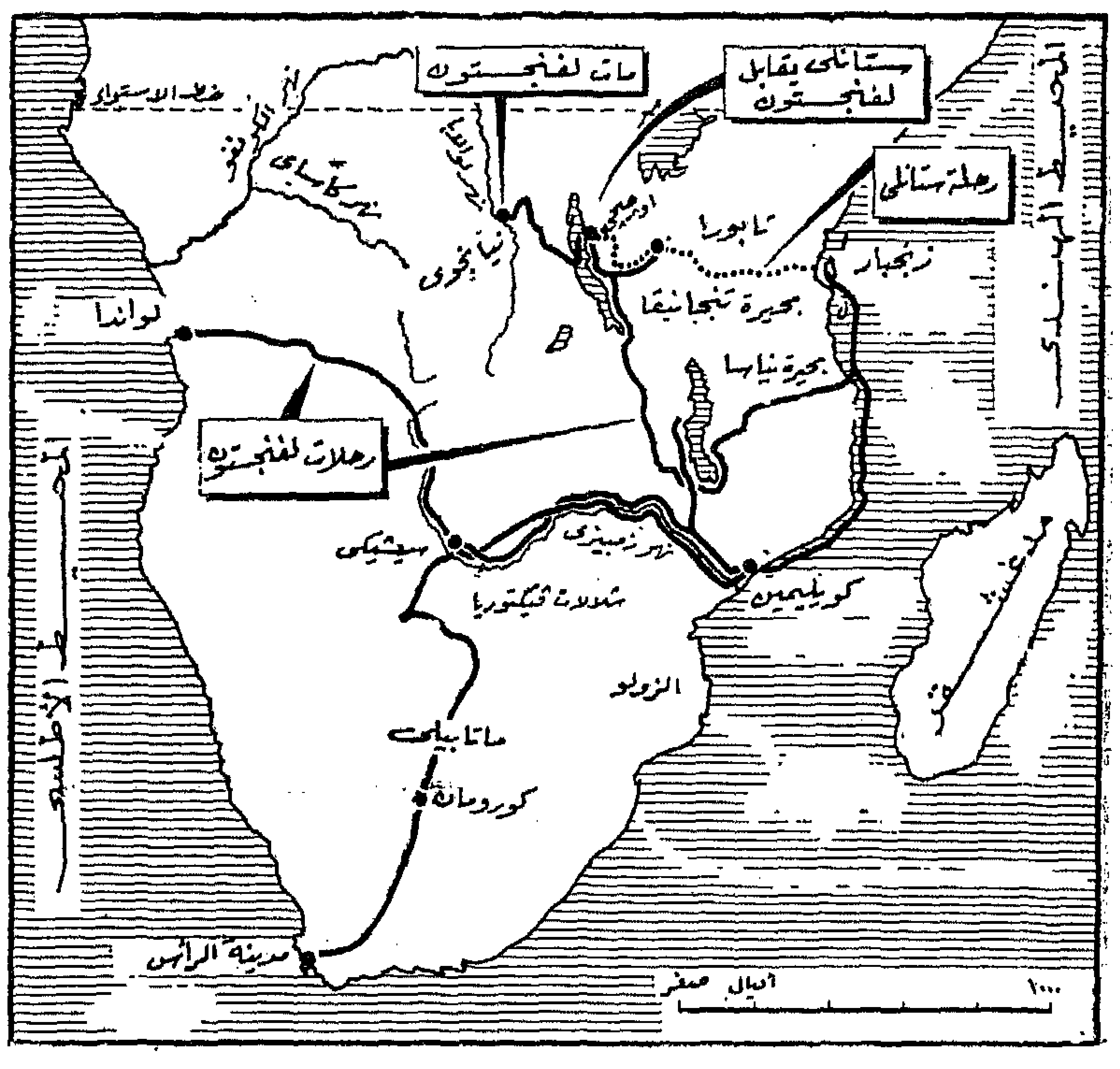
ولـكن موفات كان يشعر أن هنا واجبه . وعمل مع القبائل المجاورة وأثر في نفس مزيليكازى وغيره من زعماء الماتابيلي بفضل شجاعته وحكمته .. كان مزيليـكازى محاربا قوياً ، وفي ظل قيادته شن الماتابيلي حربا لا هوادة فيها ، ولـكن كان يهمه أن يصادق رجلا أبيض ، فدعا موفات إلى زيارته في قريته الملـكية في بولا وايو لاستشارته في أمور كثيرة . غير أن الزعيم رفض في حزم أن يتنازل عن زوجاته الثلاثمائة وأن يعتنق المسيحية .

وفي عام ١٨١٣ ، أى قبل أن يبدأ موفات بعثته في كورومان بسبع سنوات ، ولد دافيد لفنجستون على مقربة من جلاسجو في اسكتلندة . كان أبوه بائع شاى متجولا ورجل كنيسة متحمسا يوزع المطبوعات الدينية على زبائنه ، وكانت والدة دافيد سيدة تتصف بالحنان والرقة ، و بذلك نشأ في بيئة سادتها البساطة والسعادة وتغلغل فيها الإيمان الديني . وكانت الأسرة فقيرة فتوجه دافيد وهو في العاشرة من عمره للعمل في أحد مصانع القطن وهو عمل كان يستمر طيلة النوبة المنتظمة والتي تبلغ إثنتي عشرة ساعة في اليوم . ولما كان مصمما على أن يعلم نفسه استخدم كل دقيقة خلا فيها من العمل ، في الاطلاع ، و بفضل ما استطاع ادخاره من مال التحق بجامعة جلاسجو وكان في الثالثة والعشرين من عمره ، وهناك درس الطب إذ سبق أن استقر رأيه على أن يكون مبعوثا طبيا . وكان مسيحيا مؤمنا ولـكن دون الانتماء إلى شيعة معينة .

وكان لفنجستون يساوره الأمل فى الذهاب إلى الصين ولكن الحدود كانت مغلقة فى وجه الأجانب بسبب حرب الأفيون . وفى هذا الوقت كان روبرت موفات يقضى إجازته فى إنجلترا ، فتوجه لفنجستون لرؤيته ، فكان ذلك الاجتماع الذى حدد مستقبله بأسره .

وفى عام ١٨٤١ نزل لفنجستون فى جنوب أفريقيا ، وتوجه فوراً إلى كورومان ولكنها لم تبعث على رضاه ، إذ كان يريد أن يمارس عمله بين الأفريقيين البعيدين عن الحضارة ، وهنا رحل إلى الشمال ليؤسس إرسالية جديدة فى بلد غير معروف ، وتحوطه البركات من جانب جمعية التبشير اللندنية .

ظل لفنجستون بقية حياته يحاول فى ثبات أن يدخل النور فى أفريقيا عن طريق الديانة المسيحية والتجارة . وكان يأمل من وراء التعاليم المسيحية إلغاء الأساليب الوثنية ، وعن طريق الاتجار إبعاد البقية الباقية من تجار الرقيق . لقد جاهد الكثيرون من المبشرين فى ذلك العصر أن يصوغوا الأفريقيين وفقا للطراز المسيحى الجامد الذى نشأوا فى ظله هم أنفسهم ، وأغفلوا إغفالا كليا تقاليد قبلية مستقرة منذ أمد بعيد . وعلى عكس هذا حاول لفنجستون أن يتقبل الطيب من تلك التقاليد وألا يستبعد إلا الشرير منها . كان يحكم على الأفريقيين ، كما حكم على بنى جنسه ، حسب قيمتهم الفردية ، ولذلك وثقوا به . وخلال أسفاره



رحلات افنجستون

البا كرة أصابه أسد إصابة شديدة ، و بينما كان يتماثل إلى الشفاء ذهب للإقامة عند روبرت موفات فى كورومان حيث وقع فى غرام ابنته مارى وتزوجها. وأثبتت مارى لفنجستون شديد إخلاصها وعظيم شجاعتها. وكانت بحاجة إلى كل ما تملك من شجاعة ، إذ ولد أطفالها الخمسة فى محطات التبشير البعيدة عن العمران ، وكانت تسافر دائماً مع زوجها فى بلاد لم تطأها قدم امرأة بيضاء أبداً .

وسرعان ما اكتسب افنجستون صداقة بعض الأفريقيين وأحسن استقباله سيشيلى زعيم قبائل بشوانا الذى استمع فى تحمس إلى كلمات الإنجيل

وطلب من لفنجستون أن ينشىء مركزاً للتبشير على مقربة من قريته . وأعاد الزعيم زوجاته الكثيرات إلى أسرهن وتحول إلى المسيحية ، ولكن بقية القبيلة ظلت متمسكة بآلهتها . وفى أثناء إقامة لفنجستون مع سيشيلى رحل مع زوجه وأطفاله واثنين من الصيادين الإنجليز لارتياد الأراضى الواقعة شمالى صحراء كلهارى . وسمع سبتوانى زعيم قبيلة ما كولولو بهذه الرحلة فسافر نحو الجنوب لملاقاة لفنجستون ، إذ كان شديد الرغبة فى أن يرى رجلا أبيض . وتعلق كل من الرجلين بالآخر على الفور ، ووجد لفنجستون فى هذا المحارب الأفريقى صفات جديرة بالإعجاب والاحترام، وإن سره دائما ما كانت تشتمل عليه الطقوس الوثنية من بربرية . ومنذ ذلك الحين صحب رجال القبيلة لفنجستون فى رحلاته الشاقة آلافا من الأميال ، وشاركوه فى الأخطار وصنوف الحرمان

وفى سنة ١٨٥١ وقف لفنجستون لأول مرة على شواطىء نهر زمبيزى . لقد صمم على أن يستخدم هذا النهر العظيم لخير الناس ، أى للتجارة والسفر . وطغى على فكره مشروع جديد ، فقرر أن يعبر أفريقيا إلى ساحل المحيط الأطلسى ، وأن ينشىء مركزاً للتبشير فى الداخل ، وأن يعتمد على مشاهداته الشخصية فى إذاعة المظالم التى انطوت عليها تجارة الرقيق التى كانت لا تزال قائمة فى أنجولا ، ذلك الإقليم الواقع فى غربى القارة والخاضع لسلطان البرتغاليين . كانت هذه الرحلة من الخطورة بحيث لم يجسر

لفنجستون على المخاطرة باصطحاب زوجته وأطفاله ولهذا أعادهم إلى إنجلترا .

وفى يونية من عام ١٨٥٢ بدأ رحلته من مدينة الرأس مصطحبا ستة من الحمالين الأفريقيين . وحين بلغ أرض ما كولولو استقبل بالترحيب الحار وانضم إليه عدد من أفراد القبيلة . وضربت الجماعة غربا مخترقة المرتفع الذى يفصل بين نهرى زمبيزى والكونغو . وفى كتابه « أسفار مبشر » يصف لنا لفنجستون جمال المناظر الطبيعية الساحر ، وروعة الأزهار وعظمة الجبال . وهو يصف أيضاً بعبارات بسيطة وواقعية ما لاقاه من صعاب كاد يستحيل التغلب عليها. لقد بدت الرحلة فى وادى نهر الكونغو حيث الحرارة تكاد تزهق الأنفاس كأنما لا نهاية لها فى نظر الجماعة التى أصابها الإعياء ، ولكن حين لاحت لها أخيراً مياه الأطلسى اللامعة ظن ما كولولو أنها معجزة .

وفى أثناء العودة ، وبعد عبور مقسم الماء من جديد ، سافرت الفرقة أميالا كثيرة فى نهر الزمبيزى بطريق الزوارق ، واكتشف لفنجستون شلالات فيكتوريا ، ذلك الكشف الذى يحبس الأنفاس بسبب روعته . وإذ دنا من الساحل راعه أن يرى تجار الرقيق يسوقون أسراهم أمامهم إلى سوق زنجبار . كان الطريق تتناثر فيه أجساد المشرفين على الهلاك وجثث الموتى الذين خروا وهم مقيدون بالسلاسل ، إذ كانوا من الضعف الذى لم يتمكنوا معه من مواصلة السير .



أحد أفراد قبيلة تارا وقد تسلح للقتال

وأسرع لفنجستون إلى وطنه ، وحين وصل إلى لندن ألفى أنه أصبح رجلا مشهوراً . وانهالت عليه مظاهر التكريم ، وعومل كبطل ، ولكن لم يغب عن نظره أبداً الواجب الذى آل على نفسه أن يضطلع به . وأقنع الحكومة بأن تبنى له زورقاً بخارياً ليتسنى له أن يبين إمكانيات التجارة

على نهر زمبيزى . وكان مقتنعا بأنه إذا تمكن السكان المحليون من كسب المال بوسائل أخرى فإنهم يمتنعون عن المتاجرة فى الحياة البشرية . وأخفق مشروع الزورق البخارى هذا ، إذ كان أبعد مايكون عن الصلاحية لمثل هذا العمل ، فكان يتحطم على الدوام . وأخيراً هوى فى قاع النهر وتبددت الحملة بأسرها .

وفى عام ١٨٦٢ تملك لفنجستون الطرب حين سمع بكشف منبع النيل ، وفى السنة ذاتها عادت مارى لفنجستون إلى أفريقيا كى تلحق بزوجها ، ولكنها راحت ضحية الحمى بعد ذلك بأربعة شهور ، فحزن عليها حزناً لم يتخلص منه أبداً .

وفى سنة ١٨٦٦ قام برحلته الأخيرة فى محاولة يائسة لإدخال المسيحية إلى إقليم المرتفعات الشرقية . فتوجه إلى تابورا الواقعة فى قلب بلاد الاتجار بالرقيق حيث آلمته رؤية القسوة وإراقة الدماء . وحين سرق خادم خائن صندوق الأدوية الذى كان يحمله لفنجستون أدرك أن ذلك كان بالفعل حكما عليه بالإعدام . كان فى استطاعته أن يرجع إلى الشاطىء ليأتى بأدوية أخرى ولكنه اختار المضى فى طريقه. ولم يمض قليل حتى سقط طريح الحمى وظن خدمه أنه على وشك الموت .

فى تلك الأثناء كان العالم الخارجى يشهد تغييرات كبيرة . ففى عام ١٨٦٩ فتحت قناة السويس للملاحة ، وأصبحت الخطابات تصل من



دكتور « لفنجستون »
على ما أظن »

زنجبار إلى إنجلترا فى ثلاثة أسابيع بدلا من ثلاثة أشهر . ولكن لم يصل أى خبر عن لفنجستون ولم يسمع عنه شيء منذ قام برحلته . وزاد القلق عليه ، وحين جاء ربيع عام ١٨٧١ كانت قد انقضت خمس سنوات دون وصول أنباء عنه . فقررت صحيفة نيو يورك هيرالد أن ترسل فرقة للبحث عنه . و بعث بهنرى مورتون ستانلى ، وكان من أكفأ مراسليها ، إلى أفريقيا مزوداً بتعليمات بسيطة ولكنها دقيقة للعثور على ستانلى .

وفى مارس عام ١٨٧١ قام ستانلى من زنجبار ومعه جماعة معدة إعداداً طيبا وتتكون من مائتى رجل تقريبا . لم يكن يعانى من نقص المؤن أو المال ، وبالرغم من هذا كانت المهمة صعبة ؛ إذ كانت البلاد موحشة وغير مألوفة ، ولم تكن له خبرة بالسفر فى المناطق الاستوائية . ومات الرجلان الأبيضان اللذان كانا معه . ولكنه أتم رسالته بحماسة لا تلين وكفاية فائقة . كانت الأوامر الصادرة اليه أن يعثر على لفنجستون فنفذها

فى سبعة أشهر . وهناك فى أعالى الجبال وعلى ضفاف بحيرة تنجانيقا تقابل الرجلان ، ونطق ستانلى بالكلمات التى أصبحت مشهورة « دكتور لفنجستون ، على ما أظن » ، وهنا مد لفنجستون يده وقد ارتسمت على فمه ابتسامة الشخص الذى لا يصدق عينيه . وقضى المستكشفان أربعة أشهر معاً ، ولكن حين استعد ستانلى للعودة رفض لفنجستون أن يصحبه .

وفى السنة التالية مرض لفنجستون بصورة تدعو إلى اليأس. وحاول خدمة المخلصون أن يسيروا به إلى الشاطىء حيث يمكن أن يلقى العناية الواجبة ، وحملوه بأقصى ما فى وسعهم من رفق ، ولكن كل حركة كانت مبعث ألم . وفى صباح أول مايو من عام ١٨٧٣ دخلوا الكوخ البسيط حيث وجدوا فيه مأوى لسيدهم وشاهدوه راكعا . لقد مات فى أثناء أدائه الصلاة .

إن ما حدث بعد ذلك يوضح ما كان لفنجستون يبثه فى نفوس الغير من حب واحترام . فقد قرر الأفريقيون الثلاثة الذين قضوا فى خدمته أطول مدة وهم سوس وتشومى وجوزيف وينرايت ، أن الإجراء السليم هو أن يعيدوا مولاهم إلى قومه . كانوا يعرفون أن الرحلة محفوفة بالخطر لأن المناطق التى يجب عليهم اختراقها كانت تقطنها قبائل تعتقد أن الموت دنس ويجلب سوء الحظ ، ومن المؤكد أنهم يقتلون الفرقة كلها لو أدركوا

أنها تحمل جثة ميت ، وفى شجاعة كبيرة حمل هؤلاء الأفريقيون سيدهم إلى الشاطىء . وكانوا يلفون الجثة أحيانا كأنها بالة قطن حتى يتجنبوا معرفتها . وهكذا خدموا لفنجستون بإخلاص فى حياته ثم فى مماته . وإن لمن المناسب أن نقول إنهم جىء بهم إلى إنجلترا لحضور جنازة لفنجستون فى مقبرة وستمنستر .

وفى عام ١٨٧١ ، أى بعد خمسة أسابيع من وفاة لفنجستون ، وقعت معاهدة بين الحكومة البريطانية وسلطان زنجبار لإنهاء تجارة الرقيق . لقد أغلقت السوق الكبيرة وطرد تجار الرقيق، وما كان لفنجستون ليريد ذكرى خيراً من هذه النتيجة .

الفصل الخامس

الزحف على أفريقيا

لقد قاد رجال الإرساليات والرواد والتجار الطريق إلى قلب أفريقيا ، والآن حان الوقت الذى يشترك فيه بناة الامبراطوريات . كان يجرى رسم خريطة الداخل بكل معالمه واحدا بعد آخر ، وراحت فى هذه السبيل أرواح كثيرة ، ولكن كان هناك دائما رجال على استعداد لمواجهة وتقديم التضحيات والمشاركة فى النصر .

ومن هؤلاء مورتون ستانلى الذى عثر على لفنجستون ، ثم أصبح بدوره فى قمة أولئك الذين كشفوا مجاهل أفريقيا .

لم تكن لستانلى التزامات عائلية تقيده ؛ فقد ولد بويلز فى عام ١٨٤١ وهو العام الذى وصل فيه لفنجستون إلى أفريقيا ، وجرى تعميده باسم جون رولاندز . كان طفلا لا يريده أحد ، وراح ينتقل من أسرة إلى أخرى حتى بلغ السادسة من العمر فوضع فى « ورشة » كان يعيش فيها على الخبز والبطاطس والعقاب ، وكان موضع المعاملة السيئة من معلم مستبد لا يستطيع التحكم فى أعصابه . وتحمل الصبى هذه الحياة اللئيمة تسع

سنوات يتخللها الجلد الشديد ، وأخيراً عمد إلى الفرار . وتوجه إلى ليفربول حيث وجد أقارب له ولكنهم كانوا أفقر من أن يعولوه . وهنا تعاقد على العمل كخادم فى سفينة وجهتها نيو أورليانز .

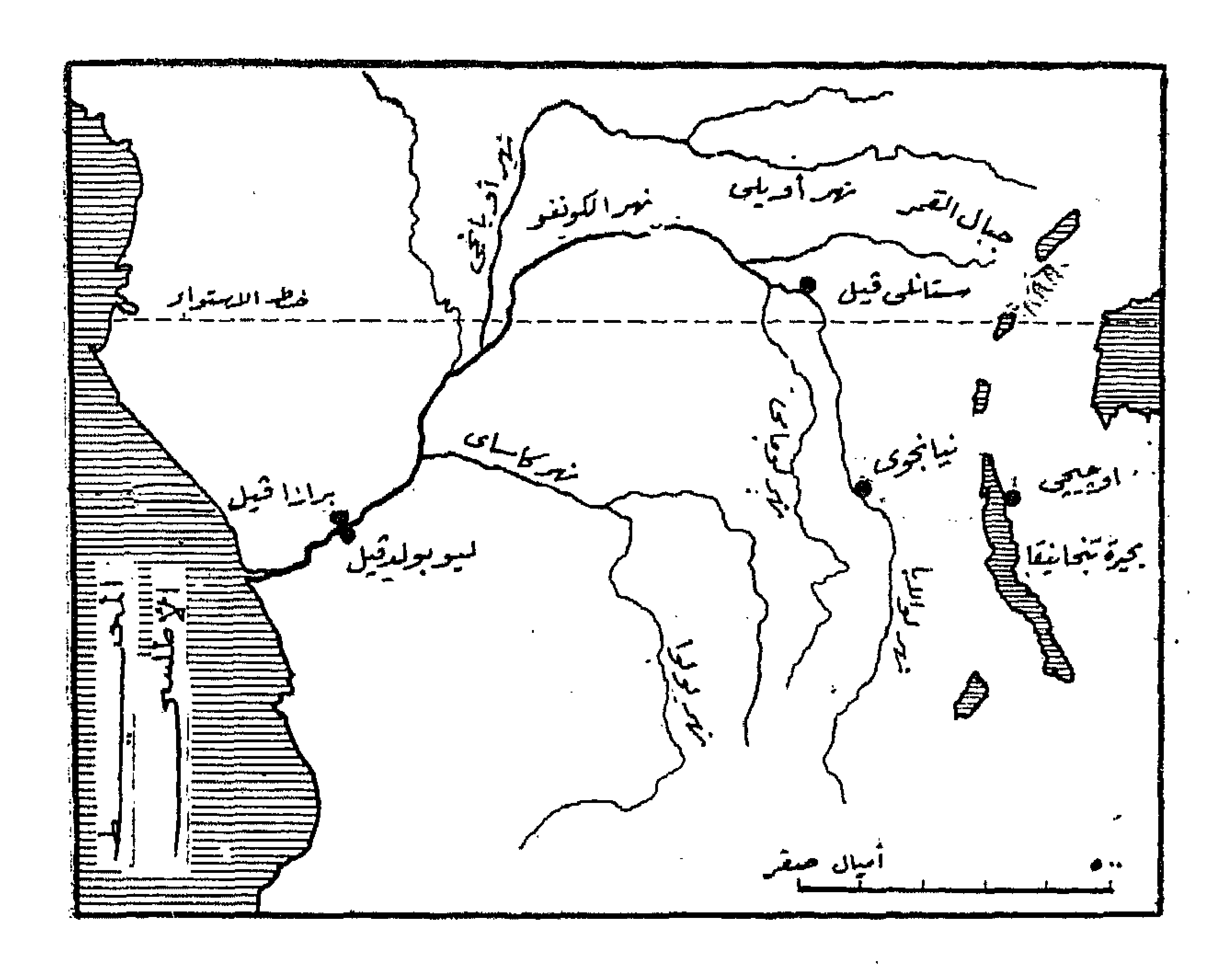
و بينما كان يبحث عن عمل فى مخازن نيو أورليانز التقى بتاجر ثرى فى أواسط العمر ولم يكن له أطفال ، و يدعى هنرى مورتون ستانلى. ومال هذا الرجل الخير إلى الغلام ووجد له عملا وصحبه الى بيته ومنحه اسمه . كان هـــذا أول ماعرف ستانلى الصغير فى حياته من ضروب العطف والحنان .

وأحب العالم الجديد ، وامتلأت نفسه بشعور عميق من الاعتراف بجميل الرجل الذى يحدب عليه ، ولكنه كان قلقاً بطبيعته . فحين نشبت الحرب الأهلية انضم إلى صفوف جيش الولايات المتعاهدة ، الا أنه غير رأيه فيما بعد وحارب لنصرة قضية الاتحاد ؛ إذ كان قد شهد ما ينطوى عليه الرق من ظلم. وحين عاد الى نيو أورليانز كان ستانلى الأكبر قدمات، فأصبح وحيداً مرة أخرى . واشتغل ستانلى بالصحافة فأثبت أنه نشيط وموهوب ، وأرسلته صحيفة نيويورك هيرالد ليوافيها بأنباء حملة بريطانية فى الحبشة . وكان العمل الثانى الذى كلف به، ذلك البحث التاريخى عن لفنجستون . و بعد هذا النجاح الذى تردد صداه فى العالم، قضى شتاء خلا من البهجة ، يبعث بأخبار حرب قصيرة ولكنها بشعة ، بين البريطانيين

وقبائل الأشانتى فى ساحل الذهب . وفى أثناء عودته الى إنجلترا سمع بموت لفنجستون .

كان لأفريقيا تأثير قوى فى خيال ستانلى فقرر العودة إليها وإتمام العمل الذى بدأه لفنجستون . ووافقت صحيفتا هيرالد النيويوركية ، والديلى تلجراف اللندنية على تمويل بعثة لإتمام استكشاف البحيرات الواقعة فى المرتفعات الشرقية وحل لغز نهر لوالابا . لقد سبق للفنجستون أن سافر فى هذا النهر ولكنه مات قبل أن يتمكن من إثبات اتصاله بالنيل أو النيجر أو الكونغو . كان يأمل أن لوالابا قد ينقل التجارة من وسط أفريقيا الى البحر ، و بذلك يهيىء صلة قوية بين الهمجية والحضارة .

وفى عام ١٨٧٤ قام ستانلى من زنجبار فى صحبة ثلاثمائة وخمسين رجلا، وشق طريقه أولا إلى فيكتوريا نيانزا و بحيرة تنجانيقا ومنها إلى نيانجوى التى مات فيها لفنجستون . و بعد رحلة طويلة وشاقة اكتشف ستانلى أن لوالابا يتصل بنهر الكونغو ،وراح يتتبع و يرسم مجراه حتى المحيط الأطلسى. وإذ تابع النهر فى اتجاهه نحو الغرب لاقى عقبات هائلة فنقص عدد رجاله إذ مات بعضهم من الحمى أو قتلهم آكلة لحوم البشر أو غرقوا فى الجنادل التى تكثر عندها الدوامات . وعاد البعض منهم أدراجه ، ولكن حافظ الكثيرون على إخلاصهم وأظهروا بسالتهم . وحين بلغ نهاية الرحلة لم يكن على قيد الحياة سوى نصف عدد أفراد الجماعة الأصلية .



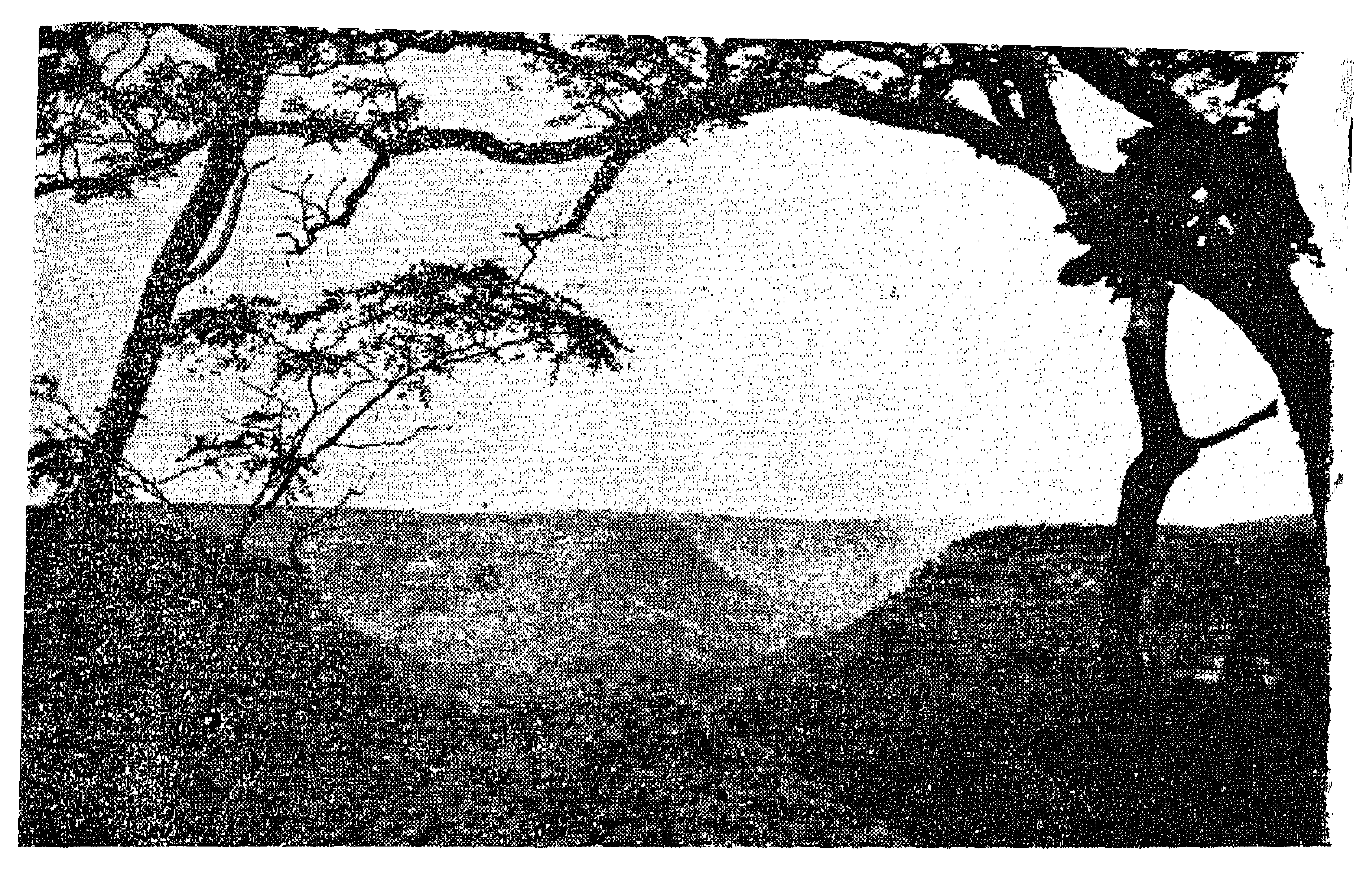
حوض أفريقيا

لم يكن ستانلي مبشرا دينياً ولكنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بالتعليم والحضارة . فبينما كان يكافح ضد السكان الوطنيين والغابات رسم فى ذهنه صورة لمستقبل عظيم تروض فيه الأرض ومن عليها ويعم الرخاء الجميع . هذه الأحلام كان يرسم معالمها فى الرسائل التى يبعث بها إلى التلجراف والهيرالد . ولكن الحكومة البريطانية كانت حذرة ، إذ أن المواضع التى احتلتها فى أفريقيا الاستوائية ، على ساحل الذهب وعلى طول نهر النيجر ، كانت كثيرة التكاليف ومصدر المتاعب . وكانت

تتوالى عليها الطلبات باستمرار كى ترسل الجيوش ، لحماية المستعمرين ضد الوطنيين ، ونشبت سلسلة من حروب دامية اشتبكت فيها إنجلترا ودفعت تكاليفها . ولهذا فقد كان تأييد مشروع استغلال الكونغو مقامرة لم تكن هذه الحكومة على استعداد للقيام بها .

بل ولقيت مقالات ستانلى التى نشرتها نيويورك هيرالد استجابة أقل ؛ إذ كان الكونجرس مشغولا بمحاولة تنظيم البلاد بعد الحرب الأهلية . وكانت الفرص متوافرة أمام التوسع فى الداخل ، ومن يفز بها فإن الثراء فى انتظاره . وكان اهتمام أمريكا بأفريقيا مقصوراً على ليبيريا بوصفها وطنا للعبيد الذين تحرروا ، ومكانا للأعمال التبشيرية الواسعة الانتشار .

غير أن شعور حكام آخرين كان مختلفا عن هذا . فحين نزل ستانلى فى فرنسا وهو فى طريق العودة إلى الوطن ، استقبله ممثلون للملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا الذى أثارته التقارير التى بعث بها ستانلى من الكونغو وشاركه أحلامه فى إنشاء إمبراطورية كبرى فى وسط أفريقيا . فى ذلك الوقت كان ستانلى متعبا ومريضا ولا يرغب فى القيام بعمل جديد . إلا أنه لم يمض عامان حتى دعاه ليوبولد إلى بروكسل ليتحدث إلى جمعية الكونغو وهى لجنة دولية يرأسها الملك ، ووافق ستانلى على العودة إلى الكونغو . لقد وضع أمام عينيه مهمة ضخمة .



أرض الكونغو

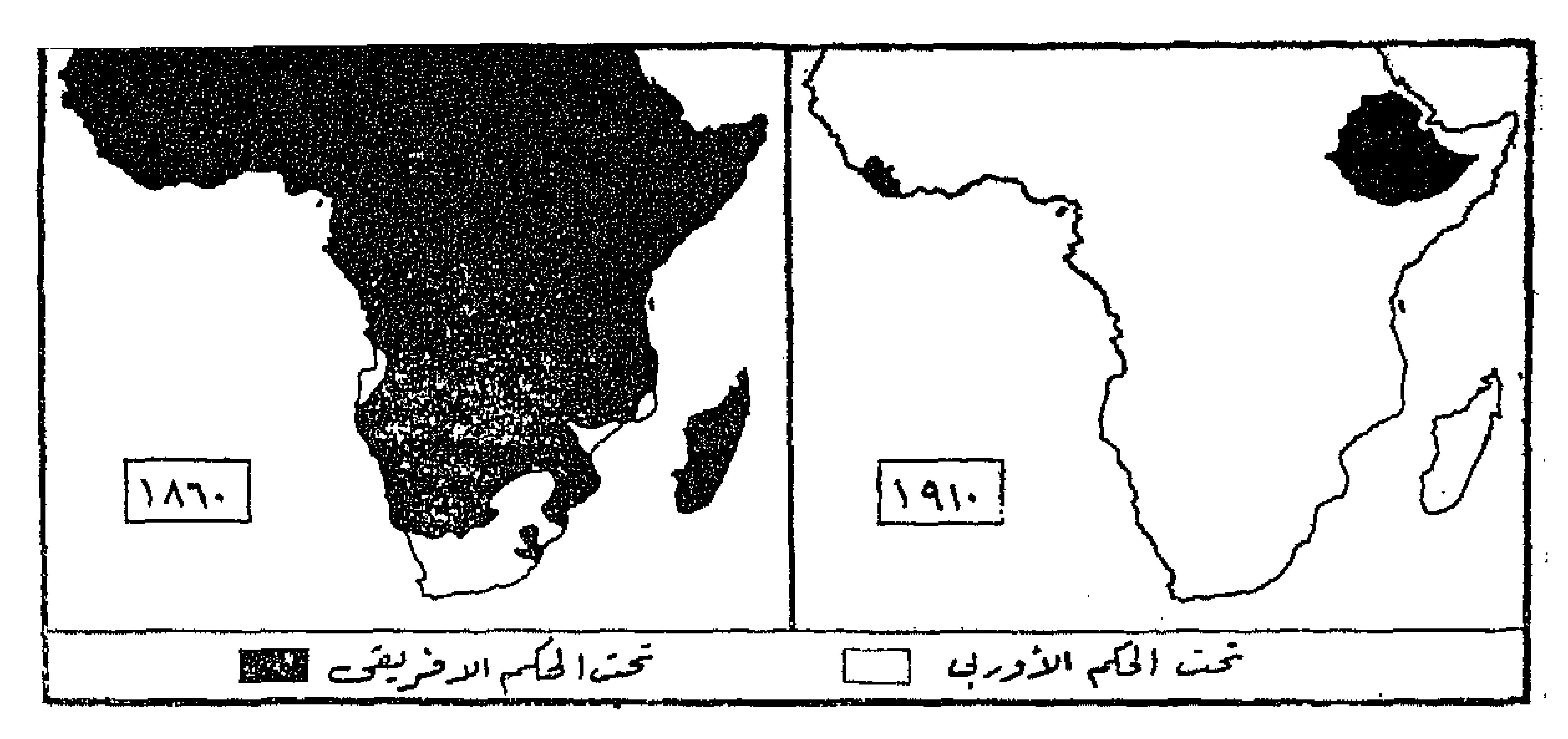
وتوجه إلى زنجبار وجمع عدداً من الوطنيين ، كان الكثيرون منهم ممن سبق لهم أن عبروا القارة معه وممن كان يعرف أن فى إمكانه أن يثق بهم . وأقلع مع هؤلاء القوم مرة أخرى ، ودار حول القارة ونزل عند مصب نهر الكونغو . كانت الجماعة التى صحبته تقل عن مائة رجل ، وقلة منهم سبق لها أن رأت طريقا أو استعملت « بلطة » أو « جاروفا » . وعلمهم ستانلى نفسه كيف يقطعون الأشجار ويكسرون الصخور ، وظل يعيش عاما بعد عام على غذاء يبعث على الملل ، إذ يتكون من لبن الماعز والموز ، وكان يصاب أحيانا بالمرض الشديد وكان عدد القوة العاملة التى معه يتناقص باستمرار بسبب المرض والحوادث ، ولكن إيمانه وعزمه لم يتطرق إليهما الوهن .

كاد النجاح الذى حققه ستانلى يكون معجزة ، إذ أنشأ سلسلة من المحطات المحصنة لمسافة ١٤٠٠ ميل على طول نهر الكونغو ومد طريقا بلغ مائة ميل ليتحاشى الشلالات والجنادل ، وعقد المعاهدات مع الزعماء الحاكمين ، وأدخل القانون والنظام فى منطقة شاسعة . وعاد بعد خمس سنوات إلى بروكسل ليرفع تقريره إلى الملك ليوبولد .

فى هذا الوقت كانت الدول الأوربية قد بدأت تدرك ما تنطوى عليه أفريقيا من الإمكانيات . لقد مرت أوربا بفترة من التغيير العنيف ، فمنيت فرنسا بهزيمة حاسمة على أيدى بروسيا فى حرب السبعين ، وأعلن قيام الإمبراطورية الألمانية بزعامة بروسيا ، وتولى القيادة فيها السياسى الماهر أوتو فون بسمارك .

وفى عام ١٨٨٤ دعا بسمارك إلى عقد مؤتمر فى برلين لوضع خطة تقسيم أفريقيا . واجتمع الدبلوماسيون الأوربيون حول مائدة المؤتمر وراحوا يقطعون أوصال أفريقيا كأنها كعكة عيد ميلاد ، ويقدمون الأجزاء التى اقتطعوها إلى الشعوب المتعطشة للأرض .

وكانت ألمانيا شديدة الرغبة بصفة خاصة فى إنشاء إمبراطورية فيما وراء البحار . كانت قوية فى الداخل ولكنها كانت بحاجة الى مستعمرات كى تمد نطاق تجارتها . لقد فاتت على الألمان فرصة الاستيطان بالعالم الجديد فى القرن السادس عشر ، إذ كانوا منصرفين الى تعمير بلادهم بعد الدمار



من الحكم الأفريقى إلى الأوروبى

الذى أحدثته حرب الأعوام الثلاثين ، وكان أسطولهم التابع لعصبة الهانسا بطيئا فى مد طرق تجارته من بحر البلطيق الى المحيط الأطلسى . فأرادوا الآن أن يعوضوا الوقت الضائع واستطاع بسمارك عن طريق المساومة البارعة أن يقتطع جانبا من الساحل الأفريقى الغربى شمال رأس الرجاء مباشرة ، حيث كان الألمان قد أنشأوا محطات صغيرة ، وأراضى على جانبى مستعمرة نيجيريا البريطانية وعلى خليج غينيا ومساحة كبيرة من شرق أفريقيا تمتد من بحيرة تنجانيقا الى المحيط الهندى . وكان المبشرون والتجار الألمان قد أرسوا أساسا طيبا بين البانتو فى أفريقيا الشرقية ، ووقع أحد العملاء الألمان وهو الدكتور كارل بيترز ، اتفاقيات مع عدد كبير من الزعماء القبليين بحيث إنه حين طالب بسمارك بالمنطقة كانت له بالفعل قدم راسخة فيها .

كذلك أرادت فرنسا أن تقوى إمبراطوريتها الاستعمارية . لقد

أذلها انتصار بروسيا وانتزع منها أرضا على طول نهر الراين . وكانت ممتلكاتها الأفريقية مهمة سواء لأغراض الربح أو الكرامة ، وانحصر اهتمامها أساسا فى شمالى أفريقيا حيث سيطرت على مساحة شاسعة من الصحراء تمتد بطول ساحل البحر المتوسط وتتوغل فى الصحراء الكبرى. ولكنها لم تجرؤ على تجاهل أفريقيا الجنوبية ، وبينما كان ستانلى يجاهد من أجل إنشاء إمبراطورية للملك ليوبولد قام مستعمر فرنسى نشيط وهو سافورنيان دى برازا برحلة خاطفة من الصحراء إلى البلاد الواقعة شمالى الكونغو مباشرة ، ووقع المعاهدات مع الزعماء ورفع العلم الفرنسى حيثما نزل . ومنحت فرنسا فى مؤتمر برلين حقوقا فى هذا الإقليم . وكانت النتيجة أن وقف مركزان محصنان وجها لوجه عبر مصب نهر الكونغو العريض وهما برازافيل الفرنسية فى الشمال وليوبولد فيل البلجيكية فى الجنوب . وبالإضافة إلى منطقة الكونغو هذه طالبت فرنسا ونالت جزيرة مدغشقر الكبيرة التى سبق أن احتلها القساوسة الفرنسيون لأكثر من مائتى عام .

وكانت قوة البرتغال قد تضاءلت منذ أيام فاسكو داجاما وإنشاء مستعمرتى أنجولا على الساحل الغربى وموزمبيق على الساحل الشرقى . وحاول الرواد من وقت لآخر أن يربطوا بينهما بحزام عريض يمتد عبر

القارة ولكن هذه المحاولات أخفقت . لقد كانت الولايتان عبئا ماليا على مملكة البرتغال الصغيرة وخاصة بعد إلغاء تجارة الرقيق ، ولكنها تمسكت بهما فى عناد .

وأرسلت إيطاليا أيضاً ممثليها إلى مؤتمر برلين ولكن مصالحها كانت كلها فى شمالى أفريقيا ولم تنافس من أجل الأراضى الاستوائية .

وكانت الولايات المتحدة البلد الوحيد الذى حضر المؤتمر دون أن تكون له أطماع إقليمية . وكان ستانلى الذى أصبح مواطناً أمريكيا قبل ذلك بوقت وجيز يمثل البلد الذى اتخذ منه وطنا له .

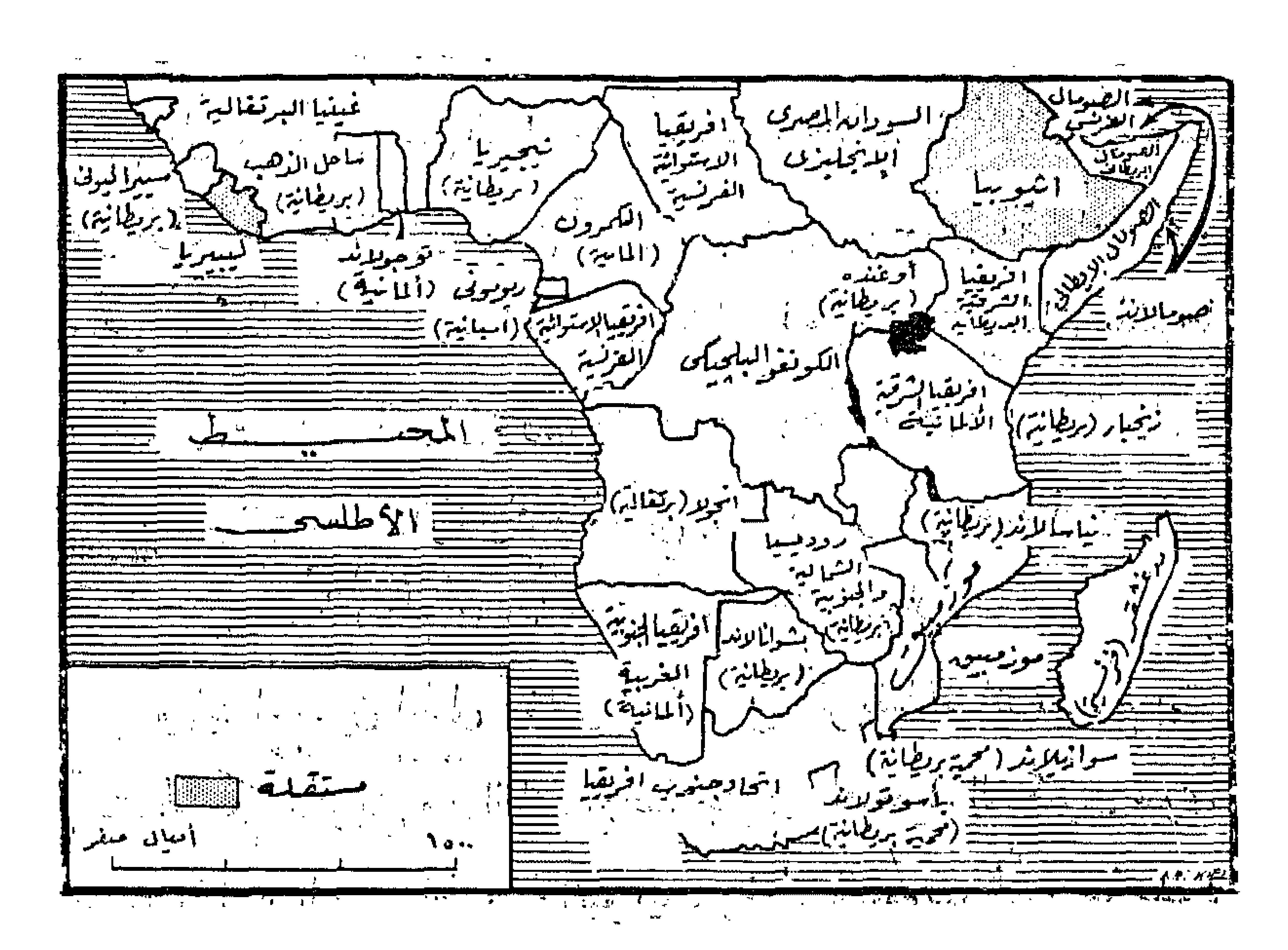
وإذ دنا القرن التاسع عشر من نهايته وجدنا الهولنديين والبريطانيين يتصارعون من أجل السيادة فى جنوب أفريقيا . كان الفلاحون البوير قد احتلوا ترنسفال ودولة أورنج الحرة ، كما انتشر المستوطنون البريطانيون نحو ناتال وبشوانا لاند ، ثم إلى الروديسيتين ونياسالاند . وفى الشمال دخلت أقاليم أوغندة وكينيا التى سبق أن فتحها لفنجستون وغيره من المستكشفين البريطانيين ، فى دائرة النفوذ البريطانى . وكذلك كانت بلاد الأشانتى والمنطقة الواقعة حول النيجر ، وكلها فى غربى القارة ، جزءاً من الممتلكات البريطانية أيضا .

وفى ذلك التوزيع الكبير أصبحت منطقة الكونغو التى جاهد فيها ستانلى وانتصر ، من نصيب ليوبولد ملك بلجيكا ، وكانت صفقة رائعة

لأن هذه البلاد دخلت فى حوزة الملك بوصفها مزرعة ملكية تربو مساحتها ثمانين ضعفا على مساحة البلد الذى كان يحكمه . وكان ليوبولد جشعا لا يعرف الرحمة ، وعين رجالا لإدارة الكونغو وحصل على الأرباح ، ولكنه لم يزر أبداً ممتلكاته الأفريقية ، وبدا كأنما الحلم الجميل الذى ساور ستانلى قد انقلب إلى كابوس ، إذ لم يكن للكثيرين من الموظفين العاملين فى الكونغو أى اهتمام بأفريقيا أو الأفريقيين. لقد اقتصروا على إدارة شئون البلد كى يحققوا الثراء للملك ، والترفيه لأنفسهم وكانوا يسوقون الأهالى الوطنيين بلا رحمة ، فيعذبونهم ويضربونهم حتى يحصلوا منهم على قدر أكبر من العمل حتى أصبحت حالتهم لا تختلف فى سوئها عن الرق الذى مات رجال من أمثال لفنجستون فى سبيل القضاء عليه . وأصيب العالم المتحضر بصدمة حين طالع الروايات التى كان ينشرها رجال الإرساليات والتجار . وفى سنة ١٩١٠ وتحت تأثير الضغط الدولى ، نقل الكونغو من يد الإشراف الملكى إلى الحكومة البلجيكية حيث ظل كذلك إلى صيف عام ١٩٦٠ حين أصبح بلداً مستقلا .

وبابتداء القرن الحالى كان الزحف على أفريقيا قد انتهى . لم يبق تحت الحكم الأفريقى من البلاد الواقعة جنوبى الصحراء الكبرى سوى جمهورية ليبيريا وإمبراطورية أثيوبيا ، ورخطت الشعوب الأوربية حدود ممتلكاتها بالاتفاق فيما بينها ، دون أخذ رأى القبائل التى كانت تقطن

هذه البلاد بالفعل ! وبذلك فإن الزعماء الأفريقيين الذين كانوا أعداء ألداء وجدوا أنفسهم فجأة يخضعون لحكومة واحدة . ولما لم تكن هناك وحدة طبيعية فى هذه الدول فإن الحرب غالبا ما كانت تنشب وكانت القوة المسلحة الأوربية تخمدها بحزم . وأصبحت السيادة للأجناس البيضاء ، وتعين عليها أن تثبت جدارتها بالقوة التى كسبتها .



بعد الزحف

الفصل السادس

الهولنديون فى أفريقيا

منذ أكثر من ثلاثمائة عام بقليل نزل المستوطنون الهولنديون الأولون فى جنوب أفريقيا . لقد تضاءلت قوة البرتغال البحرية بعد كشف الأمريكتين ، وشغل البحارة الهولنديون المركز الأول فى السفر والتجارة ، ومخرت أساطيلهم محيطات العالم . وبعد أن داروا حول الساحل الأفريقى زاروا الموانى فى الهند وواصلوا السير إلى المحيط الهادي . واستولى التجار الهولنديون على جزيرتى التوابل ، وهما : جاوه وسومطرة .. وأقاموا فى فرموزه ، و بدأوا يتاجرون مع الصين واليابان . وحين ساورت حكام اليابان الشكوك من ناحية النفوذ الأجنبى وأغلقوا حدودهم فى وجه الأجانب ، كان الهولنديون الشعب الوحيد الذى سمح له بالاحتفاظ بمحطة تجارية صغيرة فى البلاد .

وفى عام ١٦٤٧ تحطمت السفينة التجارية الهولندية هارلم قرب رأس الرجاء الصالح . وقضى البحارة عاما على شواطىء الخليج المنحنى فى ظلال جبل ثيبل الرائعة قبل التقاطهم . وفى أثناء هذا الوقت نجحوا فى

زراعة الغذاء الكافى لمعاشهم . ولما عادوا إلى هولندة رسموا صورة براقة بحيث قررت شركة الهند الشرقية الهولندية إنشاء محطة فى رأس الرجاء لخدمة سفنها فى أثناء رحلتها الطويلة إلى الشرق الأقصى .

وفى عام ١٦٥٢ بدأت مستعمرة الرأس بصورة صغيرة جداً تحت قيادة جراح يدعى فان ريبك وكان من بحارة هارلم الغارقة وعرف المنطقة . وكانت الأوامر الصادرة إليه أن يبنى حصنا ، ويزرع حديقة فى أفضل أرض ، وأن يحتفظ بعلاقات ودية مع الوطنيين . كانت حياة موحشة وليس فيها إلا القليل من الربح ، إذ كان المستعمرون جميعاً يعملون فى خدمة الشركة ولم يسمح لهم بمزاولة أى عمل خارجى . وسرعان ما اصطدموا بالوطنيين ، وهم البوشمن الصغار الأجسام بقرقعتهم فى الحديث ، والهوتنتوت . كان البوشمن على درجة من البدائية بحيث لم يريدوا أن يتعلموا أداء عمل نافع ، ولذلك انسحبوا نحو الشمال وراء الجبال ولم يعودوا إلى الظهور إلا فى فترات غير منتظمة للإغارة على ماشية الهولنديين والهوتنتوت .

وكان الهوتنتوت أفضل منهم فى التلاؤم مع أساليب الأوربيين ، ولكن بعض الهولنديين اعتبروا أنهم ليسوا موضع ثقة واحتقروهم ، فأشار إليهم فان ريبك فى تقريره إلى الشركة بأنهم « الكلاب النتنة السوداء » وبالرغم من هذا استخدمهم عمالا وخدماً ، ولما لم يكن بالمستعمرة نساء

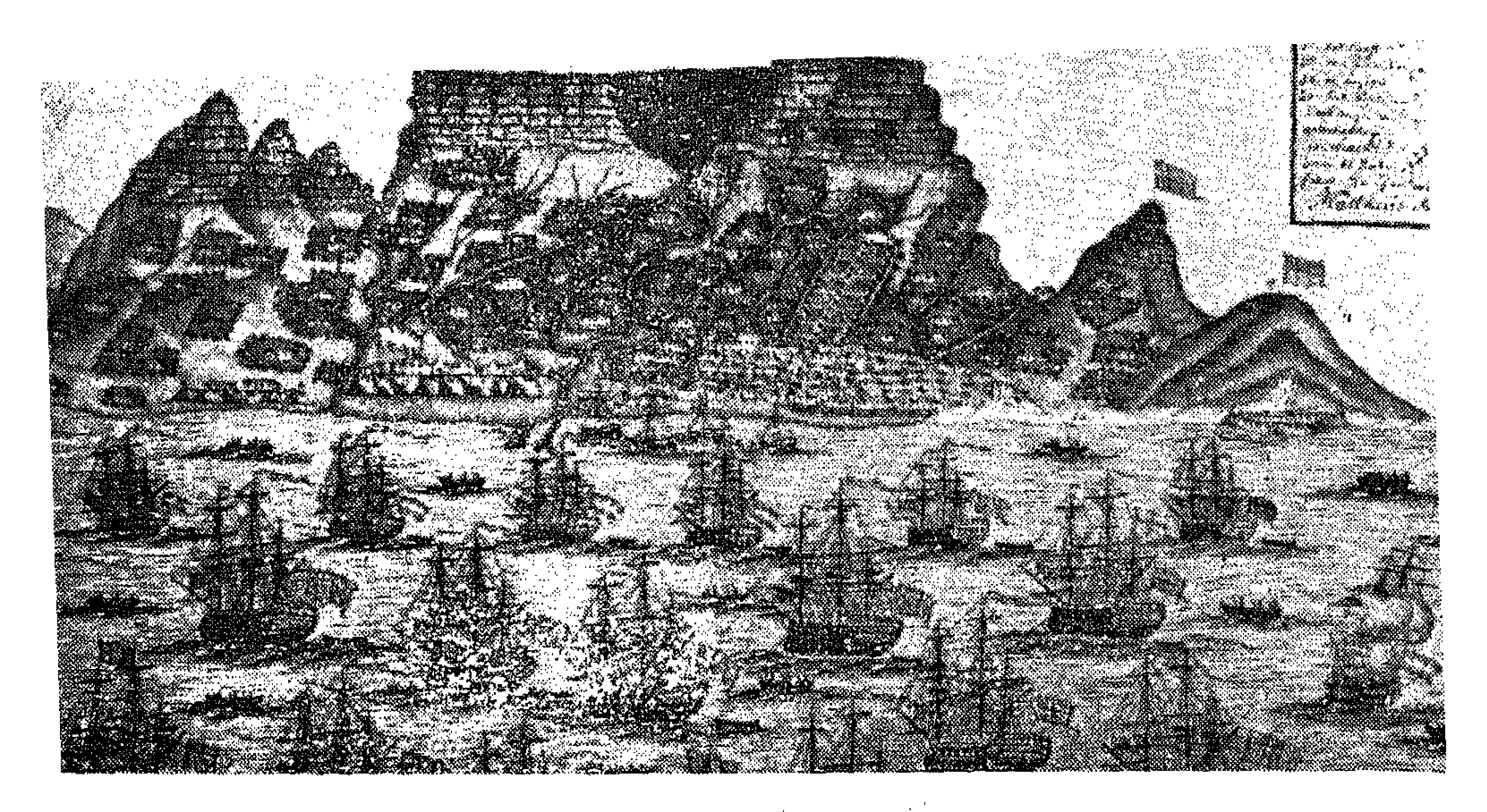
من البيض جاء بعض المستعمرين بنساء من الهوتنتوت إلى بيوتهم . وأطلق على أطفال هـذه الزيجات المختلطة عبارة « الملونون بمنطقة الرأس » ولا تزال التسمية عالقة بهم إلى اليوم . وسرعان ما شكا الهوتنتوت من أن البيض يسرقون أفضل الأراضى والماشية ، ولهذا بنى فان ريبك حصونا يربط بينها سياج قوى من شجر اللوز على طول حدود المستعمرة ومنع أى شخص من المغامرة بالخروج وراءه .

وفى سنة ١٦٥٧ وصل من هولنده تسعة من أفراد الطبقة الوسطى ومعهم زوجاتهم . لم يكن هؤلاء من خدم الشركة ولكنهم أرسلوا بشرط أن يطيعوا قوانينها . وسرعان ما جاء فى إثرهم مستوطنون آخرون من أوربا ، إذ فى ذلك العصر كان الهيجونوت الفرنسيون موضع الاضطهاد الشديد ، وهؤلاء كانوا القوم الذين خرجوا فى عهد الإصلاح الدينى على الكنيسة الكاثوليكية واعتنقوا المذهب البروتستانتى . والآن رفضوا فى حزم أن ينبذوا هذا المذهب ، وهرب الكثيرون منهم حيث لجأوا إلى البلاد البروتستانتية . فتوجه بعضهم إلى أمريكا حيث وجـدوا فى نيوأمستردام و بنسلفانيا وديلاوير حرية العبادة كما أرادوا ، وذهب البعض إلى إنجلترا و براندنبرج فى شمالى ألمانيا ، وأقام غيرهم فى الأراضى الواطئة . ورأت شركة الهند الشرقية الهولندية أن ثمة فرصة للاستفادة من هؤلاء المهاجرين المجدين ، فعرضت على مائتين منهم أن تدفع لهم

نفقات الرحلة إلى الرأس إذا وعدوا بخدمتها لمدة خمس سنوات ، فكانوا كسباً للمستعمرة بسبب معرفتهم بزراعة الكروم ومهارتهم فى الزراعة . وكان الأطفال الهيجونوت والهولنديون يذهبون إلى نفس المدارس وسرعان ما تعلموا أن يفهم بعضهم بعضاً . وحرم استعمال اللغة الفرنسية ولذلك كانوا يتكلمون بالهولندية . و بالتدريج شقت بعض الألفاظ الهولندية طريقها إلى لغة الحديث وكانت النتيجة مزيجاً من اللغتين أطلق عليه اسم « الأفريقانية » Afrikaans ، والذى أصبح فيما بعد اللغة التى يستخدمها الهولنديون فى جنوب أفريقيا ، كما هى الحال اليوم .

ولاقى المستعمرون المتاعب والمشاق ، فكانت محصولاتهم تدمر بسبب الجفاف والجراد ، وكانت تنقصهم إلى حد كبير جدا الأيدى العاملة ، فاستقدموا العبيد من الهند وأفريقيا الغربية للعمل فى الحقول ومزارع الكروم لأن الشركة كانت تطالب بمورد دائم من اللحم البقرى والقمح والنبيذ .

و بدأ المبشرون الإنجليز والإسكنديناديون والألمان والفرنسيون تحويل العبيد إلى المسيحية ، وفتحوا المدارس للأطفال السود والملونين وأعلنوا أن الناس جميعاً متساوون أمام الله . ولم يشترك الأفريكانو إلا قليلا فى هذا الجهد التبشيرى لأنهم لم يرغبوا فى تحسين مركز الوطنيين وكانوا



مدينة الرأس سنه ١٧٥٢

يرون أنه إذا تعلم السود واعتنقوا المسيحية فلن يستعبدوا بعد ذلك وتختفى الأيدى العاملة الرخيصة . كان رؤساء الكنيسة المصلحة الهولندية يعتقدون اعتقاداً راسخاً لايزالون يتمسكون به ، أن الأجناس البيضاء أرقى مرتبة ، وأن من الطبيعى والحق أن تخدمها الأجناس الأخرى .

وفى سنة ١٧٠٠ كانت مدينة الرأس وهى عاصمة المستعمرة تشبه الكثير من المدن الهولندية ، ففيها قلعة وكنيسة خشبية ومخزن كبير للمحصولات .

فى ذلك الوقت لم يعتبر البيض المولودون فى جنوب أفريقيا أنهم هولنديون أو فرنسيون ، وإنما نظروا إلى أنفسهم على أنهم أفريكانو فقط . وكان

الفلاحون الأقوياء يعرفون باسم البوير . ومن صفوف رجال الطبقة الوسطى والبوير تكونت جماعات الكوماندوز ، أعنى الفدائيين ، وهى وحدات مقاتلة سريعة الحركة لحراسة الحدود وحماية الماشية . وهذا هو أصل كلمة كوماندو التى أطلقت فى الحرب العالمية الثانية على جماعات على قدر عال من التدريب للقيام بشن الغارات .

وبانتصاف القرن الثامن عشر كانت السيادة قد انتقلت من أيدى الهولنديين إلى الإنجليز ، وفقدت شركة الهند الشرقية الهولندية الكثير من تجارتها . وأشرفت المستعمرة على الإفلاس وتعب الأفريكانو مما كان يحيط بهم من القواعد البالية التى وضعتها الشركة والتى كانت تقيد كل شىء يعملونه . فأرادوا الانتقال إلى أراض جديدة وبيع بضائعهم حيثما يستطيعون الحصول على أفضل الأثمان .

وبدأ المستوطنون يسبرون غور البلاد الواقعة وراء الحدود ، وكلما تقدموا التقوا بقبائل البانتو التى كانت آخذة فى الانتشار فى اتجاه الجنوب وتاجروا معها . وأطلق الهولنديون على هؤلاء الوطنيين كلمة « الكفير » ومعناها بالعربية « غير المؤمنين » . ولذلك فالاسم لا ينطبق حقيقة على البانتو أكثر مما تنطبق كلمة البوير على هؤلاء القوم . ولكنها لصقت بهم . وفى سنة ١٧٧٩ نشبت حرب الكفير الأولى فانتصر الكوماندوز البوير وأسسوا جمهورية مستقلة عن مستعمرة الرأس ، يمتد حدها الشمالى بطول نهرى فش وأورنج .



مدينة الرأس سنة ١٩٦٠

وبالرغم من رغبة البوير فى الحرية ظلت لمستعمرة الرأس صلات بهولندة . وبابتداء القرن التاسع عشر كانت أوربا تشتعل فيها نيران الحرب والثورة ، فقد أعدم ملك فرنسا وملكتها على المقصلة ، وتقدمت جيوش نابليون المنتصرة نحو الحدود الروسية وتم اجتياح هولندة ، ولم يقف أمام قوة فرنسا دون أن يصاب بهزيمة سوى بريطانيا .

وكان نابليون يعد الخطط لغزو مصر ومد نطاق إمبراطوريته إلى الشرق الأقصى ، وكان من الحيوى بالنسبة إلى بريطانيا أن تحافظ على حرية

طرقها التجارية إلى الهند . ولهذا ، ومن أجل الحيلولة دون وقوع مستعمرة الرأس فى أيدى فرنسا ، أبحرت السفن الحربية الإنجليزية فى عام ١٧٩٥ إلى ثغر مدينة الرأس وأنزلت قوات سرعان ما تغلبت على مقاومة الأفريكانو الذين كان تسليحهم ضعيفا . وخلال السنوات العشرين التالية عاشت المستعمرة كرقعة الشطرنج ، وتعددت جنسية الدول التى سيطرت عليها . فقد أعادها البريطانيون لفترة وجيزة ، ولكنهم عادوا إلى الاستيلاء عليها فى عام ١٨٠٦ بسبب ما كانوا يشعرون به من القلق من ناحية نابليون . وهزم نابليون فى معركة ليبزج عام ١٨١٤ على أيدى جيوش روسيا وبروسيا والنمسا المتحالفة .. وكانت بريطانيا منتصرة فى البحار منذ زمن طويل وبذلك تحطمت قوة فرنسا . ونفى نابليون إلى جزيرة إلبا وحل السلام فى أوربا التى مزقتها الحروب .. وبمقتضى معاهدة الصلح التى أعقبت ذلك تم التنازل رسميا عن مستعمرة الرأس لبريطانيا .

وبعد فرار نابليون من إلبا وفترة الأيام المائة المثيرة ، هزم أخيراً فى موقعة ووترلو . وفى هذه المرة صمم المنتصرون على نفيه بصفة حاسمة فسجن فى جزيرة سانت هيلانة الصغيرة الواقعة على مسافة من ساحل أفريقيا الغربى وقام أسطول من السفن الحربية البريطانية — مركزه مدينة الرأس — بأعمال الدورية فى المحيط الأطلسى الجنوبى لمنع أية محاولات من جانب أنصار بونابرت المخلصين من أجل إنقاذه .

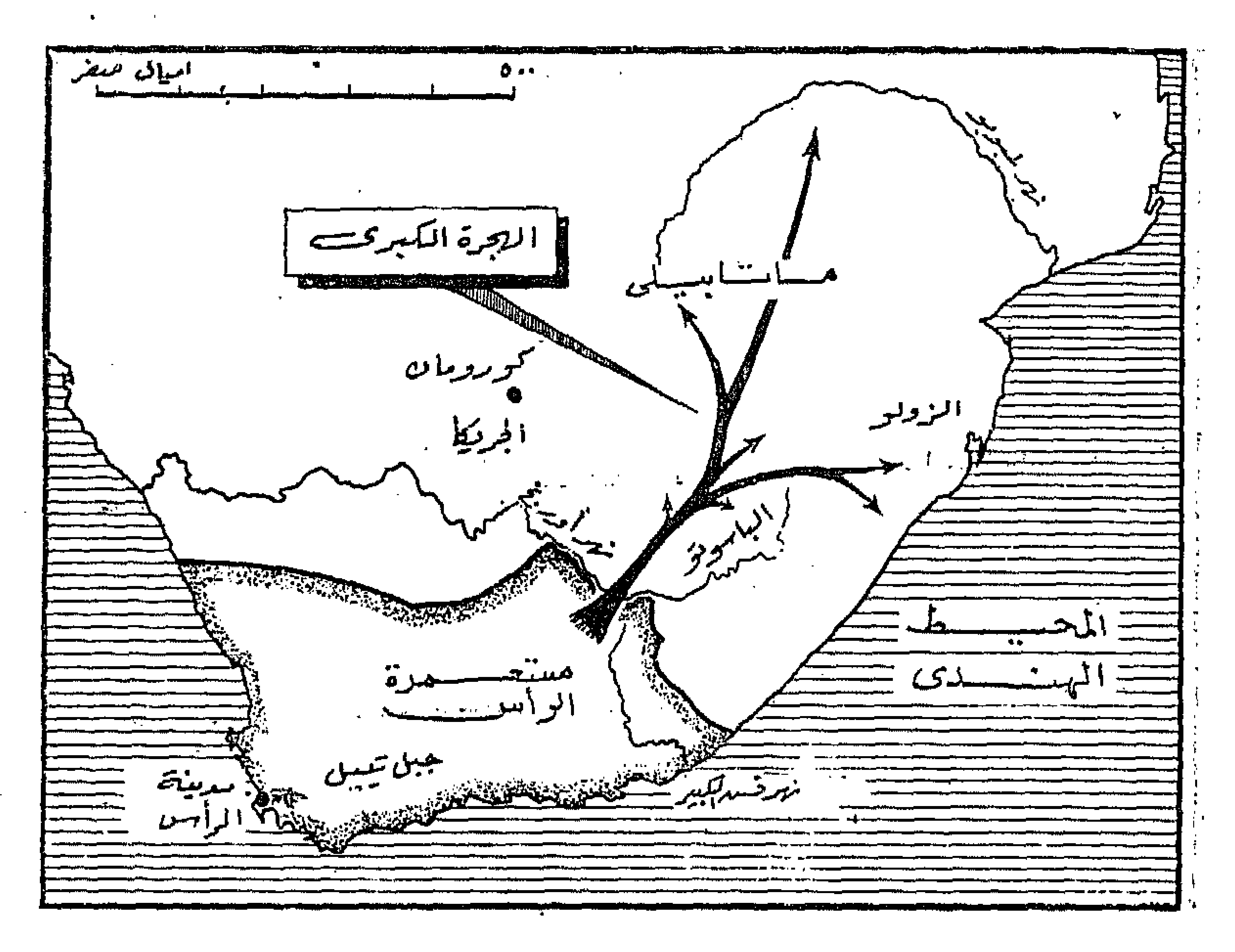
وأقام الحاكم البريطانى فى قلعة مدينة الرأس ، ووصل خمسة آلاف من المستوطنين البريطانيين وأقاموا بالجهة وأصبحت الإنجليزية اللغة الرسمية ، وتلقت المستعمرة أوامرها من لندن . لقد كان البوير من قبل يسخطون على حكم شركة الهند الشرقية ، ولكنهم أصبحوا الآن أشد معارضة لنظام الحكم الجديد .

كان هذا هو الوقت الذى أشاع فيه الزولو الدمار فى الأقاليم الشرقية وراحوا يطردون الكل أمامهم ، وانشق مزيليكازى زعيم الماتابيلى ، أى شعب الدروع الطويلة ، على قبائل الزولو الأخرى . وأنشأ الزعيم مملكة شمالى مستعمرة الرأس فى المنطقة التى أصبحت تعرف باسم بتشوانا لاند . ومزيليكازى هو الزعيم الذى دعا المبشر الاسكتلندى روبرت موفات إلى قريته .

هذه الحروب التى شنها الزولو عطلت زمنا توسع البوير خارج مستعمرتهم . ولما هدأ القتال بدأت حركة جديدة ، أعظم قوة وتصميما من الحركة القديمة . لقد صمم البوير على أن يطرحوا عن كاهلهم الحكم البريطانى وأن يبدأوا حياة جديدة فى الأراضى الفضاء الواسعة التى تقع شمالى مستعمرة الرأس . هذه هى الهجرة الكبرى المشهورة فى تاريخ البوير ، وأطلق على الأسرات التى اشتركت فيها اسم Voortrekkers .

وفى الوقت نفسه ، وبنفس روح الاستقلال التى تميز بها الرواد الأمريكيون الذين كانوا يتجهون غربا فى عرباتهم المغطاة ، خرج البوير إلى البرية . كانوا يريدون المزارع لأنفسهم ولأبنائهم ، وكانوا يمتازون بالصلابة والشجاعة والبساطة ، ومتعودين على مواجهة المشاق . وساقوا عرباتهم التى تجرها الثيران وبضجيجها العالى فوق جبال دراكنزبرج شمالى مستعمرة الرأس وعبروا الفلد إلى بلاد البانتو . لم يكن هؤلاء القوم يبحثون عن الثروة والقوة ، وإنما كان يعنيهم أن يعيشوا وفقا للأفكار التى اعتنقوها . ولما كانوا يتبعون التعاليم البيوريتانية المتزمتة التى وضعتها كنيستهم ويضعون القوانين التى يسيرون عليها فإنهم فقدوا الاتصال بأساليب الحياة الأوربية كما شعروا بالفخر فى كونهم أفريكانو . ووجد الفدائيون البوير أن فى استطاعتهم أن يثبتوا أمام هجوم البانتو ، وأصبحوا يشتغلون بالصيد والتجارة فضلا عن الزراعة . كانت هذه حياة يتعين فيها على النساء والأطفال أن يكونوا فى بسالة الرجال وسعة حيلتهم . ومع المهاجرين توجه صبى فى العاشرة من عمره يدعى بول كروجر الذى شب فأصبح من زعماء البوير البارزين. كانت طفولته مليئة بالمغامرة ، وكان للهجرة الكبرى أثرها فى تشكيل أخلاقه . إنه لم يفقد أبداً إيمانه الراسخ وكبرياءه فى الإنجازات التى حققها قومه .

كان جنوب أفريقيا غارقا دائماً فى الحروب . فكان البريطانيون



خريطة الهجرة الكبرى

يحاربون البوير ، وكان البانتو يحاربون الجريكا وكانت القبائل تتقاتل فيما بينها . والجريكا خليط من الهوتنتوت والبانتو . والأوربيون انتقلوا من مستعمرة الرأس وأقاموا لأنفسهم مملكة اختاروا لها رئيسا وكانوا مصدر تهديد لجيرانهم .

وفي سنة ١٨٥٢ أي بعد نزول المستعمرين الأول عند الرأس بمائتي عام ، اعترف البريطانيون ، وعن غير رضا نوعا ، باستقلال جمهوريتي ترنسفال ودولة أورنج الحرة اللتين أنشأهما البوير .

وفجأة فى سنة ١٨٦٩ بدا المستقبل فى جنوب أفريقيا لامعاً ، إذ حلت مكان الصراع المتوقع الذى لاينتهى من أجل مجرد البقاء صورة الثراء الذى لا حدود له . ففى الفلد القاحل الملىء بالأتربة ببلاد الجريكا التقط فلاح هولندى ماسة فأخذها إلى مدينة الرأس حيث باعها بألفين وخمسمائة دولار . وسرعان ما استكشف الفلاح نفسه بعد ذلك ماسة أخرى أنقى من الأولى وأشد بريقا ، وكانت من الكبر والجمال بحيث باعها بمبلغ ١٢٥,٠٠٠ دولار ، واشتهر باسم « نجم جنوب أفريقيا » .

وانتشر النبأ بسرعة وبدأ الزحف على الألماس ، وتدفق الباحثون عنه من جميع أطراف الأرض وراحوا يدعون لأنفسهم حقوقاً . فوفد الباحثون من كاليفورنيا ، والمعدنون من أستراليا ، والمضاربون من كل دولة أوربية . ومن بين الآخرين صبى إنجليزى فى الثامنة عشرة من عمره يدعى سيسيل رودس ، جاء يجرب حظه . وخلال الأعوام الثلاثين التالية أصبحت حياة جنوب أفريقيا مرتبطة بحياة رودس .

واستولى البوير والبريطانيون على حقول الألماس فى وجه المقاومة البالغة من جانب الجريكا ، وأطلقوا على المدينة اسم كمبرلى نسبة إلى لورد كمبرلى وزير المستعمرات فى ذلك الحين . وأحس البوير فى جمهوريتى ترنسفال ودولة أورنج الحرة المناضلتين بالغيرة والغضب .

وكان سلوك الناس فى حقول الألماس عنيفاً لا يتقيد بأى قانون . فكان

المقامرون والباحثون عن الألماس يسرقون ويقتلون بعضهم بعضاً، وازدحم المرج بالأكواخ والعشش بسقوفها الحديدية المعوجة، بصورة تسودها الفوضى . وامتلأت الأرض بالحفر وتراكمت فيها الأتربة المستخرجة من الحفر . وظل الحفر يجرى فى الحفرة الكبيرة الشهيرة بكمبرلى حتى وصل عمقها الى ٣٦٠٠ قدم وعرضها إلى ميل . وفى النهاية أخرجت مياه الفيضان المعدنين ، ولكنهم كانوا قد استخرجوا ما زنته ثلاثة أطنان من الألماس، وانتقلوا للكشف عن حقول أخرى.

كان الفلاحون الهولنديون الأتقياء والحمقى ممن أقاموا حول كمبرلى يشعرون بالخجل والعار بسبب هذا الجشع وهذه الأحداث التى تجرى . فباعوا مزارعهم وبعضها بربح خيالى وأخذوا أسراتهم إلى أرض جديدة . وترك الألوف من رجال قبائل البانتو قراهم وقطعانهم للعمل فى المناجم .

وفى سنة ١٨٨٨ ارتفعت آمال البوير مرة ثانية بسبب استكشاف الذهب فى إقليم الراند بترنسفال . كانت العروق غنية وعميقة، وسرعان ما أصبحت جوهانسبرج مدينة الذهب تنافس كمبرلى مدينة الألماس . وبعد ذلك بسنوات قلائل أصبح نصف ذهب العالم يستخرج من ترنسفال.

ولـكن المنقبين الذين وجدوا الذهب وأنشأوا جوهانسبرج كانوا أصلا من الأجانب ممن احتفظوا بالثروة فى أيديهم ، وتميزت العلاقة بينهم وبين البوير بشعور من المرارة . وكان زعماء البوير مصممين على أن تكون فى أيديهم كل القوة السياسية ، وأطلقوا على الأجانب كلمة « الغرباء » Uitlanders ومنحوهم حقوقا قليلة .

الفصل السابع

البوير والبريطانيون والبانتو

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبعد الهجرة الكبرى واكتشاف الألماس ، سيطر على المسرح العاصف فى جنوب أفريقيا ثلاثة رجال يختلفون من حيث الجنس والعقيدة واللون ، وكان كل منهم يناصر بطريقته الخاصة قضية قومه . هؤلاء القادة هم : پول كروجر من الرعيل الذى اشترك فى الهجرة الكبرى ، وسيسيل رودس من بناة الإمبراطورية البريطانية ، ولوبنجولا ملك قبيلة ماتابيلى العظيم .

أما الزعيم الأول ، پول كروجر ، فتربى فى ربوع المرج الفضاء الواسعة ، وكان قوياً جداً ، يحذق استخدام الخيل والثيران ، ويجيد إطلاق النار . وحصل على قدر يسير من التعليم المدرسى ولكنه أتقن العقيدة البيوريتانية التى اعتنقتها الكنيسة المصلحة الهولندية . وامتاز بخشونة الطبع وبساطة الذوق . وقامت زعامته الخشنة على إيمان مطلق بتفوق البوير ، وعلى تصميم على الإبقاء على أسلوبهم فى الحياة مهما كان الثمن .

وكان الزعيم الثانى سيسيل رودس بريطانياً متحمساً . كان ابناً لأحد

رجال الدين الريفيين ، ومن أسرة تضم اثنى عشر طفلا . وحين كان غلاماً كانت صحته ضعيفة بحيث ظن الطبيب أنه لن يعيش إذا بقى فى إنجلترا ، ولهذا أرسل إلى جنوب أفريقيا وهو فى السادسة عشرة من عمره .

وسرعان ما ملأ نفسه ذلك الطموح الوطنى الذى قدر له أن يسيطر على حياته والذى أثر تأثيراً عميقا فى أفريقيا . كان رودس على اقتناع مطلق بأن خير فرصة تتاح أمام شعب كى ينعم بالرخاء والسلام إنما تكون بالاندراج فى دائرة الإمبراطورية البريطانية ، فكرس نفسه لمد نطاق هذه الحدود . وكان ذا عبقرية فى كسب المال وكان فى حاجة إلى قدر كبير منه ، لا لنفسه ، وإنما لمساندة مشروعاته الجليلة .

وحين سمع رودس بكشوف الألماس توجه إلى كمبرلى حيث أثبت لنفسه حقاً ، وأدار محلا لعمل « الجيلاتى » ولم يمض عام حتى كان كسبه الأسبوعى ٥٠٠ دولار . وكانت تحدوه دائماً الرغبة فى الالتحاق بالجامعة ، وأصبح فى وسعه الآن أن يشبع هذه الرغبة ، فعاد إلى إنجلترا ودخل جامعة أكسفورد . وكان يقضى إجازته فى كمبرلى وحصل على الدرجة العلمية فى الرابعة والعشرين من سنه واشترى عدداً من مناجم الألماس . وانتخب عضواً فى برلمان مستعمرة الرأس ، وصار رجلا ثرياً . كان هذا كله مما يدعو إلى الرضا ولكن لم تكن فيه الكفاية . وكانت مجموعة الألماس التى تنافسه فى كمبرلى ملكا لرجل أعمال يهودى اتصف بالبراعة وحقق

نجاحاً كبيراً ومن حى « ايست اند » بلندن . وشن هذان القطبان فى صناعة الألماس حرباً مالية انتصر فيها رودس . ولم يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر حتى كان يملك كل منجم فى كمبرلى و بالتالى معظم الألماس بالعالم . وانتخب رئيسا لوزراء مستعمرة الرأس وأصبح دخله السنوى يربو على خمسة ملايين دولار .

أما الزعيم الثالث لو بنجولا فكان ملكا قويا وآخر الزعماء المحاربين فى قبيلة الماتابيلى . وهو ابن لميزيليكازى من زوجة شابة ، وحصل على العرش بفضل متانة الخلق وقوة السلاح ، وحافظ عليه بفضل مزيج من الحنكة السياسية والسحر . إن القبيلة لم تنس مزيليكازى الذى ظل رمزاً لقوة الماتابيلى ، وقد دفنوه وهو جالس منتصبا على عرش فى كهف فى أعالى تلال ماتوبو حيث يشرف على بولاوايو ، عاصمة الماتابيلى . وكانت القبيلة تعرف أن فى استطاعته من هذا الموقع الممتاز أن يحرسهم فى أوقات الحرب والسلام .

واتبع لو بنجولا ديانة أسلافه الوثنية ، وكان البيض الذين زاروا قريته الملكية يتأثرون بمظهره الملكى وحسن إدراكه وإن راعتهم قسوته. وكان طوله يتجاوز ست أقدام ، فكان صورة جليلة تثير الخيال . وكان جسده النحاسى اللون عاريا إلا من فوطة مصنوعة من ذيول القردة ، وشريط رفيع من الجلد حول معدته ، وعقود من الخرز الأزرق حول

عنقه . وكان يحكم بالتشاور مع الزعماء والرؤساء ، ولكن كلمته الأخيرة كانت قانونا ، وكان يقتل على الفور كل من أغضبه . وكان يقيم الولائم الملوكية ، وحيثما سار كان رجال القبيلة يرتمون على الأرض أمامه منشدين أغانى المديح له . هذه كانت عادات ملك الماتابيلى وأساليبه .

لم يعرف لوبنجولا القراءة ولا الكتابة ، ولكنه رأى اتجاه العصر ، لقد راقب الأمور بعين وهم يعدون على مملكته ، وعرف أن أيام سيادة الماتابيلى فى الطريق إلى الزوال . ولما لم يكن فى إمكانه طرد الغزاة الأجانب حاول الاتفاق معهم . وكان على معرفة بالبيض ؛ ذلك أن والده هو الذى سبق أن شجع روبرت موفات وغيره من رجال البعثات التبشيرية على الإقامة فى يشوانالاند وهى بلاد الماتابيلى . ولم يبد الأب أو الابن أى اهتمام بالمسيحية ، ولكنهما كانا يشعران بالاحترام نحو عظمة الملكة فيكتوريا البيضاء العظيمة . ويدل سجل حكم لوبنجولا على أمانة وإخلاص كبيرين . ففى جميع معاملاته مع البيض كان يحافظ على كلمته ، ولم يخن أبداً أولئك الذين وثقوا به .

وكان « طريق المبشرين » يمر داخل مملكة لوبنجولا إلى الأراضى الواقعة فى الشمال والتى كانت المعلومات عنها قليلة والتى اشتهرت بغناها وقلة عدد سكانها . هذه هى الأراضى التى كان رودس يبغى الاستيلاء عليها لحساب بريطانيا ولم يكن من طريق للوصول إليها إلا بالدوران حول



لوبنجولا آخر ملوك الأفريقيين العظماء

بتشوانالاند بسبب وجود صحراء كلهارى الخالية من الماء فى الغرب والممتلكات الهولندية والبرتغالية فى الشرق . وإلى الشمال الشرقى من بلاد الماتابيلى كانت تعيش قبائل ماشونا ، الأضعف منها شأنا والأقل من حيث القدرة الحربية ، إذ تحطمت روحها بعد الهزائم التى منيت بها فى حروب الزولو .

وكانت هناك إشاعات تتردد عن وجود الذهب فى ماشونالاند ، وأدرك رودس أنه بمجرد إخضاع الماتابيلى فلا يحتمل أن يسبب له رجال الماشونا أية متاعب .

كان على كل من يدخل بلاد الماتابيلى أن يحصل على إذن شخصى من لوبنجولا . كان الزحف على الأراضى الأفريقية فى ذروته وضايقه طلاب الامتيازات من شعوب كثيرة ، فدعاهم لوبنجولا إلى قصره الملكى فى بولاوايو وأطال عليهم حيث عرضوا مشروعاتهم ، وكان أحياناً يبقيهم فى الانتظار أسابيع . وأرسل رودس بعض من يثق بهم من الإنجليز إلى بلاط لوبنجولا لمراقبة الملك والعمل على ألا يسبق البريطانيين أحد . وفى سنة ١٨٨٨ وقع رودس وشريكه « رد » معاهدة مع لوبنجولا حصل بمقتضاها على الحق الوحيد فى التنقيب عن المعادن فى ماتابيلاند ، ومقابل هذا وعدهم أن يقدم إلى الملك مائة جنيه شهريا ، وعدة آلاف من البنادق ، وبعض الذخيرة ، وزورقا بخاريا يجرى على نهر زمبيزى . وقرئت الشروط وأعيدت قراءتها قبل أن يتم الملك الصفقة بإشارة حمقاء منه . لم تكن لديه فكرة عما يتطلبه التعدين الحديث من الأعداد الكبيرة من الرجال والمقادير الضخمة من الآلات . ولهذا شعر بالغضب والحيرة المذهلة حين راحت طوابير العربات تعبر الحدود ، وبدأ المستوطنون يشقون الطرق ويبنون المدن والحصون . حين وافق على الاتفاقية لم تكن لديه أية نية

لبيع مملكته ، وكان يعلن دائماً أنه إنما منح « ترخيصاً بالحفر » . ولهذا أرسل اثنين من زعماء الماتابيلى ليسألا الملكة ڤيكتوريا عما إذا كان قد اتبع الإجراء السليم . واستقبلتهما الملكة وعادا يحملان صورة فوتوغرافية لها تحمل توقيعها ، ولكن نظراً لأن الوزراء البريطانيين لم يكن قد استقر رأيهم على السياسة التى تتبع إزاء بلاد الماتابيلى، لهذا كانت المشورة التى أبديت للزعيمين طابعها التناقض .

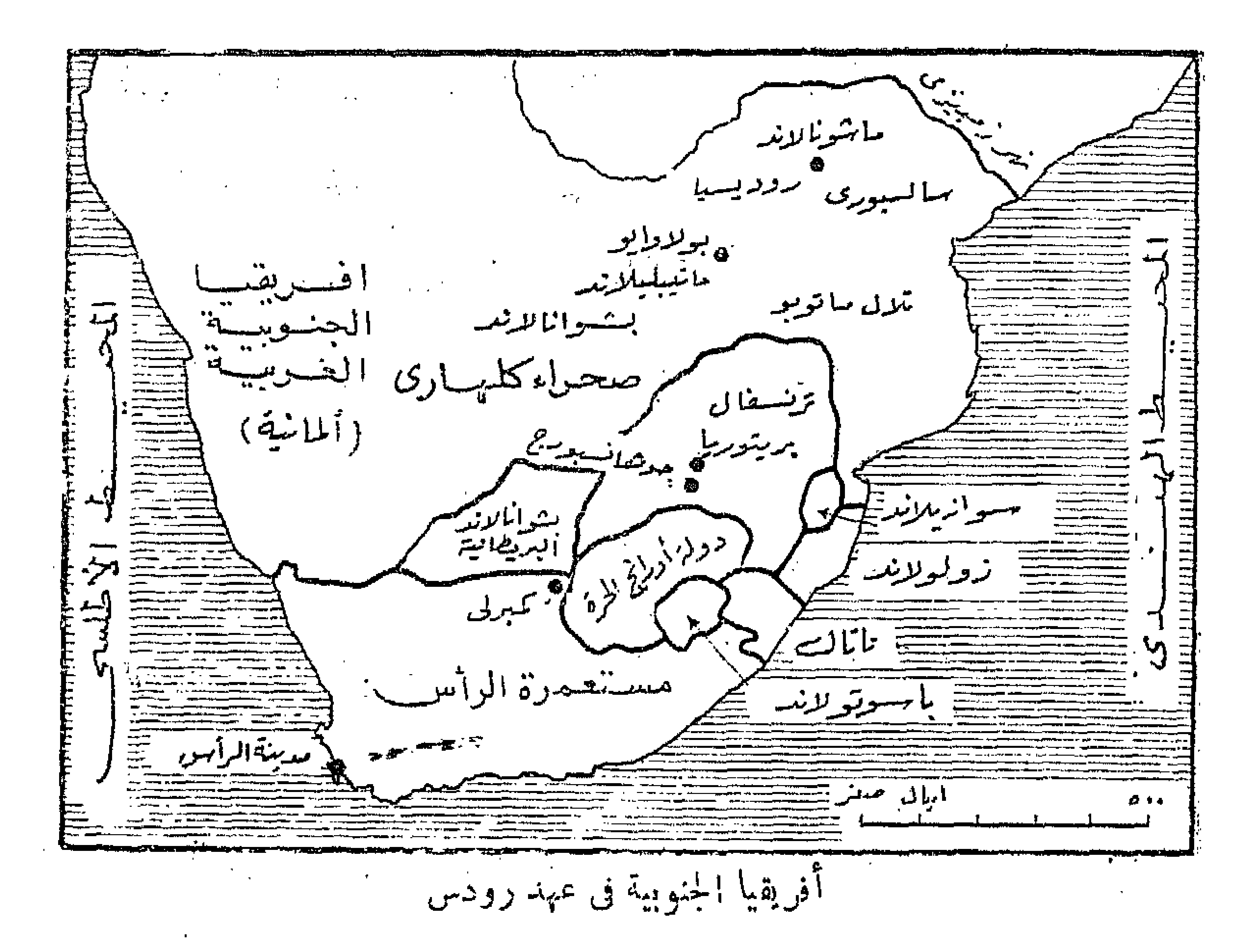
كان رودس الشخص الوحيد الذى يعرف تماماً مايريد؛ فأسس شركة لإدارة أية أرض يسمح له الزعماء الأفر يقيون بالحصول عليها . وحين نال حقوق البحث عن المعادن من لو بنجولا انتقل إلى هناك وبدأ العمل. ولكى يهدىء من روع لو بنجولا بعث اليه بصديقه الدكتور جيمسون . وكان شخصية عظيمة ويتصف بالجرأة والنشاط والجاذبية ، ولكنه كان مندفعا ويفتقر إلى سداد الرأى . كان طبيباً ودبلوماسياً فعالج لو بنجولا من النقرس وأحبه الملك . وراقب المحاربون من أبناء الماتابيلى بشعور من الخوف والغضب البيض وهم يقيمون ويحصنون معسكرات التعدين فى ماشونالاند المجاورة . وانه لمما يبعث على الإعجاب أن لو بنجولا استطاع أن يكبح جماح المحاربين ، إذ كانوا شديدى التحمس للقتال ، ولكنهم أطاعوا زعيمهم ولم يُصب فرد أبيض واحد بسوء .

وأخيراً ، وبعد ثلاث سنوات من توقيع المعاهدة ، نشب نزاع بين

الماتابيلي والماشونا الذين اتهمهم لو بنجولا بسرقة ماشيته . فأرسل محار بيه لاستعادة القطعان الضائعة ، ورأى البريطانيون فرصة للقضاء على تهديدات الماتابيلي مرة واحدة ونهائياً . وتوجه المستوطنون البريطانيون تحت قيادة جيمسون الذي كان يعمل آنذاك في خدمة الشركة ، لمساعدة الماشونا . ووجد محار بو لو بنجولا أنفسهم أمام رجال مسلحين بالبنادق الحديثة والمدافع الرشاشة ، ورأوا رماحهم لا نفع فيها ، ولم يكونوا قد تعلموا كيفية استخدام الأسلحة النارية القلائل التي ملكوها ، ولهذا قتلت منهم أعدادا كبيرة .

شعر لو بنجولا أنه كان ضحية الخداع والخيانة ، فغادر بولاوايو ، مصطحبا زوجاته و بقية محار بيه وأمر بإحراق العاصمة . ولكنه حافظ على عهده ، ولهذا فإن الأوربيين اللذين كانا قد بقيا معه لإرشاده لم يتعرضا لأى أذى . وحين دخل جيمسون المكان مع الصفوف « الطوابير » البريطانية الزاحفة في المقدمة كان هذان هما الوحيدين في القرية المحترقة .

كان لو بنجولا مريضا جداً ونفسه مليئة باليأس الشديد . كان يدرك أنه قد غلب على أمره ، وحاول بدون نجاح أن يتصل بالقائد البريطاني . وهنا تقهقر وسط سيول الأمطار وفقد ثيرانه وممتلكاته التي غرقت في الأنهار التي فاضت مياهها . وكان مصمما ألا يقع في الأسر . وأرسلت القوات للعثور عليه ولكنه مات قبل وصولها ، ودفن بغير تلك الروعة التي



أفريقيا الجنوبية فى عهد رودس

أحاطت بجنازة أبيه فى تلال ماتوبو؛ إذ لف أتباعه الجثة المدلاة الضخمة فى جلود البقر ودفنوها فى الغابة والحزن يخيم على رءوسهم . ولم يقم من بعده زعيم آخر مثله ليخلفه .

وبالرغم من القضاء على خطر الهجوم من جانب الماتابيلى كان لا يزال على الشركة أن تدخل فى صراع قاس للوصول إلى أغراضها المرسومة . كان المركز الرئيسى فى سالسبورى منعزلا جداً ، وكان لابد لجميع المؤن الواردة من العالم الخارجى أن تحملها العربات التى تجرها الثيران مسافة ألف وخمسمائة ميل من مدينة الرأس . ولم يكن الذهب فى ماشونالاند

بالكثرة كما أمل المستوطنون ، وكانوا فى أشد حالات العوز . و بالرغم من ذلك كله ، فحين زار رودس إنجلترا استقبل بحماسة شديدة وسميت أراضى الشركة « روديسيا » تكريما له .

وزادت المنافسة بين البوير والبريطانيين ؛ فقد كانت ترنسفال غنية بالذهب ولكن كروجر الذى أصبح رئيسا للجمهورية لم يكن راضيا . كان البوير يحتلون جميع مناصب الحكومة و يتولون إدارة الدولة ، ولكن مازالت الثروة فى أيدى الأجانب من البريطانيين والألمان والفرنسيين الذين سبق مجيئهم حين بدأ الزحف وراء الذهب . وأصدر كروجر القوانين التى تمنع هؤلاء الأجانب من الحصول على أى نصيب فى الحكم . ولما كانوا أغنياء فقد كانوا يدفعون معظم الضرائب ، ولكن البوير عاملوهم على أنهم غرباء .

وكانت هناك متاعب أخرى أيضا ؛ إذ فى ذلك الوقت كان رجال البانتو ممن يعملون فى المناجم قد عادوا إلى قراهم وقد امتلأت رءوسهم بأفكار جديدة . لقد رأوا كيف يعيش الأوربيون فى رغد . وكانت أجور البانتو من الضآلة ، والأحوال التى يعيشون فيها بالمناجم من الفظاعة ، بحيث لم يجدوا سبباً يدعوهم إلى العمل إطلاقا . ومضت فترة شح فيها العمل .

وكان البريطانيون يحسدون ذهب الترنسفال ولكنهم لم يوافقوا على

معاملة البوير للغرباء والبانتو . وكان البوير فى شدة الغضب لأن حكومة الرأس استولت على شقة من الأرض كانت على طول الساحل الشرقى قرب ناتال و بذلك حرمت ترنسفال من مينائها الوحيد . واشتد شعور العداء بين الجانبين وراحا يتسلحان . وكان رودس قد انتخب رئيساً للوزراء فى مدينة الرأس ، وكان أعظم مطمع له أن يوحد الأراضى الهولندية والبريطانية تحت سيادة بريطانيا وهذا ما كان كروجر يعلمه .

واتصل رودس وجيمسون بجماعة من الغرباء المستائين فى ترنسفال ممن أطلقوا على أنفسهم اسم المصلحين وكانوا يعارضون حكم البوير . واتفق على أن يدبر المصلحون ثورة ويطلبوا المساعدة من البريطانيين ، وبهذا يبدو دخول قوة بريطانية إلى ترنسفال كأنه فرقة إنقاذ للقضاء على الظلم . و بعد ذلك ، و بمساعدة البريطانيين ، يقلب المصلحون حكومة كروجر وتضطر الجمهوريتان الهولنديتان إلى الاتحاد تحت الحكم البريطانى . ودبرت هذه الخطة فى جو من السرية التامة .

كان المصلحون متحمسين فى مبدأ الأمر ولكن خانتهم الشجاعة حين حل الوقت للقيام بالثورة . وكانت الأنباء عن مشروع رودس قد وصلت سراً إلى حكومة لندن التى لم تحرم الغزو ولكنها لم تستطع تأييده علناً . وحاول رودس والمصلحون النكوص على أعقابهم ولكن بعد فوات الأوان . إن جيمسون لم يكن أبداً ليحتمل الإبطاء ، وظل أياماً

فى انتظار التعليمات للهجوم ، ولم يصله أبداً الأمر بإلغاء الغزو . وكانت أسلاك التليفون قد قطعت للحيلولة دون تسرب الأنباء عن الغارة ، وفى الوقت الذى وصل فيه رسول إلى مقر قيادة جيمسون كان الرجل قد تحرك وعبر الحدود بالترنسفال بخمسمائة جندى . ومنيت عملية الغزو بالفشل التام منذ البداية إذ شتتت البوير شمل قوات جيمسون ولم يقم المصلحون بالثورة .

تكشفت مؤامرة رودس للعالم ، وتحطم حلمه فى قيام اتحاد يضم جنوب أفريقيا . وأحس بخيبة أمل مريرة وتحطمت حياته السياسية . وتصرف كروجر بروح الاعتدال فرفض تقديم المغيرين الذين وقعوا فى الأسر إلى المحاكمة العسكرية وإعدامهم بالرصاص ، وأصدر بيانا دعا الناس فيه إلى « الغفران والنسيان » .

وكانت روديسيا تشهد تجمع متاعب من نوع مختلف بسبب عدم رضا القبائل عن الحكم البريطانى . لقد تعود الماتابيلى فى أيام لوبنجولا على الزعامة الحازمة وتمتعوا بما كانت تحدثه الغارات القبلية من إثارة ، أما الآن فلم يكن هناك من يرشدهم ويوجههم ، ولم يكن ثمة شىء يتطلعون إليه . أضف إلى هذا انتشار مرض شنيع يصيب الماشية ويعرف باسم الطاعون البقرى ، فأحدث الدمار فى البلاد . وماتت الألوف من رؤوس الماشية وذبح البريطانيون بقية القطعان فى محاولتهم القضاء على المرض .

ولكن أحداً لم يشرح لرجال القبائل السبب في هذا القتل بالجملة ، فشعروا بالدهشة والغضب ، وظنوا أن البيض قد جنوا . وأخبرهم الشامان Witch doctors أن الخلاص من البريطانيين هو السبيل الوحيد لاستعادة الحياة القديمة .

وكان معظم البوليس التابع للشركة والذى يحفظ الأمن والنظام فى روديسيا قد خرج مع حملة جيمسون . وهنا وجد رجال القبائل فرصتهم فثار الباقون من الماتابيلى وتلاهم رجال الماشونا الذين كان يظن فيهم أنهم قوم سلبيون مسالمون وقتلوا كل البيض ، رجلا كان أو امرأة ، أو طفلا استطاعوا العثور عليه . وحين انتهت المذبحة انسحب الزعماء والمحاربون إلى تلال ماتوبو حيث لم يكن فى إمكان القوات الوصول إليهم .

حين وصلت أنباء الثورة إلى رودس فى مدينة الرأس سافر فى الحال إلى روديسيا ثم توجه بمفرده وبدون أن يحمل سلاحا إلى تلال ماتوبو ليتحدث مع الزعماء . كان الخطر الذى يتعرض له هائلا ولكنه كان يعلم أنه إذا لم يتفق البريطانيون مع القبائل فإن الأرض التى سبق له الحصول عليها سوف تصبح برية جرداء من جديد . كان الزعماء مرتابين وحذرين وخطرين ولكن رودس تذرع بالصبر واستطاع بفضل مثابرته وشجاعته أن يقنعهم بالصلح .

لم تكن بنية رودس قوية أبداً ، ولكنه كان يرهق نفسه بلا رحمة



منظر العالم

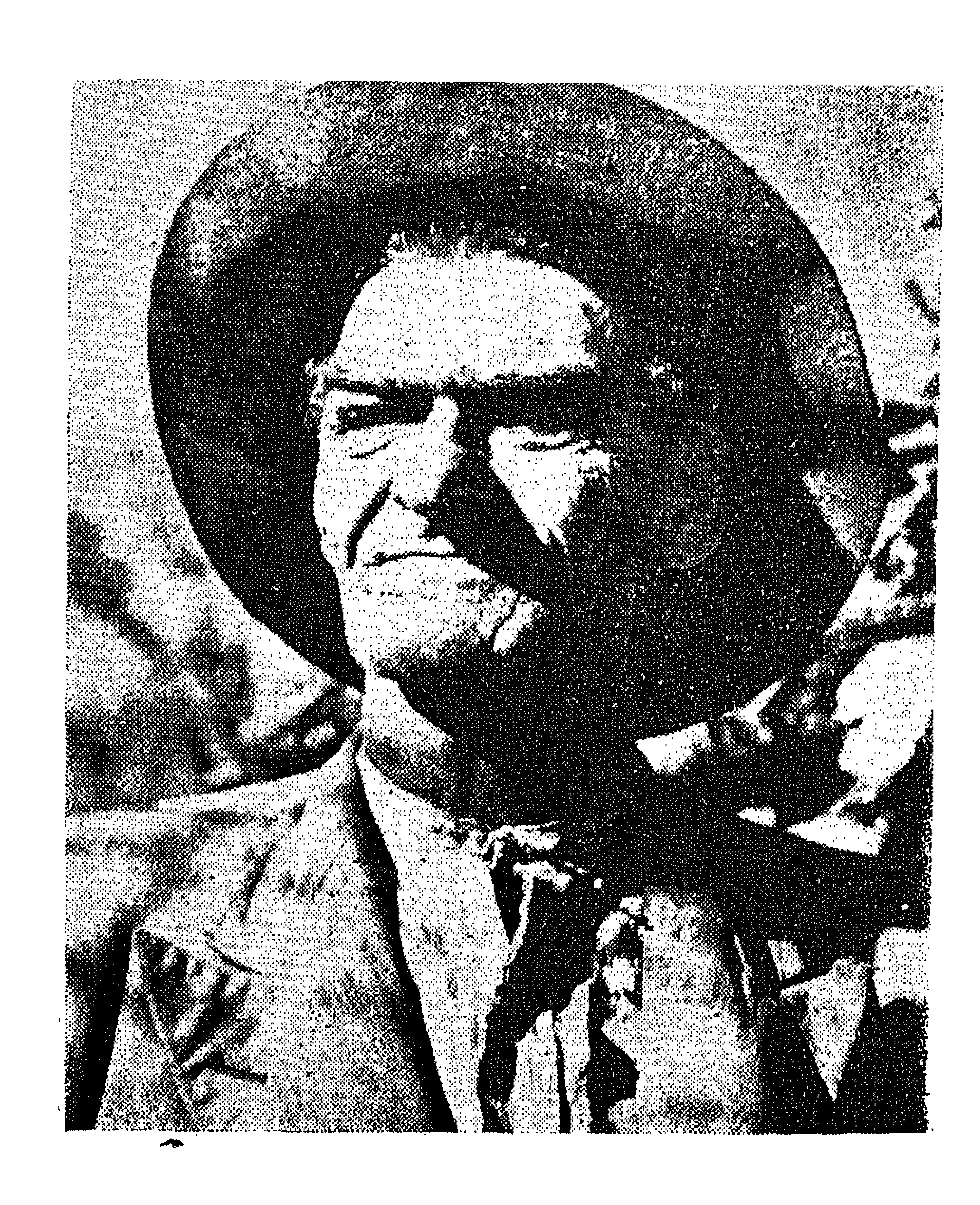
والآن أخذت صحته فى الضعف وأدرك أنه لن يعيش طويلا . و بينما كان فى تلال الماتوبو جاء إلى المكان الذى كان يود أن يدفن فيه ، وهى قمة صخرية تشرف من عل على المرج الفسيح الذى كان يحبه ، ولا تبعد كثيراً عن الكهف الذى كان يضم هيكل مزيليكازى فى وحدته المهيبة . كان يطلق على هذا المكان عبارة « منظر العالم » .

وفى هذه الأثناء اشتد العداء بين البوير والبريطانيين ، إذ طالبت الحكومة البريطانية فى مستعمرة الرأس بإصلاحات أبى كروجر أن يمنحها ، كما أن الرجل لم يحبذ الانتقام المباشر العاجل بعد حملة جيمسون وظن أن المتآمرين الرئيسيين سوف يلقون جزاءهم على أيدى قومهم . ولذلك استشاط غضباً حين تغاضت حكومة لندن عن الدور الذى قام به رودس

في الغزو . وقام البوير ببناء المزيد من الحصون وزودوها بالسلاح الذى حصلوا عليه من شركة كروب الألمانية . وأخيراً أعلنوا الحرب فى سنة ١٨٩٩ .

كان الكثيرون فى أوربا يعطفون على البوير إذ كانت شعوب القارة ، وبخاصة الألمان فى عهد قيصرهم ولهلم الثانى من آل هوهنزلرن ، ينقمون على بريطانيا بسبب ما تنعم به من رخاء وقوة . إنهم لم يجرؤا على التدخل فى الحرب ، إذ كان البريطانيون يحكمون البحار ، ولكنهم كانوا يمجدون كل نجاح يحققه البوير .

واستمرت حرب البوير عامين ونصف عام . وفى أثناء القتال كان لدى البريطانيين نصف مليون رجل تقريبا فى الميدان تحت قيادة لورد روبرتس ولورد كتشنر . أما البوير فكانت عدتهم مائة ألف رجل تحت قيادة كروجر وغيره من القواد البوير مثل الجنرال بوثا والجنرال هرتزوج وضابط شاب يدعى جان كريستيان سمطس . كان البريطانيون يفوقونهم عدداً ولكنهم كانوا يحاربون فى بلادهم . وكانوا قوما يتصفون بالصلابة وقد ربوا على أعمال الفدائيين . لقد أحرز البريطانيون بسبب تفوقهم العددى النصر فى معارك اشتد فيها القتال ، ولكن أبى البوير فى حزم وثبات أن يستسلموا ، فبالرغم من أن كروجر لم يعد تحت إمرته جيش منظم إلا أنه لم يفكر فى التسليم . وعاد الكثيرون من رجاله إلى ديارهم وراحوا



فلاح من البوير

يشنون من مزارعهم نوعاً من حرب العصابات خلف خطوط العدو . ولم يكن أمام البريطانيين من سبيل لإخضاع البلاد سوى القضاء على أوكار المقاومة واحداً بعد الآخر ، فأحرقوا بيوت البوير حيث وجدوا مقادير مخبأة من الأسلحة والذخيرة .

وفى الوقت نفسه فتحوا معسكرات الاعتقال للأسرات البويرية التى أصبحت بلا مأوى . وكانت هذه المعسكرات من سوء الإدارة بحيث انتشرت المجاعة والمرض فى صفوف النساء والأطفال ومات الكثيرون .

وترتب على ذلك أن ثار الرأى العام بعنف فوصل صداه إلى وزارة الحرب فى لندن وأثار عطف الجماهير . و بفضل مزيج من العمل الرسمى والاختيارى تحسنت الأحوال ، ولكن بالرغم من استمرار حرب العصابات وازدياد عدد الذين يلقى بهم فى المعسكرات تناقصت نسبة الوفيات .

ولم يحل عام ١٩٠٢ حتى لم يعد فى إمكان البوير الصمود ، واستسلموا ولكنهم لم يقاتلوا عبثاً ، إذ وعدوا بالحكم الذاتى فى ظل التاج البريطانى وكان فى وسعهم أن يعودوا بأبصارهم إلى الوراء فينظروا بالفخر إلى الموقف الذى اتخذوه ضد قوة الإمبراطورية البريطانية وبالرغم من هذا ، فإن تدمير المزارع والخسائر التى تحملوها مبكراً فى المعسكرات خلفت وراءها مرارة دائمة بين البوير والبريطانيين فى جنوب أفريقيا .

ومات رودس قبل انتهاء الحرب بشهرين . إن مشروعاته بشأن الاتحاد الأفريقى لم تتحقق ولكنه أضاف روديسيا إلى الإمبراطورية . وعن طريق ثروة رودس التحق الألوف من الشباب بجامعة أكسفورد وحملوا معهم إلى أركان العالم الأربعة تذوقاً للحياة الإنجليزية والتعليم الإنجليزى ومهما كانت نواحى فشله وعيوبه فإن رودس قد أضفى فى النهاية قوة على الأخوة بين المتحدثين باللغة الإنجليزية فى العالم .

ودفن رودس ، تحقيقاً لرغبته ، فى تلال ماتوبو . وهناك يرقد على فراش من الجرانيت ، وآثاره الوحيدة الدالة عليه تلك الصخور الداكنة

المتناثرة حوله . وعلى لوحة نحاسية عادية المظهر نقشت الكلمات البسيطة التالية . « هنا ترقد بقايا سيسيل جون رودس » .

ومات كروجر بعد ذلك بعامين وأثارت جنازته فى بريتوريا عاصمة ترنسفال شعوراً بالحزن العميق والوطنية الحماسية لأن « العم بول » تولى قيادة البوير مدى سنوات كثيرة . لقد احتفظ حتى أواخر أيامه بروح العناد والاستقلال التى تميز بها عصر الهجرة الكبرى ، ومن أجل هذا أحبه قومه .

وحين وضعت حرب البوير أوزارها عاد العقلاء فى جنوب أفريقيا من البريطانيين والبوير إلى مواجهة المشكلات المعقدة المتصلة بتوحيد أقاليمهم فى ظل حكومة واحدة . كانت قوة ألمانيا العسكرية آخذة فى النمو ، وأدرك أهل الخبرة من الجنود من أمثال سمطس أنه إذا نشبت الحرب بين ألمانيا و بريطانيا فإن انقسام جنوب أفريقيا يجعله فريسة سهلة للدول الألمانية المجاورة .

وكان البرلمان فى لندن على إدراك برغبة جنوب أفريقيا فى الحكم الذاتى ، وكان على بينة طيبة بالصراع بين البريطانيين والبوير حول الحقوق الوطنية . وكان الوزراء البريطانيون البارزون على اقتناع بأنه فى ذلك العصر الذى تزداد فيه المعرفة والإصلاح فسوف يكون الفوز من نصيب الذين يدافعون عن الإنسانية والعدالة سواء أكانوا من البريطانيين

أم من البوير . وعلى ذلك منحوا جنوب أفريقيا الاستقلال فى نطاق الكومنولث والأمل يساورهم فى أن يسفر هذا العمل عن أفضل النتائج .

وفى عام ١٩٠٨ عقد مؤتمر فى مدينة ارأس حضره ممثلون عن مستعمرة الرأس وترنسفال ودولة أورنج الحرة وناتال لمناقشة اتحاد جنوب أفريقيا . فوافقوا على أن يتحدوا فى نطاق الإمبراطورية البريطانية ، ووضعوا دستوراً . وتم اختيار عاصمتين إحداهما تشريعية فى مدينة الرأس والأخرى إدارية فى بريتوريا ، واعتبرت الهولندية والإنجليزية لغتين رسميتين على قدم المساواة ، وانتخب رئيس الوزراء من أصل بويرى وهو الجنرال بوتا من أبطال حرب البوير ، ولكنه كان مواليا للبريطانيين .

وفى سنة ١٩١٤ اخترقت جيوش الإمبراطور بلجيكا ، وأعلنت بريطانيا وفرنسا وبلجيكا الحرب على ألمانيا . وانقسم الرأى بين البوير ، فالآلام والهزيمة التى عانوها فى حرب البوير لم يطوها النسيان ، وبدت هنا فرصة للانتقام . غير أن بوتا وسمطس ظلا على ولائهما القوى لبريطانيا وانتصر نفوذهما . ودافعت الفرق الأفريقية عن حدود الاتحاد ضد الهجوم من جانب الأقاليم المجاورة وهى أفريقيا الشرقية الألمانية وأفريقيا الجنوبية الغربية الألمانية . واشترك عشرة آلاف رجل من البانتو فى فرق العمل وتعرضوا للمشاق والأخطار فى أثناء قيامهم بحفر الخنادق فى فرنسا وتحت

نيران العدو . وحين غلبت ألمانيا على أمرها عادوا إلى بلادهم ، يحدوهم شعور بأنهم يستحقون قدراً من الاعتراف بالجميل ومكانا فى المجتمع .

ووجدوا أن الأمور لم يطرأ عليها تغيير حين كانوا بعيدين عن الديار فى الحرب إذ ظل البيض يحكمون جنوب أفريقيا وفقا لقوانينهم ، وظلت الأبواب مغلقة فى وجه ترقى البانتو . لم يكن فى إمكان الأفريقيين أن يشتركوا فى إدارة شئون البلاد أو كسب أجر لائق .

وفى سنة ١٦٣٠ انتشر الكساد المالى الذى بدأ فى الولايات المتحدة إلى جميع أنحاء العالم ووصل إلى أفريقيا فهبطت أثمان الذهب والألماس ، والصوف ، وتعطل الكثيرون ممن عانوا الفاقة من قبل وأصبحوا يتضورون جوعا . وفى سنة ١٩٣٣ تقلد أدولف هتلر مقاليد الأمور فى ألمانيا ، وبعث بالعملاء النازيين إلى كل مكان ، يثيرون السخط والثورة . و بسبب التوتر بين الأجناس السوداء والبيضاء ، والمنافسة بين البوير والبريطانيين أصبح جنوب أفريقيا مرتعاخصبا للدعاية النازية .

وفى عام ١٩٣٩ عبرت القوات المسلحة النازية الحدود البولندية . وكانت بريطانيا وفرنسا قد عقدتا محالفة مع بولندة ، وبذلك وجدتا نفسيهما تواجهان العدوان الألمانى مرة ثانية فى ظرف خمسة وعشرين عاماً .

ونشب خلاف شديد فى برلمان جنوب أفريقيا . وكان على رأس

الوزارة بويرى عنيد منذ عام ١٩٢٤ وهو الجنرال هرتزوج . وعمل مع الجنرال سمطس واحتفظا بالحكم للحزب المتحد ضد الوطنيين (الحزب الوطنى) الذين كانوا يحبذون الانفصال عن بريطانيا . وبالرغم من اتفاق الرجلين حول الشئون الداخلية فإنهما كانا على طرفى نقيض تماما بشأن المسألة الحيوية المتعلقة بموقف البلاد من ألمانيا .

كان سمطس قد تنبأ بصورة أوضح مما فعل معظم الساسة فى الولايات المتحدة وأوربا بازدياد الخطر من جانب أدولف هتلر .

وكان يعلم أنه بمجرد إرضاء مطالب النازى فى أوربا فسوف يرنو هتلر ببصره إلى آفاق بعيدة ويحاول بناء إمبراطورية فيما وراء البحار ، وكان جنوب أفريقيا بثروته من الذهب والألماس هدفا واضحا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان هرتزوج يشعر شعورا قويا بأن الحرب فى أوربا مسألة لا تعنى جنوب أفريقيا .

وفى الرابع من سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وفى برلمان مزدحم بالأعضاء والنظارة ، عرض هرتزوج وسمطس سياستيهما المتنافستين . كان هرتزوج يدعو إلى الحياد ، بينما دعا سمطس إلى الاشتراك فى الحرب . وهزم هرتزوج بثمانية أصوات مقابل ٦٧ صوتا ، واضطر إلى الاستقالة ، فخلفه سمطس فى رئاسة الوزارة .

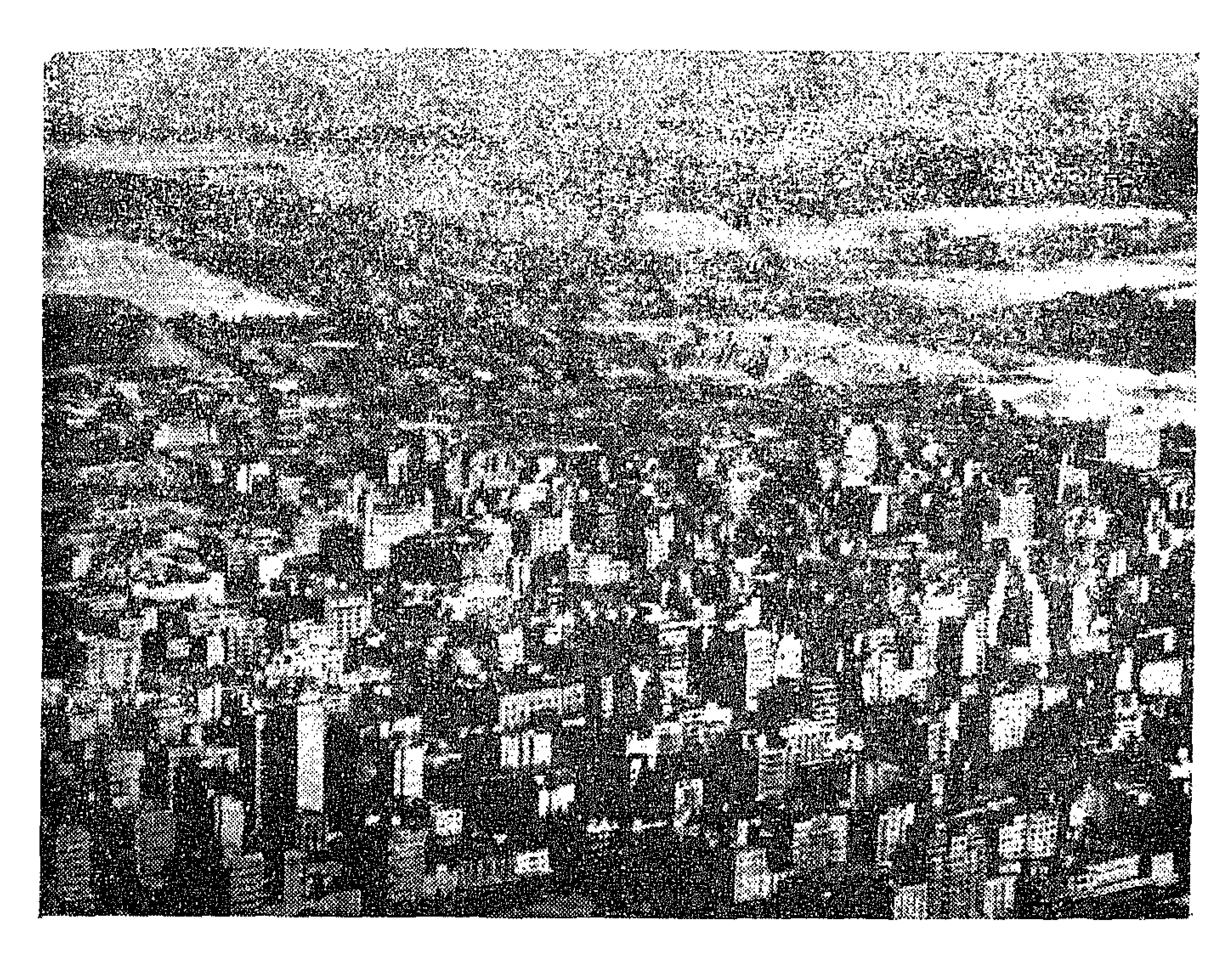
كانت هذه هي اللحظة التي أظهر فيها سمطس روحه المقاتلة العظيمة وأثبت ولاءه لبريطانيا والكومنولث، إذ أعلن الحرب على ألمانيا النازية. وخلال السنوات الخمس التالية قاتلت الوحدات التابعة لاتحاد جنوب أفريقيا في ميادين القتال في جميع أرجاء العالم ، وأبلت بلاء حسناً . لقد دلل سمطس أنه من ناحية الحكمة والعزم يعتبر من أعظم القادة في سنوات الحرب.

الفصل الثامن

جنوب أفريقيا اليوم

فى عام ١٩٤٥ تداعت قوة ألمـانيا النازية واليابان العسكرية . لقد أكملت القوات المتحالفة مهمتها وعادت إلى أوطانها . وشارك الأفريقيون قوات الشعوب المحاربة الأخرى فى الخطر الذى تعرضت له والآلام التى عانتها وساورهم الأمل ـ شأنهم فى ذلك شأن بقية العالم ـ فى أن التضحيات والآلام لم تذهب سدى . إنهم سمعوا عن الحريات الأربع التى آمن بها ساسة الحلفاء وهى : حرية التعبير عن الرأى ، وحرية العبادة ، والحرية من العوز ، والحرية من الخوف . وكان الأفريقيون أعظم اهتماماً بالأخيرتين ، إذ سبق أن جربوا القدر الكبير من العوز والخوف ، والآن تطلعوا إلى حياة أفضل من التى كانوا يحيونها قبل أن يتوجهوا إلى الحرب .

وحين عاد جنود البانتو إلى الحياة المدنية فى جنوب أفريقيا وجدوا أن جزاءهم اقتصر على ميداليات قلائل دون أن تصحبها أية امتيازات على الإطلاق . لقد مات الكثيرون منهم دفاعاً عن قضية الحرية ولكن الذين ظلوا منهم على قيد الحياة وجدوا ، كما وجد آباؤهم من قبل ، بعد الحرب العالمية الأولى أن أعظم الأشياء أهمية كان لون جلدهم . لقد أصبح



جوهانسبرج تحيط بها مناجم الذهب

جنوب أفريقيا أشد رخاء منه فى أى وقت فى تاريخه ، ولكن نصيب أهله الوطنيين من هذا الرخاء كان ضئيلا .

خلال السنوات المائة الممتدة من الهجرة الكبرى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية استولى المستوطنون الأوربيون من الهولنديين والبريطانيين ، على مساحة كبيرة من الأرض . كان هؤلاء فلاحين مهرة وجاءوا بقطعان الغنم والأبقار . وغرسوا أشجار الفاكهة وأحاطوا الأرض بالأسوار . وبهذا فقد البانتو الأرض التى ترعى فيها ماشيتهم والتى تزودهم بأسباب العيش . واقتطعت أراض أخرى نتيجة التنمية الصناعية بالبلاد ، إذ عدت

المصانع والمناجم والسكك الحديدية الآخذ عددها فى الازدياد على المراعى . حقيقة خطت الحكومة بعض خطوات لحماية الوطنيين من استمرار الخسارة والجوع بأن جنبت معازل أسكنت فيها قبائل البانتو ، ولكن عدد البانتو كان يزداد باطراد ، واشتد الزحام فى المعازل وكان من المستحيل توسيع مساحتها لأن جميع المزارع المجاورة مملوكة للأوربيين ولم تعد هناك أراضى فضاء حرة .

وفى سنة ١٩٤٣ أعيد انتخاب سمطس رئيساً لوزارة اتحاد جنوب أفريقيا . وفى هذا الوقت كان شخصية مشهورة وممتازة فى جميع أنحاء العالم وانهالت عليه مظاهر التشريف . ورقى فى الحادية والسبعين من سنه إلى رتبة فيلدمارشال ، واشترك فى مجالس الدول المتحالفة على أعلى المستويات . وبالرغم من شهرة سمطس الدولية كانت مشاعره مع وطنه ، ورأى أن الموقف هناك مما يثير القلق فى نفوس رجال الحرية . ورأى أيضاً أنه إذا كان على جنوب أفريقيا أن يحتل مكانه الحق بين الأمم المتحدة فعلى حكامه أن يعترفوا بحقوق رعاية الاتحاد ، سواء أكانوا من السود أو الملونين أم البيض .

وفى سنة ١٩٤٨ أجريت أول انتخابات فى فترة ما بعد الحرب . ودعا سمطس ومعه سياسى آخر من ذوى الآراء الحرة ، إلى المساواة والحرية ، إذ كانا يأملان التخفيف من وطأة القوانين العنصرية وبناء دولة تتوافر

للناس فيها من جميع الأجناس الفرصة العادلة حسب ما يملكون من قدرة ، ولكنهما سرعان ما تعرضا للمعارضة العنيفة من جانب الحزب الوطنى .

وكان الخصم الرئيسى لسمطس دانييل فرانسوا مالان زعيم الحزب الوطنى وهو شخصية قائمة فى سياسة جنوب أفريقيا . وينحدر مالان من مزيج من الهولنديين والهيجونوت . وكان قسيساً يتبع الكنيسة المصلحة الهولندية ويؤيد كل المعتقدات الجامدة التى آمن بها إخوانه فى العقيدة ، وكان مقتنعا بأن البوير هم شعب الله المختار ، وأن الأفريقيين شعب من درجة منحطة . وكانت الكنيسة المصلحة الهولندية شأنها فى ذلك شأن البيورتان القدامى تنظر بوجه عبوس إلى الكثير من ألوان التسلية والمتعة ف كان رؤساؤها يعدون الرقص ضلالا ، والتدخين وتعاطى المسكرات إثما وخصصوا الأحد للراحة والصلاة؛ ولم يسمحوا للشباب بالتنزه فى أيام الأحد إلا منذ فترة قريبة . وفى أيام الهجرة الكبرى كان الإنجيل الكتاب الوحيد الذى تحمله أسر كثيرة لأنه يمثل كل مارأوه ضروريا .

كان لمالان والحزب الوطنى هدفان أساسيان . أولهما الإبقاء على السيادة المطلقة للبيض ، وثانيهما الخروج من الكومنولث البريطانى و إقامة جمهورية مستقلة فى جنوب أفريقيا يتولى البوير الحكم فيها .

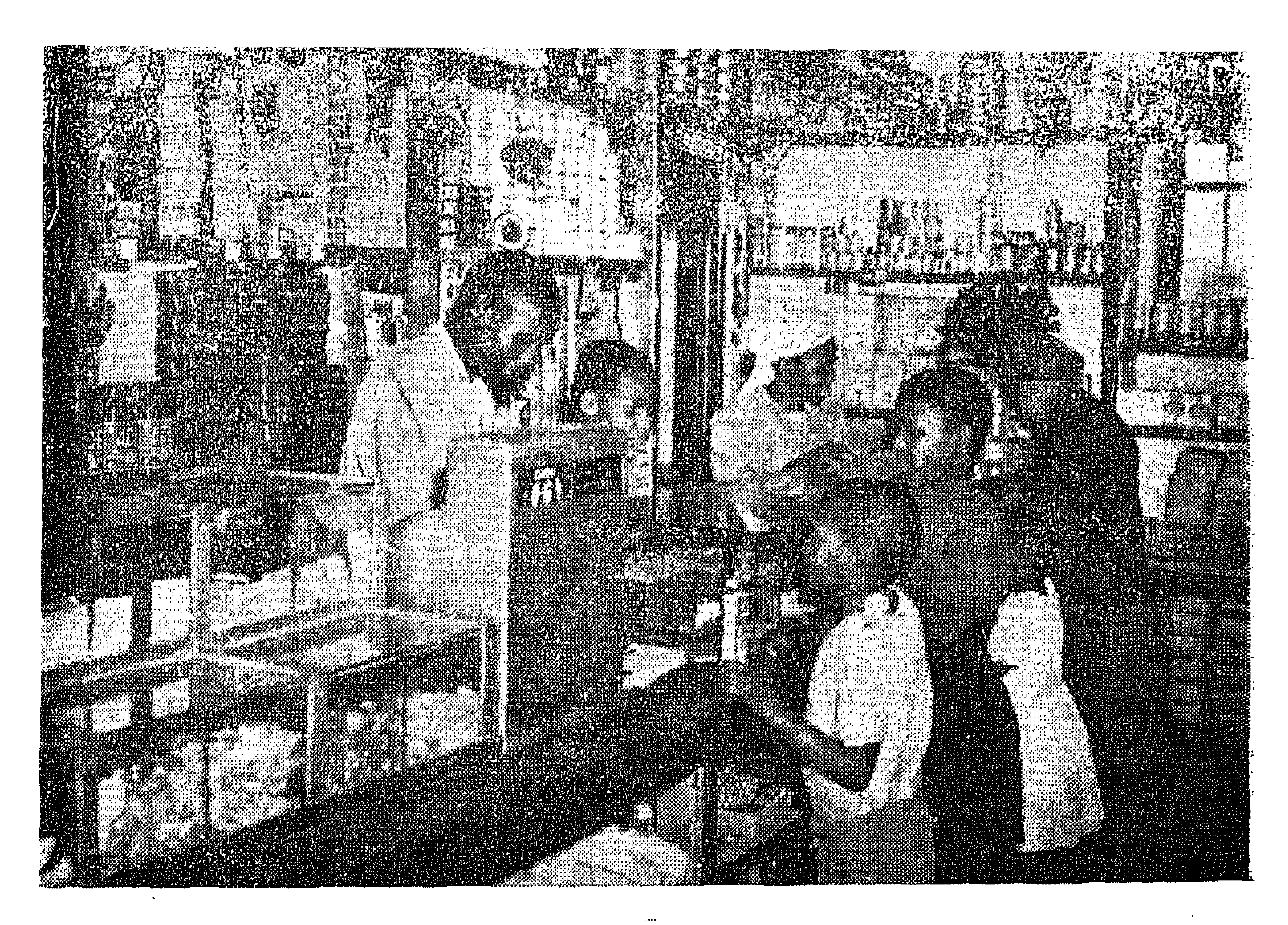
وخسر سمطس الانتخابات بسبب سياسته العنصرية المستنيرة وخلفه

مالان رئيسا للوزراء ، وفى ذلك الحين أصبحت التفرقة العنصرية Apartheid حجر الزاوية فى سياسة الأفريكانو .

وكلمة « أبارتيد » معناها « الفصل » ويعلن المدافعون عنها من الأفريكانو أنه من الأفضل للسود والبيض أن ينطوى كل فريق منهم على نفسه ويشق طريقه المستقل الخاص به . وهم يقولون إن لدى الأفريقيين أراضيهم حيث يستطيعون أن يحيوا حياتهم ويبذرا حضارتهم دون ماتدخل فى شئونهم .

ولما كان عدد الأفريقيين بالاتحاد أربعة أمثال عدد الأوربيين ، والمعازل المخصصة للأولين أقل من ثمن المساحة الكلية للاتحاد ، فإن حجة المدافعين عن « الفصل » تدعو إلى الشك . وترى الأسر الكثيرة من البانتو أنها مرغمة على التماس العمل فى المدن ، إذ لا يمكن أن يكسبوا عيشهم عن طريق الأرض . وعند هذه النقطة يضيع المعنى الحقيقى الذى تنطوى عليه سياسة الفصل ، إذ حين يدخل البانتو فى عالم الرجل الأبيض يصطدمون على الفور بحاجز اللون ، ويصبح استقلال الوطنيين والذى يفترض أن هذه السياسة تسانده ، مهزلة تدعو إلى السخرية .

إن كل وجه من وجوه الحياة يخضع لحاجز اللون الذى لا ينجو منه شىء ؛ ففى وسع الأفريقيين أن يشتغلوا فى المزارع ، ولكنهم لا يستطيعون من الناحية العملية تملك الأرض . وهم يستخدمون فى المصانع والمناجم



أطفال البانتو وهم يشترون حاجياتهم

ولكنهم لايستطيعون الارتفاع إلى درجة مقدم العمال ، ويعيش عدد قليل من البانتو الآن فى بيوت لائقة ، ولكن مهما جدوا فى العمل فإنهم لايستطيعون اقتناءها . ويجب أن يسافروا فى قطارات وحافلات « أتوبيسات » خاصة ، وأن يتناولوا الطعام فى أماكن خاصة وأن يركبوا فى مصاعد خاصة ، وأن يقفوا صفا واحداً أمام نوافذ خاصة فى مكاتب البريد . وهم لايستطيعون دخول مسرح أو سينما مما يخصص للأوربيين إلا فى مناسبات نادرة جداً ويجب أن يقتصروا على الشراء من حوانيتهم .

وفى جنوب أفريقيا من الصعب جداً على الوطنى أن يحصل على عمل من الأعمال التى تتطلب المهارة ، لأن مثل هذا العمل يتعلق إلى حد كبير بالتدريب . وهذا مالا يتاح لأى ولد أو بنت من البانتو .

وبالرغم من أن الأجور أعلى منها فى أى مكان آخر بالقارة فإن الوطنى فى أية حرفة يحصل دائما على أجر دون مايتقاضاه زميله الأبيض فيها . وفوق كل هذا فإن عليه أن يقيم حيث يطلب إليه . وهذا من أشد المشكلات المفجعة فى جنوب أفريقيا اليوم .

ولا يسمح لأى وطنى بأن يعيش داخل حدود أية مدينة إلا إذا كان ممن يشتغلون خدماً فى بيوت الأوربيين . أما الآخرون فيوجهون إلى « محلات » لهم وهى مساحات جنبت لهم خارج المناطق التى يعيش فيها البيض . ومنذ سنوات قلائل خلت كانت كل مدينة تحيط بها هذه المواضع الحقيرة التى يعيش فيها نصف مليون أفريقى فى أحط دركات الفاقة والذلة . وقد أنشأت بعض مؤسسات الأعمال الكبرى ومجالس المدن الآن مناطق سكنية لطيفة يستطيع الأفريقيون أن يعيشوا عيشة يشعرون فيها بالكرامة واحترام الذات ، ولكن قانون الأراضى ينص على أنهم لا يستطيعون أبداً تملك بيوتهم ، ومهما يكن من أمر فإن عدد البيوت التى أقيمت يقصر عن إشباع الطلب عليها . ولا يزال الوطنيون يقيمون فى كثير من تلك المناطق المخصصة لهم فى ظاهر المدن ، بصفوفها المتراصة من الأكواخ الحقيرة والممتدة

بطول الشوارع القذرة وإعل هذه أسوأ المناطق التي من نوعها في العالم إن أناسا من جميع الأعمار يزدحمون في كهوف مبنية من مواد غريبة الشكل مثل علب البنزين وصناديق الكسارات والألواح الخشبية المتعفنة والحديد الملتوى . وكلها يضم بعضها إلى بعض بمخلفات الحبال والزكائب . ولا وجود للمجارى ، والماء الجارى قليل . وليس هناك من الناحية العملية أية إضاءة . وعدد الأطباء قليل ، ولا توجد مطلقا أية أماكن من أى نوع يتنزه فيها الناس . والسيارات العمومية التي تنقل الناس من هذه الأحياء الحقيرة إلى المناجم والمصانع مزدحمة بالركاب دائما ، وأحيانا يضطر الناس إلى الانتظار ساعات بعد يوم عمل طويل ، قبل أن يعودوا إلى دورهم .

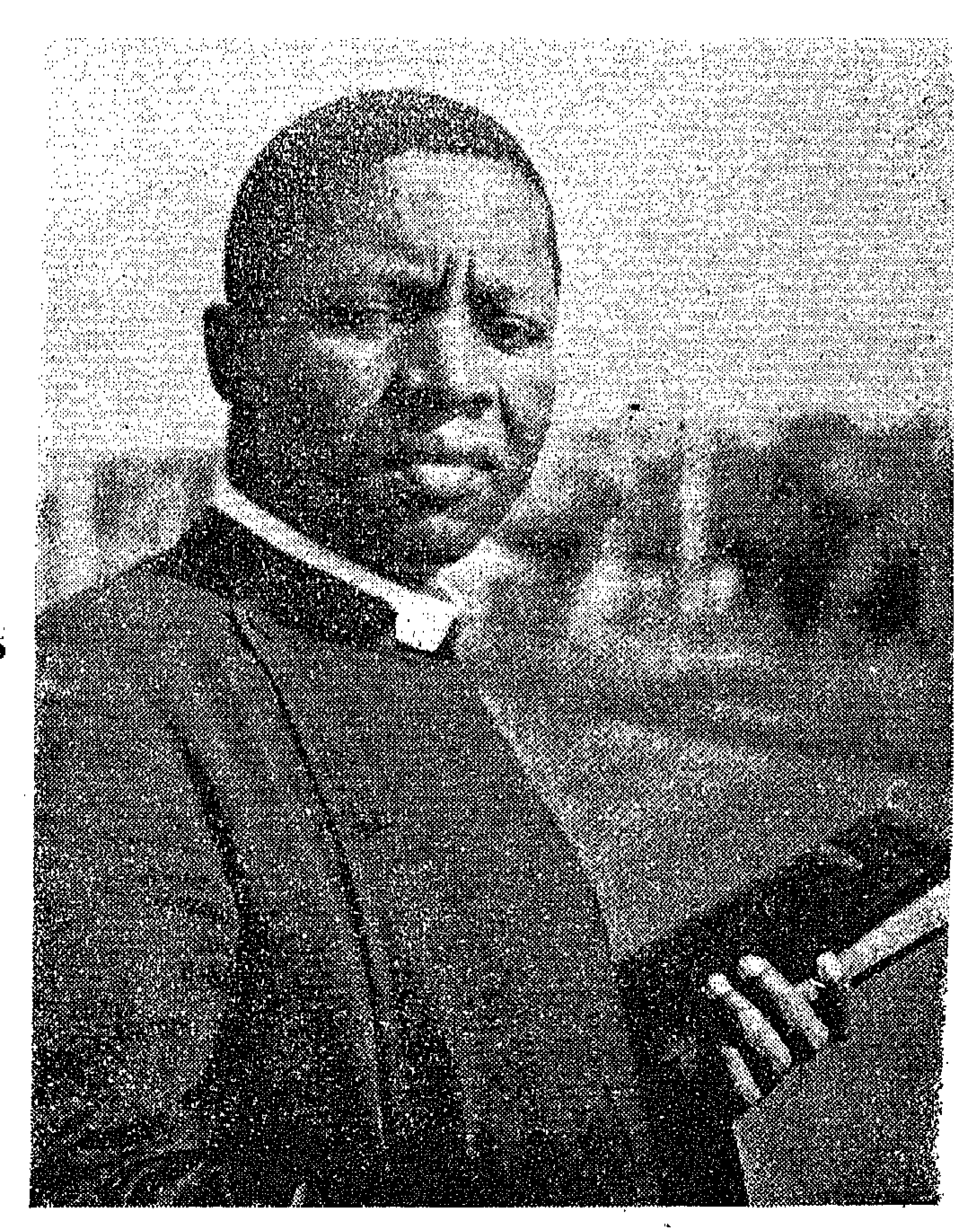
وحتى في الأحياء الجديدة حيث الشوارع نظيفة والبيوت جيدة البناء تعيش أسر البانتو في حالة من عدم الأمان ؛ لأنها تعرف أنها لن تشعر أبداً بفخر تملك بيت هناك . والسبيل الوحيد للحصول على بيت ينحصر في أداء العمل لرجل أبيض . إن الأعمال والبيوت أمران متلازمان ، بمعنى أنه إذا ترك امرؤ عمله فعليه أن يغادر بيته أيضاً . وإذ لا أمل في الإقامة الدائمة على مقربة من المدن فإن معظم الأفريقيين يشتغلون فترة من الوقت ثم يعودون إلى المعازل مصطحبين أسرهم معهم . وبذلك يتغير دائما عمال المصانع والمناجم .

إن الكثيرين من أصحاب الأعمال على استعداد لبناء المزيد من

البيوت ووضع قوانين جديدة تساعدهم على الاحتفاظ بعمالهم ، ولكن هذا يتعارض مع سياسة الحكومة ، إذ يصر زعماء الحزب الوطنى على ألا يكون للأفريقى حق فى أراضى الرجل الأبيض ، بل إنهم ليشعرون بالقلق من ناحية ذلك العدد القليل من الأفريقيين الذين نجحوا فى الاحتفاظ بأعمالهم وحاولوا الاستقرار فى أفقر المناطق والأحياء .

وأقامت بعض الشركات الكبيرة عمارات لعمالها الوطنيين ، ولكن لايسمح بالإقامة فيها إلا للرجال ، ولهذا يتركون زوجاتهم فى المعازل . وغالبا مايشعر رجال قبائل البانتو بالضياع عند وصولهم إلى مدينة كبيرة . فقد يلقى بهم مع أفراد من قبائل أخرى ممن تختلف عاداتهم ويتكلمون إحدى اللغات المائتين والستين السائدة بين البانتو والتى لا يستطيعون فهمها . ومن هنا تتملكهم الحيرة واليأس ويعانى بعضهم المتاعب . وحوادث القتل فى جوهانسبرج أكثر منها فى نيو يورك أو شيكاغو أو لندن أو ليفربول وذلك على أساس نسبتها إلى عدد السكان .

واعتزل مالان الحكم فى عام ١٩٥٤ وخلفه من هو أشد منه تعصبا لتنفيذ سياسة العزل ؛ ذلك هو جوهانس جيهاردس ستريدوم ، من نوير الترنسفال . وأعلن ستريدوم أنه لا محل فى البرلمان لممثلى الأفريقيين على الإطلاق ، وبذلك فقد جميع البانتو والهنود والملونين حقوق التصويت القليلة التى كانوا يتمتعون بها خلال السنوات المائة الأخيرة .



قسيس من البانتو

وحين مات ستريدوم فى عام ١٩٥٨ خلفه ترنسفالى آخر وهو الدكتور هندريك فيرفورت الذى زاد من حدة التنظيمات العنصرية . وصدر قانون جديد للتعليم غير من نظام التدريس فى مدارس جنوب أفريقيا . والغرض من القانون أن يتعلم أطفال البانتو لغتهم وتاريخهم وثقافتهم بدلا من اللغة الإنجليزية أو الأفريكانية . وهم لا يتعلمون ما يؤهلهم لمنافسة الأوربيين .

ويقول البوير : من الخير لأى شعب أن يتعلم ويمارس تقاليده الوطنية ، وهذا حق وسليم فى بلد من البانتو يحكمه أهله . أما فى بلد يحكمه الأوربيون فإن هذا النوع من التعليم يحصر البانتو فى عالم انقضى عهده بدلا من إعدادهم لعصر حديث . وحين يغادرون المدرسة فلن يتزودوا إلا بما يؤهلهم لأن يكونوا عمالا أو خدما يشتغلون لدى سادتهم البيض .

وقبل صدور قانون التعليم هذا كان فى إمكان الأفريقيين ممن توافرت لهم المؤهلات اللازمة أن يلتحقوا بالكليات حيث يعملون مع الأوربيين الذين فى سنهم . أما الآن فلا يستطيعون الالتحاق بغير الكليات المخصصة للبانتو . بل إن الأخيرة مقسمة إلى وحدات قبلية . والفكرة فى هذا أن يتعلم شباب الزولو على يد مدرس من الزولو وفى كلية للزولو وبلغتهم وهكذا . ولا تضم القبائل المختلفة العدد الكافى من المدرسين أو الطلاب لكل كلية ، وسوف يظل المستوى منخفضا جداً . ويكاد يكون من المستحيل على الأفريقى القادر أن يحصل على جواز يبيح له مغادرة البلاد وتلقى التعليم فى الخارج .

وهذا القانون تساعده الكنيسة المصلحة الهولندية وتنفذه فى مدارسها . ويواجه الجماعات الدينية الأخرى اختيار صعب : فهل تغلق مدارسها احتجاجا أم تغير أسلوب التدريس حتى يتسنى لها الاحتفاظ بقدر من الاتصال بالأطفال ؟ وأغلق الأنجليكيون مدارسهم ، على حين استقر رأى

المنهجيين Methodists على أن من الأفضل لهم الأخذ بالحل الوسط .

وظلت قوانين المرور سنوات كثيرة تثير الغضب والقلق الشديد فى صفوف السكان الوطنيين باتحاد جنوب أفريقيا . فطبقا لمرسوم أصدرته الحكومة يتعين على كل أفريقى أن يحمل جوازاً ويبرزه حين يطلب إليه ذلك ، وإذا نسيه فالعقوبات قاسية . وعلى ظهر كل جواز تعليمات مطبوعة بحروف دقيقة لا يستطيع أن يقرأها سوى قلة من الأفريقيين . وبالرغم من هذا فإذا عصوا هذه التعليمات قبض عليهم البوليس دون إنذار سابق.

والعقوبة فى هذه الحالة هى الغرامة أو الحبس . ولما كان من النادر توافر المال لأداء الغرامة لهذا يزج بهم فى السجون . ويختفى الناس دائما حتى بدون أن يحدد الموقف لإخبار أهليهم بما حل بهم .

والتصاريح مصدر مرارة شديدة وآلام . وانتشر الاستياء والاضطراب فى ربيع عام ١٩٦٠ ، ووقعت حوادث شغب وإضرابات ، ولكن لم يكن هناك إلا القليل من أعمال العنف السافر إلى أن حدث إطلاق النار فى شاربفيل .

وشاربفيل محلة أفريقية على مسافة حوالى أربعين ميلا جنوبى جوهانسبرج . وفى ٢١ من مارس توجه الألوف من الرجال والنساء الأفريقيين إلى مركز البوليس احتجاجا على قوانين المرور . والتقط بعضهم العصى والحجارة فى طريقهم دون أن يحملوا أسلحة نارية ولم يعمدوا إلى

الهجوم . ويبدو أن الشرطة لم تتلق الأمر بإطلاق النار ، لكن الذعر تملكهم كلما اقترب الجمع فأطلقوا النار . واستدارت الجماهير ، وأخذت فى الفرار ، ولكن حين توقف إطلاق النار كانت الأرض مغطاة بأجساد القتلى والجرحى . وأسفر الحادث عن مقتل سبعين من الأفريقيين وإصابة أكثر من مائتين بجراح ، فاجتاحت العالم المتحضر موجة من الفزع .

وفى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة وافقت تسع دول على قرار تعرب فيه عن أسفها لسياسات اتحاد جنوب أفريقيا العنصرية ، وتطالب حكومته بنبذ سياسة العزل، ولم تنهض أى دولة للدفاع عن جنوب أفريقيا .

ووقعت مصادمات أخرى بين الشرطة والأهالى الوطنيين ، وأصدر قادة الاتحاد الأوامر بالقبض على أى شخص يحتمل أن يعارض نظام حكمهم ، وقبض على المئات من الرجال والنساء من جميع الأجناس وأودعوا السجون.

وفى إبريل من عام ١٩٦٠ حاول فلاح ثرى فى اتحاد جنوب أفريقيا ومن أصل بريطانى ، ويدعى دافيد برات ، اغتيال هندريك فيرفورد بأن أطلق عليه الرصاص عن كثب ، ولكن رئيس الوزراء نجا من الإصابة القاتلة. لم يكن برات منتميا إلى أى حزب سياسى ، وإنما تصرف فى تهور كفرد يمقت كل ما كان يدعو إليه فيرفورد .

يجب أن يكون مفهوما بوضوح أن فى جنوب أفريقيا رجالا ونساء من البيض ، بريطانيين وأفريكانو ، لا يوافقون على سياسة الحكومة

ويبذلون أقصى مايقدرون عليه من جهد من أجل رفاهية الوطنيين ، ويتعرضون للأخطار ويقاسون العقوبات بسبب خرق القوانين التى يعدونها مخالفة للإنسانية ومجافية للعدالة . وهناك أيضاً عدد من الأفريقيين على درجة عالية من الذكاء من رجال الدين والمحامين والمدرسين ، ممن تلقوا العلم قبل أيام التفرقة العنصرية الشديدة . وهؤلاء يعملون بلا توقف من أجل قومهم .

ويحاول عدد قليل من الزعماء التقدميين باستمرار إدخال الإصلاحات ولكن لاتزال جبهة الأفريكانو ثابتة حتى الآن . إن الحكومة ، ومعظم أهل الجنوب ، أفريقيا البيض فى الحقيقة ، لايعتقدون أنه سوف يأتى الوقت الذى يثور فيه الأحد عشر مليونا من الأفريقيين والهنود والملونين ضد الملايين الثلاثة من الأوربيين ويطغون عليهم .

وإذا استولى الأفريقيون على السلطة نتيجة انفجار عنيف ، فسوف تضيع ثروات كثيرة . لقد نال الأفريكانو القوة السياسية واحتفظو بها ، ولكن ثروة جنوب أفريقيا لا تزال أساسا فى أيدى الذين يتكلمون اللغة الإنجليزية ممن يملكون شركات التعدين الكبرى فى كمبرلى وجوهانسبرج ، والمصانع التى تنتج السلع والسفن التى تنقلها إلى الأسواق العالمية .

وكان إقليم أفريقيا الجنوبية الغربية المجاور للاتحاد مستعمرة ألمانية

من قبل . وبعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى انتدبت عصبة الأمم اتحاد جنوب أفريقيا لإدارته فأصبح خاضعاً لحكم البوير .

فى تلك الرقعة المعقدة المكونة من دول أفريقيا لاتزال هناك أقاليم قليلة تتمسك بحماية بريطانيا لها ولا تسعى إلى الحصول على الاستقلال فوراً ، وهذه هى : محميات بشوانالاند ، وباسوتولاند وسوازيلاند ، وتقع فى داخل اتحاد جنوب أفريقيا أو بالقرب منه . ولهذه المحميات جميعا حكام من أهلها ، وطلبت مساعدة بريطانيا حتى يتسنى لها الاحتفاظ بوضعها الراهن . إنها تشعر بالخوف من عدوان الأفريكانو ولا تملك من القوة ما يكفى لصده بمفردها . ووافقت بريطانيا على عدم التخلى عن هذه الأقاليم دون إجراء المشاورات الواجبة معها . وتعتبر باسوتولاند أول إقليم يبحث موضوع الحكم المستقل .

وأكبر الأقاليم الثلاثة بشوانالاند الواقع بين الأراضى الزراعية الخصيبة بمستعمرة الرأس ومزارع الطباق الغنية فى روديسيا الجنوبية ؛ وكان « طريق المبشرين » يخترق القسم الشرقى منها حيث تربى قبائل بشوانا الآن الماشية وتزرع القمح . أما القسم الغربى فعبارة عن صحراء كلهارى الجافة والغاصة بالأتربة .

وكانت العلاقات ببريطانيا ودية ، إلا أنه فى عام ١٩٥٠ نشأت أزمة سببت الكثير من الحيرة حين تزوج سيريتسى خاما زعيم قبيلة باوانجواتو

فتاة إنجليزية بيضاء فى أثناء دراسته فى لندن . وهنا استنكر عمه ـ وكان يتولى الوصاية فى غيابه ـ هذه الثورة على التقليد القبلى . وأصيب أهل القبيلة بصدمة وحيرة ولم يعرفوا أى الرجلين يناصرون . ومنعا للصراع وإراقة الدماء نفت السلطات البريطانية سيريتسى وعروسه . وسرعان ما أنجب أبناء، وبالرغم من أن القبيلة وجدت من الصعب عليها أن تقبل وريثا للعرش يختلط فيه الدم الوطنى بالأجنبى إلا أنها لم تقرر انتخاب زعيم آخر . وأخيراً سمح لسير يتسى بالعودة ، لا بوصفه الزعيم المعترف به ، وإنما بوصفه قيما على شعبه ومستشاراً له ، فكان هذا حلا سلميا للأزمة .

وتلى بشوانا لاند فى المساحة محمية باسوتولاند التى تشبه حصنا بجزيرة تحيط بها أراضى جنوب أفريقيا، ويطلق عليها اسم « سويسرة الأفريقية » إذ أنها منطقة جبلية وعرة . والأرض فقيرة ، ويحيا الأهالى عيشة بسيطة عن طريق تربية الأغنام والماعز فى المراعى المتفرقة فوق مرتفعات باسوتو الباردة التى تغطيها غلالة براقة من الثلوج البيضاء تضفى جمالا على المنظر .

وخلال القرن التاسع عشر ، وفى عهد زعيمهم العظيم موشيش ، حافظ الباسوتو على بلادهم فى وجه زحف البوير وفى أثناء فترة الهجرة الكبرى . وظل موشيش يحكم البلاد سنوات كثيرة وخلف وراءه تقليداً من الحنكة السياسية يجاهد خلفاؤه من أجل الاحتفاظ به. والباسوتو مقاتلون بطبيعتهم ويمتازون بشدة المراس والصلابة ، وهرعوا للالتحاق

بقوات جنوب أفريقيا فى الحرب الأخيرة .

وجرائم القتل بوصفها علاجا ، والتى يرتكبها الباسوتو ، من الآثار البشعة التى لا تزال متخلفة من الحياة القبلية ، وكانت تعبيرا عن اعتقادهم فى السحر. ولكن هذه الحوادث كادت تزول بسبب ازدياد عدد الذين يعتنقون الديانة المسيحية ونتيجة العقاب الشديد الذى توقعه السلطات البريطانية على مرتكبى هذه الجرائم . إلا أن الباسوتو عادوا إلى إحياء هذه العادة الشريرة منذ انتهاء الحرب الأخيرة . لقد تمتعوا بالقتال فى الحرب وأثبتوا أنهم جنود أكفاء ، وكانوا يحبون الإثارة ولا تخيفهم الأخطار . ولما عادوا إلى باسوتولاند وجدوا الحياة هادئة ومفيدة ، ولم تكن الأحوال فى بلادهم قد تحسنت . وكانوا يعانون الفقر ونفوسهم ساخطة . إن المسيحية لم تحقق لهم النجاح الذى كانوا يرجونه ، ولهذا عادوا إلى السحر .

ويعتقد الباسوتو أنهم إذا أعدوا مزيجا من لحم الضحية ويختاره طبيب القبيلة بعناية فسوف تكون للمزيج خواص سحرية . فهم يقتلون أملا فى خير ينجم عن القتل . بل لقد عرف عن بعض الطلاب أنهم يرتكبون مثل هذه الجريمة لتساعدهم على النجاح فى الامتحان . ولا يزال علينا أن نقنع الباسوتو بأن ثمة وسائل أخرى ، أكثر إنسانية تسفر عن نتائج أفضل .

وأصغر المحميات الثلاث سوازيلاند وهى منطقة صغيرة ولكنها

تعيش فى رخاء ونشاط وتوفر أسباب العيش لأهلها . ويختلط الأوربيون فى هذه الدولة الصغيرة اختلاطا غير مقيد بالوطنيين ، ولذلك فالمتاعب العنصرية نادرة ، وحسن النية متوافر .

واكتشف السوازى الذهب وخام الحديد ، وهم يربون الماشية والأغنام ويزرعون القطن والقمح والفاكهة فى مزارعهم . وحياتهم مزيج من القديم والحديث ؛ فقد تعلموا من البريطانيين الأساليب الحديثة فى الزراعة ولـكنهم يتشبثون بالـكثير من العادت القبلية القديمة لأن هذا يدخل على نفوسهم الراحة والمتعة . ويتولى حكمهم زعيم كبير هو سوبوسا الثانى الذى يتصف بالجلال والهيبة ، وكان ذلك بموافقة البريطانيين . والرجل على درجة كافية من الحـكمة تجعله يقدر قيمة الصحة والتعليم وهو يشجع المبشرين المسيحيين والمحسنين الأجانب على جلب المال إلى بلاده لإنشاء الـكنائس والمدارس والمستشفيات . وفى الوقت نفسه لا يزال على وثنيته ويتمتع بترف الاحتفاظ بعدد كبير من الزوجات .

لعل فى أفريقيا من وجوه التباين والتناقض أكثر مما نلقاه فى أية قارة أخرى فى العالم .

الفصل التاسع

أوربا وأفريقيا

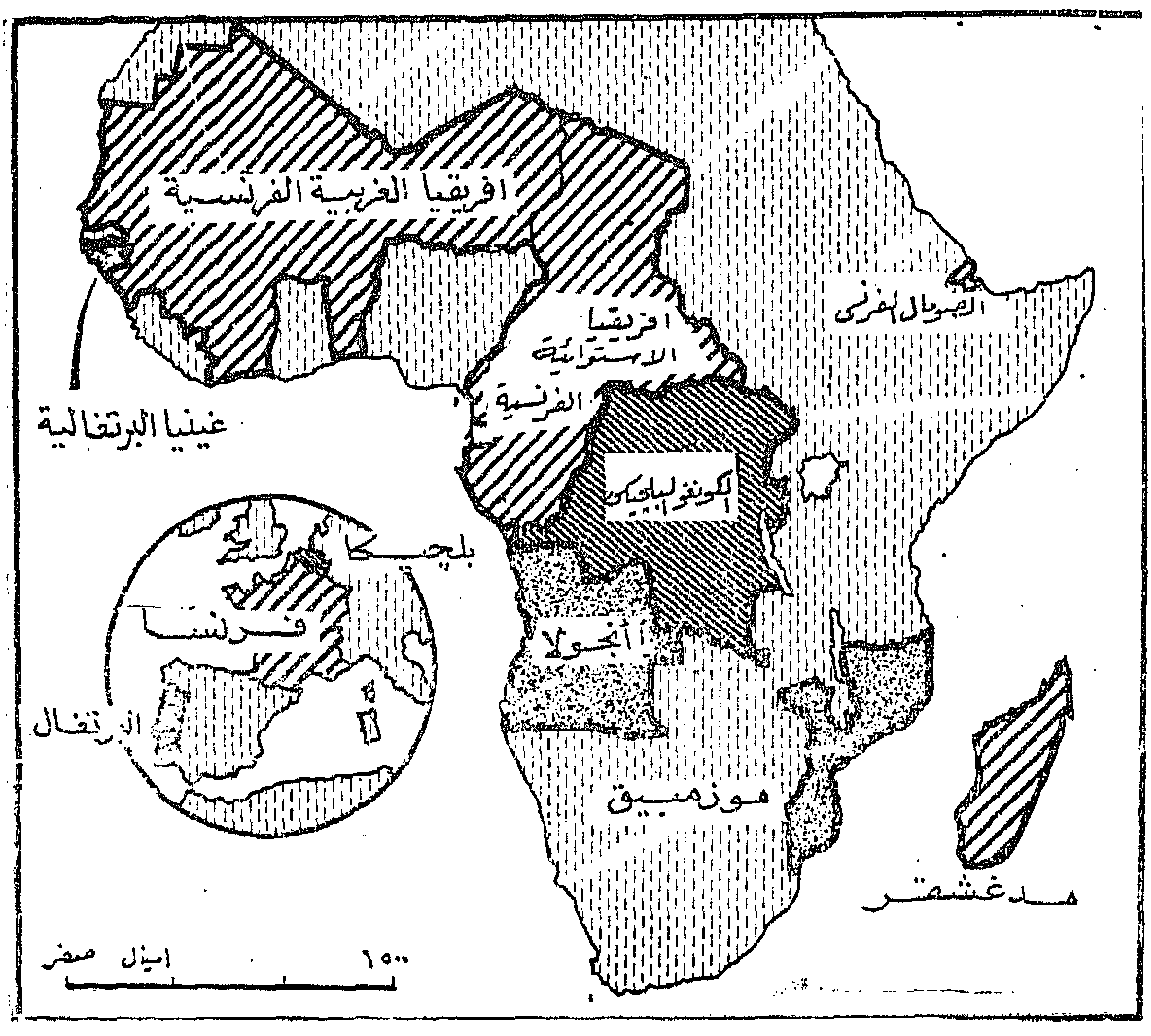
فقد الألمان جميع ممتلكاتهم الأفريقية بعد هزيمتهم فى الحرب العالمية الأولى ، ولكن ثلاثة من البلاد الأوربية لا تزال تحكم أو كانت تحكم إلى عهد قريب فى مساحات شاسعة من أفريقيا ، وهذه الدول هى البرتغال وبلجيكا وفرنسا .

ولا تبدى البرتغال مايدل على أنها تخفف قبضتها على أنجولا وموزمبيق . أما فرنسا فى عام ١٩٥٨ ، وبلجيكا فى عام ١٩٦٠ ، فقد قررتا فجأة أن تمنحا الحكم الذاتى لامبراطوريتيهما جنوبى الصحراء الكبرى ، حيث أدركت هاتان الدولتان أن القومية آخذة فى النمو ، وشعرتا أن محاولات إخمادها سوف تؤدى إلى نكبة تتوقف بسببها التجارة والصناعة وتنقلب الأرباح التى يجرى اجتناؤها بعد الجهد الجهيد إلى خسائر فادحة . ولذلك أقدمت فرنسا وبلجيكا على تساهلات تثير الدهشة ، مما ترتب عليه أن أصبحت ممتلكات فرنسا فى أفريقيا الغربية وجزيرة مدغشقر ، فضلا عن الكونغو البلجيكى ، فى مراحل الاستقلال الأولى الآن .

وحين كانت فرنسا والبرتغال وبلجيكا تتولى الحكم فى أفريقيا

ابتدعت وسائل وأساليب للحكم تتفق مع مبادئها ومواردها . فكان الفرنسيون يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه يجب أن يتحول كل أفريقى إلى فرنسى مخلص يتخذ من باريس عاصمة له . وكذلك اعتبر البرتغاليون أن المواطنة البرتغالية ينبغى أن تكون أعلى هدف أمام رعاياهم الأفريقيين . غير أن البلجيكيين أداروا شئون مستعمراتهم الوحيدة كأنها أحد مشروعات الأعمال الكبرى فيعملون كل ما يقدرون عليه من أجل تحسين أحوال الأفريقيين الذين يعملون فى خدمتهم ورفع كفايتهم ، ولكن دون أن يمنحوهم أبداً أى نصيب فى الإدارة . وكان معنى هذا أن عدداً قليلا جداً من أهل الكونغو المستقلين كانت لديهم فكرة عن كيفية إدارة شئون بلدهم .

وتزيد مساحة أفريقيا الغربية والاستوائية الفرنسيتين معا على مساحة فرنسا أربع عشرة مرة . وهما تمتدان من الصحراء إلى نهر الكونغو وتتاخمان غانا ونيجيريا وليبيريا وتتصلان بتوجولاند والكمرون ، وهما تلك الأجزاء من الممتلكات الألمانية السابقة والتى انتدبت فرنسا لإدارتها من قبل عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى . وتقع جزيرة مدغشقر فى المحيط الهندى جنوبى خط الاستواء . وكان الفرنسيون منذ بداية الأمر لا يعتبرون هذه الممتلكات الأفريقية مستعمرات وإنما كانوا ينظرون إليها بوصفها « أقاليم فيما وراء البحار » . أى إنها كانت امتداداً لفرنسا ،



فرنسا وبلجيكا والبرتغال بالقياس إلى إمبراطورياتها الأفريقية (١٩٥٨)

وكان كل فرد من أهلها يولد رعية فرنسية بصورة آلية . كان هناك فارق كبير فى نظر الفرنسيين بين الرعية والمواطن . فمن الحق الطبيعى أن يكون المرء رعية فرنسية ولكن كان يتعين عليه أن يكسب صفة المواطن، وهذا يستتبع أن يكون قادراً على الحديث باللغة الفرنسية وكتابتها ، وأن يسير فى حياته على أسلوب منظم ، وأن يقتصر على الزواج بواحدة ، وأن يؤدى الخدمة العسكرية . وبمجرد أن تتوافر لديه هذه الشروط فإنه يصبح على قدم المساواة مع الفرنسيين أنفسهم .

ولما كان الحكم الفرنسى قائماً على تحقيق المساواة بين الأوربيين والأفريقيين فى نهاية الأمر ، لهذا لم يكن ثمة وجود لحاجز اللون . فكان

الأطفال الذين ينتمون إلى أجناس كثيرة ويتكلمون لغات وطنية كثيرة يتوجهون إلى نفس المدارس ويتلقون دروسهم بالفرنسية . ومعظم هذه المدارس أنشأته البعثات التبشيرية وتولت إدارته بمساعدة من جانب الحكومة .

وكان كل إقليم من الأقاليم الفرنسية الواقعة فيما وراء البحار يبعث بممثليه إلى برلمان الجمهورية الفرنسية فى باريس ، وإن كانت هناك قوانين خاصة للتصويت بحيث تحول دون طغيان الأعضاء الأفريقيين على هذه الجمعيات. ولقد كانت الإمبراطورية فى أفريقيا عبئا شديداً على دافع الضرائب الفرنسى إذ كانت الخزانة العامة تقدم مباشرة المال اللازم لتنمية المناطق المتأخرة وأنفقت فى هذا السبيل مبالغ طائلة . ولما كانت هذه البلدان الأفريقية تعامل بوصفها أجزاء من فرنسا ، لهذا فإن الفرنسيين حتى السنوات القلائل الأخيرة لم تساورهم أية فكرة عن منحها الاستقلال ، أكثر مما قد يخطر ببال الكونجرس الأمريكى أن يتنازل عن ولايتى كاليفورنيا أو تكساس .

وفى عام ١٩٤٠ حين اجتاحت قوات النازى فرنسا رفض الزعيم الزنجى الوطنى فيلبكس ابوويه أن يستسلم مع بيتان أو يتعامل مع هتلر ، وأعلن أن أفريقيا الاستوائية الفرنسية ستواصل القتال إلى جانب الجنرال ديجول .

ولما انتهت الحرب قام الجنرال بزيارة العاصمة برازافيل ، وكجزاء



التباين بين الحياة القديمة والحياة الحديثة

على هذا الولاء غير قانون اكتساب صفة المواطن بحيث يولد جميع الأفريقيين في إمبراطورية فرنسا فيما وراء البحار ولهم نفس حقوق الفرنسيين .

وكانت السياسة الفرنسية فيما وراء البحار ناجحة جداً في أفريقيا الاستوائية ، ولكن ما من شيء كان يستطيع أن يوقف مد القومية الصاعد والذي كان يجتاح هذه الدول الخاضعة لفرنسا . وحين قرر أهل هذه الأقاليم أنهم يريدون أن يكونوا أفريقيين بدلا من فرنسيين حدث تغيير دراماتي في التخطيط الرسمي الفرنسي، فعرض الجنرال ديجول - الذي انتخب في عام ١٩٥٨ رئيساً للجمهورية بأغلبية ساحقة - قدراً كبيراً من

الاستقلال فى نطاق الاتحاد الفرنسي ، ووافق على التفاوض مع أى إقليم فيما وراء البحار يريد الاستقلال . ولم تضيع جزيرة مدغشقر الوقت فى أن تزيح السيطرة الفرنسية عن كاهلها ، وسارعت دولة غينيا الصغيرة إلى وضع الخطط لتكوين اتحاد مع غانا . وتحول كل إقليم جنوبى الصحراء بالتدريج ، وبفترة من الحكم الذاتى تحت التوجيه الفرنسى كخطوة مؤدية إلى الاستقلال النهائى . والآن أصبحت جميع هذه الأقاليم الحديثة العهد بالاستقلال أعضاء بالأمم المتحدة ، ومعظمها على علاقات طيبة بفرنسا .

وكان البرتغاليون أول من رفعوا علمهم من الأوربيين فى أفريقيا الجنوبية فى بداية القرن السادس عشر ، ومنذ ذلك التاريخ وهم يحكمون إقليمى أنجولا وموزمبيق . وتسير سياسة البرتغال فى مستعمراتها على نسق السياسة الفرنسية بوجه عام . ولكن حكمهم أشد قسوة وأقل استنارة . والبرتغال فى الوقت الحاضر دولة دكتاتورية يحكمها الدكتاتور أنطونيو سالازار . ونظام حكمه يتسم بالاعتدال وفقاً لمعايير الدكتاتوريات ، ولكنه لا يسمح بقيام أحزاب سياسية منافسة أو إجراء انتخابات حرة ، ويستخدم الشرطة السرية لتنفيذ أوامره . وأنجولا وموزمبيق دولتان بوليسيتان لهما نظام الشرطة وتتلقيان الأوامر من لشبونة .

المفروض أن حاجز اللون لا وجود له فى الأقاليم البرتغالية . وينبغى أن يكون معنى هذا أن يتوجه البرتغاليون والأفريقيون إلى نفس المدارس

الواحدة، وأن يتبادلوا الزيارات فى البيوت ، وأن يزاولوا نفس الأعمال ،وأن يحصلوا على نفس الأجور، ولكن الحقيقة أن الحياة لا تجرى على هذا الاسلوب ؛ إذ هناك فجوة واسعة بين الجنسين ، ولا يستطيع الحصول على القدر الكافى من التعليم أو اكتساب القدر الكافى من المال سوى قلة من الأفريقيين .

ويخلق البرتغاليون « المندمجين » Asimilados وهم قوم يصلون إلى مرتبة أرقى المواطنين الفرنسيين فيما وراء البحار . ويستطيع المندمجون أن يطالبوا بامتيازات خاصة ، ولكن أنجولا وموزمبيق من التأخر والفقر ، والمدارس من القلة وانحطاط المستوى ، بحيث لم يصل إلى هذا المركز الرفيع إلا حفنة من الأفريقيين . أما الباقون فهم موضع المعاملة القاسية وتجند الدولة الكثيرين منهم لبناء الطرق ونحو ذلك من الأعمال الشاقة وترغمهم على العمل فى مزارع السكر والقمح والقطن التى يحوزها ملاك الأرض البرتغاليون وهناك لا يملكون أية امتيازات ، بل ولا يحصلون من الوجهة العملية على أى أجر .

ويحال بشدة بين أهالى هذين الإقليمين وبين السفر إلى الولايات المتحدة أو أوربا خشية أن يتشبعوا بالأفكار الثورية . إن المقاومة السافرة للحكم البرتغالى ضئيلة بالفعل[1] . ويرجع السبب الأساسى فى هذا إلى أن الأهالى الوطنيين من الإرهاق والجهل بحيث لا يستطيعون أن يتصوروا حياة

---

(١) تغير الحال أخيرا حيث نشبت ثورة مسلحة فى انجولا فى أوائل عام ١٩٦١ ونوقش الأمر فى مجلس الأمن الذى اتخذ قرارا أيدته الولايات المتحدة ضد السياسة البرتغالية . (المترجم) .

أفضل . والكنيسة الكاثوليكية قوية جداً فى أنجولا وموزمبيق ، ولكنها لا تستخدم نفوذها لتوسيع أفق أتباعها الفكرى .

ويدين الكونغو البلجيكى الواقع على الحدود الشمالية لأنجولا بوجوده لأطماع الملك ليوبولد الأول ، وإلى ما اتصف به هنرى ستانلى من العزم وقوة الخلق . ومرت سنوات قبل أن تتحقق آمال ستانلى فى السلام والثراء هناك . وكان الكونغو فى أوائل عهده إقطاعية ملكية ، وقاسى الوطنيون الكثير على أيدى الموظفين البلجيكيين الذين كانوا يعاملونهم بلا شفقة . فكانت تقطع أيدى الرجال إذا لم يجلبوا المقادير الكافية من المطاط وزيت النخيل ، وينزع منهم أطفالهم حيث يحتفظ بهم كرهائن ، ويعاقبون إذا تباطأ رب الأسرة فى عمله . وهكذا كانوا يعيشون فى رعب دائم .

وحين انتقل حكم البلاد من أيدى الملك إلى الحكومة البلجيكية تحسنت الأحوال ، ولكن البلجيكيين لم ينظروا أبداً إلى الوطنيين على أنهم متساوون معهم . ولم يملك الأرض أو يستوطن فى الكونغو إلا عدد قليل ؛ وكان الأفراد الذين يختارون لإدارة البلاد يدربون على ذلك بعناية ، وكان كل موظف يتحدث بلغة أهل المنطقة التى يعمل فيها و ينتقل بينهم على الدوام ، ولكن حين تنتهى مدة خدمته فى الخارج كان يجمع مقتنياته و يرجع إلى بلجيكا .

واقتصر تعليم أطفال الوطنيين على ما فيه نفع لسادتهم البلجيكيين . ولما لم يكن من الضرورى لهم أن يتعلموا اللغة الفرنسية أو الفلمنكية لكى يؤدوا هذه الأعمال لهذا كانوا يتعلمون بلغاتهم . كان أهم درس يتعلمونه هو أن يعملوا ما يقال لهم .

و بالتدريج وفى الأراضى الموحشة التى جاهد ستانلى فى سبيل إدخال الحضارة والرخاء فيها ، اكتُشف النحاس والألماس والذهب ، وأخيراً اليورانيوم . ولـكن لم يسيطر الأفريقيون على ثروتهم إلا فى عام ١٩٦٠ . فقبل ذلك كانت المنتجات الغنية بالـكونغو تقوم باستخراجها وتسويقها الشركات الموحدة الضخمة التى تملك الحـكومة البلجيكية معظم أسهمها . وكانت بروكسل توجه كل شىء ، ولم يكن لأهل البـلاد — وحتى البلجيكيين منهم — صوت فى إدارة شئونهم . لقد كان البرلمان البلجيكى يسن القوانين و يعين الذين يقومون على تطبيقها .

وكان من شدة ضغط الزحف الـكبير أن اتخذت دول أفريقية كثيرة أشكالا غريبة وغير طبيعية . إن مساحة الـكونغو الفسيح المنبعج تقرب من مليون ميل مربع ولـكنه لا يملك سوى منفذ واحد ضيق إلى البحر . وهذه الشقة من الأرض تمتد بطول نهر الـكونغو من ليو بولدفيل إلى دلتا النهر ، وتقع بين الممتلـكات الفرنسية والبرتغالية .

وحين غزت القوات النازية بلجيكا فى عام ١٩٤٠ امتلأت نفوس

البلجيكيين في الـكونغو بحماسة منبعثة من حب الوطن ، فتحالفوا مع البريطانيين وقوات فرنسا الحرة ، و بعثوا بالفرق من الجنود السود والبيض للقتال إلى جانبهم .

و بحلول العصر الذرى أصبح اليورانيوم فجأة معدناً نفيساً وأحيط إنتاج الـكونغو بالسرية . وحرص البلجيكيون زمناً على عدم نشر أرقام الإنتاج أو مايعملون به . إلا أن المعروف أنه خلال الحرب العالمية الثانية ، وحين كان العلماء فى الدول المتحالفة يشتغلون بإنتاج القنبلة الذرية فى الولايات المتحدة ، كانت كمية اليورانيوم الرئيسية ترد من الـكونغو البلجيكى .

وتطورت العاصمة ليو بولدفيل من محطة تجارية بدائية فى عصر ستانلى إلى مدينة مزدهرة ومركز للتعليم والتجارة وتضم جامعة أفريقية ذات شهرة واسعة . وترتبط العاصمة بداخلية البلاد بالخطوط والطرق والسكك الحديدية ، وتقوم ناطحات السحاب فوق شواطىء الـكونغو الطينية حيث كان المتوحشون منذ ثمانين عاما فقط يجوبون النهر بزوارقهم الحربية للغزو والقتل .

وحتى السنوات القلائل الأخيرة سارت الحياة فى الـكونغو وفقاً للمخطط البلجيكى ، وكانت الأرباح هائلة . و بانتشار التعليم ، وتحسن النقل والمواصلات ، استيقظ أهل الـكونغو على اتجاه الأحداث العالمية .



فتاة من ليوبولدفيل

فرأوا أنهم فى مركز أفضل من جيرانهم فى روديسيا الشمالية والجنوبية حيث يقف حاجز اللون الجامد فى طريق الترقية. ولكنهم رأوا أيضاً أن الأفريقيين فى الكونغو لا يملكون من القوة والفرصة ما يقرب مما لشعب غانا المستقل.

هذا الوعى الجديد عبرت عنه حوادث الشغب فى ليوبولدفيل وجهات أخرى متفرقة. كان القائمون بالشغب يطالبون بمزيد من المال والحرية، وأسرع البلجيكيون إلى إدراك ضرورة هذه المطالب فأعلنوا فى أوائل

عام ١٩٦٠، أن الكونغو سوف ينال استقلاله كاملا فى الثلاثين من يونية . وكانوا يأملون من وراء هذا العمل المفاجىء تجنب الشقاق الخطير بين الأجناس السوداء والبيضاء هناك .

وحين جاء الاستقلال نشب الخلاف بين رئيس الجمهورية الجديد جوزيف كازافوبو ، ورئيس الوزراء الجديد باتريس لومومبا . كانت تجارب الرجلين محدودة ، ولم يتوافر لهما الوقت لتعلم أساليب الحكم أو المال الكافى تحت تصرفهما بحيث سرعان ما تقوضت سلطتهما واشتعلت الثورة . نشب التمرد فى الجيش، وتحدت القوات ضباطها البيض، وراحت تفرض القانون كما تشاء . وانفجر السخط على الحكم البلجيكى والذى ظل موضع الكبت طويلا فاتخذ صورة تهديدات وإهانات توجه إلى الأوربيين . وهجمت جماهير الغوغاء الغاضبة على البيوت فنهبتها وقتل بعض الأفراد . ودب الذعر فى صفوف البيض فى الكونغو ، وفى ذلك الاندفاع من أجل النجاة ازدحمت ألوف النساء والأطفال فى « المعديات » التى كانت تنقلهم عبر نهر الكونغو إلى برازافيل، فى حين انتظر الآخرون فى المطارات ليفروا من الخطر .

واضطر لومومبا إلى التسليم بعجزه عن السيطرة على مواطنيه وطلب من الأمم المتحدة أن تبعث بقوات لإعادة النظام . واستجابة للنداء الموجه من الأمين العام داج همرشولد أرسلت قوات تابعة للأمم المتحدة يزيد

عددها على ١٦٠٠٠ جندى ، وأغلبها من الدول الأفريقية وحين وصلت القوات خشي لومومبا أن تستخدم ضده وطالب بسحبها . لم ينقض شهر على الاحتفال بالاستقلال حتى كادت الحياة العادية تتوقف فعمت الفوضى المستشفيات والمدارس ، ونقصت السلع من الحوانيت ، وتوقفت مكاتب البريد عن العمل .

وفى هذه الأثناء هددت مقاطعة كاتانجا الغنية بثروتها المعدنية بإقامة دولة مستقلة فيها ، الأمر الذى يعتبر مأساة لأن حقول النحاس فى كاتانجا كانت عماد الرخاء فى الكونغو ، ويستحيل بدونها مواجهة مطالب البلاد.

كان فجر استقلال الكونغو قاتما عبوسا ، والمستقبل محوطا بعوامل القلق . إن مسئولية جسيمة جداً تقع على عاتق الأمم المتحدة ، وهى الوصول إلى تسوية سلمية ، فإذا أخفقت فقدت كرامتها فى أعين العالم وتدهورت قوتها ، وتضاءل الأمل فى إقرار السلام فى العالم .

والإقليم الوحيد الذى لايزال باقيا لبلجيكا فى أفريقيا هو مملكة رواندا أوراندى الصغيرة[1] التى تقع فى أعالى الجبال الاستوائية ، بين الكونغو وأوغندة . وهذ الإقليم انتدبت بلجيكا لإدارته منذ انتزاعه من أيدى ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى .

---

١ — أعلن استقلال الإقليم اعتبارا من أول يولية ١٩٦٢ بعد تقسيمه الى دولتين وهما أوراندا وبوروندى . (المترجم)



رقصة الحرب عند قبائل الواتوتسى

ورواندا ـ أوراندى بعيدة وإقطاعية . وحين جاء إليها الأوربيون منذ حوالى ثلاثمائة عام وجدوا البلاد فى حوزة قبيلتين هما : الواتوتسى ، والباهوتو .

والواتوتسى هم الحكام ، وهم قوم تبدو عليهم الأرستقراطية والغطرسة ويمتازون بالمهابة ؛ إذ يتجاوز طول الواحد منهم ست أقدام ، والكثيرون منهم أكثر من سبع أقدام وتنم هيئتهم عن الكبرياء ويرتدون الملابس ذات الألوان الزاهية . وهم يعقصون شعرهم بلصقه بالطين على هيئة كثة مقتصبة مما يجعل الواحد منهم يبدو أطول قامة من حقيقته .

ولا يقبل أى فرد من الواتوتسى أن يشتغل فى الأرض ، إذ أن هذا

العمل يؤديه الباهوتو ، وهم أكثر عدداً وإن كانوا أصغر أجساماً وأحط شأناً . فالواتوتسى يأمرون وعلى الباهوتو الطاعة . ولقد خفف الاحتلال الأوربى من وطأة حكم الواتوتسى الحديدى . ولا يستطيع الباهوتو الثبات أمامهم بمفردهم، ولهذا كانوا مدينين بالفضل لبلجيكا التى وفرت لهم الحماية .

ونشأ موقف غريب ، لأن الواتوتسى راغبون فى الاستقلال ، والبلجيكيين على استعداد لمنحه لهم . غير أن الباهوتو يتوسلون إلى البلجيكيين كي يبقوا فى البلاد ؛ إذ يعلمون تمام العلم أنه بمجرد خروج البيض فسوف يشتد استبداد الواتوتسى وتصبح أحوال الباهوتو أسوأ مما هى عليه الآن ، ويبقى أن نرى إلى متى تقوم الحكومة البلجيكية بدور العامل الذى يفصل بين القبيلتين .

الفصل العاشر

مولد جمهورية

في ٦ من مارس عام ١٨٤٤ ، ورغبة في توسيع نطاق التجارة الوطنية والمشاركة في رخاء الإمبراطورية البريطانية وقوتها ، اعترف عدد من رؤساء القبائل بساحل الذهب بسيادة ملكة بريطانيا الشابة ڤيكتوريا رسميا .

و بعد ذلك بمائة وثلاثة عشر عاما تماما أي في السادس من مارس عام ١٩٥٧ أعلنت مستعمرة ساحل الذهب استقلالها متخذة لنفسها اسما أفريقيا وهو « غانا » وكان يطلق على دولة زنجية قديمة ذات شهرة محلية كبيرة . وقرر رئيس الوزراء كوامي نكروما وحكومته البقاء في داخل مجموعة الكومنولث البريطانية .

وقبل ذلك كان حاكم بريطاني بالعاصمة أكرا يرأس برلمانا يتكون من موظفين أفريقيين و بريطانيين . و إذ تعلم الأفريقيون أساليب الحكم زاد عددهم حتى شغلوا كل منصب له أهميته .

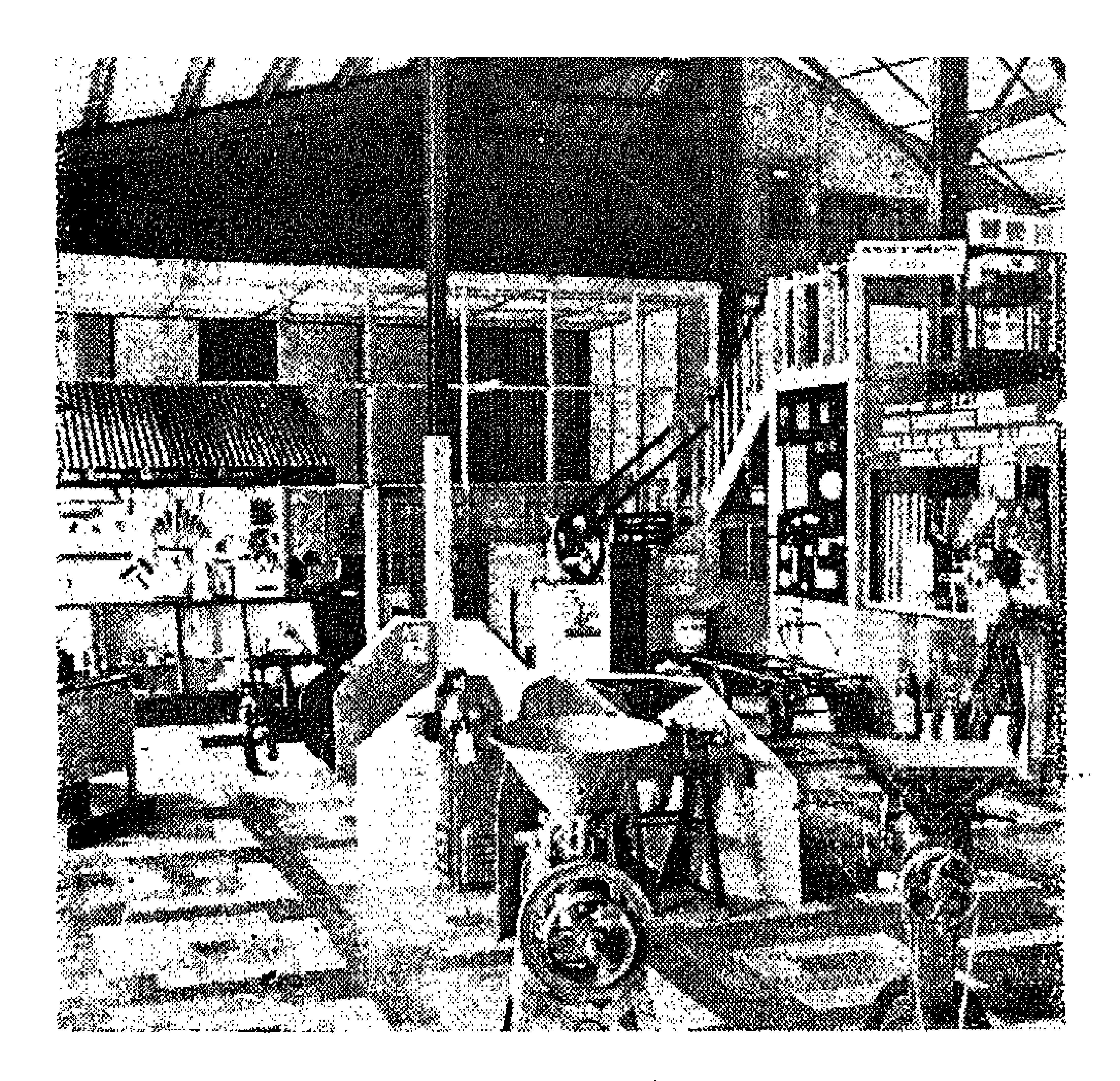
تلقى كوامي نكروما تعليمه في الولايات المتحدة و بريطانيا وعاد إلى ساحل الذهب واشتغل بالسياسة . وفي سنة ١٩٤٩ أنشأ حزب مؤتمر الشعب وجعل شعاره « الاستقلال » . ووقعت حوادث شغب ضد السلطة البريطانية ، وزج بنكروما في السجن . و بعد إطلاق سراحه تولى زعامة



كوامى نكروما

الحزب . وعند إعلان الاستقلال كان الشخصية البارزة فى غانا وأصبح أول رئيس للوزراء .

لقد تم إنجاز الكثير ولكن الحكومة لاتزال تواجه مهمة ضخمة. وليس فى البلاد الآن معارضة قوية ، فزعيم الأشانتى وهم أقوى قبيلة فى غانا يؤيد نكروما ، وتضاءلت قوة زعماء القبائل الآخرين . ولكن إنشاء شعب



إدارة جديدة لغانا

يتطاب وقتا ، إذ من السهل إثارة الغيرة القبلية ، والعنف لايزال قريبا من سطح السياسة الأفريقية .

وأنشئت فى أكرا جامعة رائعة ترتبط بجامعة لندن وتشاركها فى مستوياتها العالية . وتقوم كلية فنية فى كوماسى ، عاصمة الأشانتى القديمة بتدريب الناس على إدارة الصناعات الجديدة . و يبلغ عدد الذين تلقوا التعليم بالمدارس حوالى ثلث السكان فى المدن ، أما نسبتهم فى المناطق الريفية فلا تتجاوز واحداً فى الألف . ولاتزال البلاد تعانى نقصا فى عدد المدرسين والأطباء والفنيين . ولكن أهل غانا يتصفون بالنشاط والطموح



العمل فى قرية بمناطق الكاكاو

وليسوا بذلك القدر من الكبرياء الذى يمنعهم من طلب المشورة ، كما يتعلمون بسرعة . وبفضل الأموال العامة والمساعدة من بريطانيا والقروض الأجنبية أنشأوا الخطوط الحديدية والجسور والكبارى، وسوف تبحر سفنهم حاملة علامة النجم الأسود إلى جميع القارات ، كما استعملت الطائرات التابعة للخطوط الجوية الغانية بموظفيها الذين تدربوا على أيدى البريطانيين ويذيع راديو غانا بست لغات إلى جانب الفرنسية والإنجليزية ، وهذا مايتعين عليه أن يعمله فى هذا البلد ، الذى تعادل مساحته مساحة سويسرا ويضم عشر قبائل رئيسية ويتكلم أكثر من عشرين لغة .

وعلى الساحل المتلاطم بالأمواج ، وعلى مقربة من أكرا ، أنشئ ميناء جميل مكان قرية الصيد الصغيرة تيما. وسوف تتمكن السفن لأول مرة في هذا الجزء من الساحل من أن تفرغ حمولتها من البضائع على «الأرصفة». بدلا من نقلها بالقوارب التي تسير في الأمواج كما كانت الحال من قبل .

واكتسب ساحل الذهب اسمه هذا من تجارة الذهب القديمة بين أشانتي وتجار حوض البحر المتوسط . ولايزال الذهب موجوداً في غانا ، وتقوم باستغلاله شركة حقول الذهب في أشانتي من عروق عميقة وبالأساليب العصرية . وفي عام ١٩١٩ اكتشف الألماس ولكنه بخلاف ألماس كمبرلي عبارة عن أحجار « خشنة » ولذلك يستخدمه المهندسون في الحفر بدلا من أن يستخدمه الصاغة للزينة . والطلب شديد على هذا النوع من الألماس ويباع على الفور في الأسواق العالمية .

ولكن ثروة غانا الحقيقية مصدرها الكاكاو ، ويتوقف رخاء البلاد أو فقرها على حجم المحصول والأسعار العالمية التي يباع بها . ويزرع معظم الكاكاو بعيدا عن المدن حول قرى وطنية في أعماق الغابات ، وتقوم أسر بأكملها بجني المحصول وتكسير حبوب الكاكاو ، ثم تعبئته في سلال من أوراق الشجر المضفورة ويحملها الحمالون فوق رءوسهم ويسيرون صفاواحدا في الممرات الضيقة بالغابة ، إلى المحطات المعدة لاستقبال المحصول .

والحياة في قرى الكاكاو آخذة في التغير . ولا تزال هناك دلالات



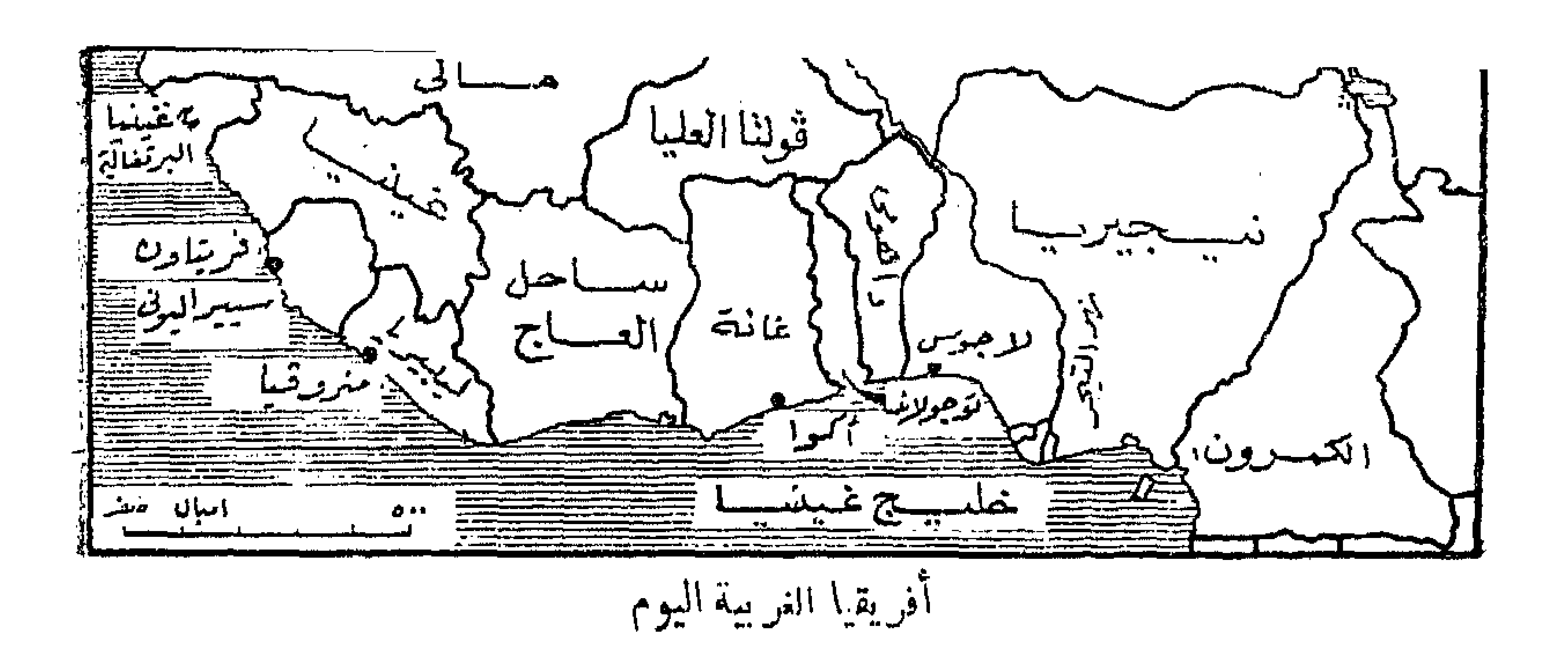
مزيد من الأطفال يلتحقون بالمدارس فى كل عام

على الأساليب الوثنية ، ويعد رجال الشامان العقاقير من الأعشاب وبنجاح كبير أحيانا . ولكن أنشئت كنائس مسيحية كثيرة وأخذ الزنوج يتغلبون على خوفهم من العلوم الحديثة . وأمام جماعات الأطباء الذين تبعث بهم المستشفيات والإرساليات على أكثر مما يستطيعون القيام به . ويعود الناس من المدن وقد ارتدوا الملابس الغربية وحملوا معهم الكتب والدراجات . وتمتد فى البلاد شبكة من الطرق ، كما أصبحت الطائرات مشهداً مألوفا .

واحترام التعليم عظيم ، ويؤدى الناس امتحانات فى القراءة والكتابة ، ويمنح الذين يجتازونها شهادات ، فى اجتماعات عامة تعتبر مناسبات رائعة

تشبه حفلات التخرج فى الجامعات . ويلبس الناس بفخر شارات عليها عبارة « التعليم الجماعى » ثم ينضمون إلى مشروعات المساعدة الذاتية حيث تقدم الحكومة المال ويقوم القرويون بإنشاء مراكز الخدمات المشتركة ومد أنابيب الماء والمجارى . ومن أبهج المناظر فى غانا مايعرف باسم « عربات الأم » Mammy wagons وهى عربات محملة بالنساء والماشية والموز والأطفال ، وكلها فى طريقها إلى المدن والأسواق . ويحب أهل غانا السفر بالسكك الحديدية أو السيارات العمومية ، وسوف يستخدمون هذه الوسائل بانتظام سريعا . وسوف يزداد عدد الذين يقتنون السيارات .

وغانا بحاجة إلى المعونة الأجنبية حتى تسير بالسرعة التى تبتغيها . وهناك مشروع يجرى العمل فيه لإنشاء سد على نهر الفولتا وتوليد كمية هائلة من الكهربا لإدارة مصنع للألمنيوم وصناعات أخرى كثيرة . وحبذت الحكومة البريطانية المشروع بالرغم من كلفته الكبيرة . وجاء نكروما إلى الولايات المتحدة يطلب مبالغ إضافية . وأرسل البنك الدولى بعثة إلى غانا لبحث المشروع عن كثب ووعد بالمساهمة فى تكاليف السد بمبلغ قدره ٩٠ مليونا من الدولارات . وفى هذه الأثناء يجرى استثمار رأس المال الأجنبى فى غانا ، وسوف تنتج المصانع الصابون والدراجات والسجاير والطلاء كما تعمل على إشباع المطالب الأخرى الآخذة فى النمو . وللسلع المادية



أفريقيا الغربية اليوم

أكثر من قيمتها الظاهرية فى نظر الأفريقى الشاب الطموح ، إذ أنها مقياس مضبوط للنجاح . فهو حين يحمل ساعة يظهر أنه قادر على معرفة الوقت وأنه مرتبط بمواعيد مهمة يتعين عليه المحافظة عليها ، وامتلاك قلم معناه أنه تعلم الكتابة ، والنظارات تدل على أنه يزاول عملا خليقا بذى علم أو يتطلب حذقا ، وحين يلبس بذلة يبين أنه أصبح متلائما مع حياة المدينة .

ويتجه الناس من جميع أنحاء القارة بأبصارهم لمراقبة كل حركة فى غانا . فإذا نجحت هذه التجربة الكبرى فى الحكم الأفريقى الكامل فسوف يقتبس الساسة الأفريقيون هذا المثل لدعم مطالبهم بالحصول على الاستقلال العاجل فى بلادهم .

وفى ناحية الشرق ، وعلى طول خليج غينيا ، تقع المستعمرة البريطانية السابقة نيجيريا التى تفصلها عن غانا شقة ضيقة من الأراضى التابعة لفرنسا والنيجريون فى الوقت الحاضر على وشك أخذ الحكم من البريطانيين[1] ، وهذه خطوة كبيرة فى الاستقلال الأفريقى ، لأن مساحة نيجيريا تعادل

---

١ — أعلن استقلالها اعتبارا من أول أكتوبر ١٩٦٠ (المترجم)

أربعة أمثال مساحة غانا وعدد سكانها يقرب من سبعة أمثال سكان غانا ويبلغون الآن خمسة وثلاثين مليون نسمة مقابل خمسة ملايين.

وفى ظل الحكم البريطانى قسمت نيجيريا إلى ثلاثة أقاليم وقامت حكومة مركزية مقرها لاجوس . ويضم كل إقليم قبيلة واحدة قوية غالبة ، وهى قبائل الهوسا ، إيبو ويوروبا ، وينتخب كل إقليم برلمانه ورئيس وزرائه ويبقى أن نرى هل سوف تتحد القبائل بعد انسحاب البريطانيين فى دولة واحدة وتطيع حكومة مركزية ؟ أوسوف تكون هناك حاجة إلى قيادة قوية لمنع التنافس وإراقة الدماء بين القبائل . إن الحرب القبلية قادرة على تحطيم استقلال نيجيريا .

وهناك مشكلات مالية أيضاً لأن نيجيريا ليست متماسكة أوغنية أو على درجة عالية من التقدم مثل غانا . فحتى الآن لم يكتشف الذهب ، وليس الكاكاو بمثل وفرته فى غانا . ولكن صناعة جديدة كبيرة قد تكون بصدد أن تنشأ الآن ، إذ اكتشف المنقبون البترول أخيرا فى إقليم دلتا النيجر .

وكان الأمراء الإقطاعيون فى نيجيريا الشمالية يمارسون مدى قرون تجارة ناجحة فى الجلود ، وهى الجلد المراكشى الشهير مع بلاد حوض البحر المتوسط . وكانت الجلود تنقل تحملها الإبل عبر الصحراء وتجلب أرباحا مجزية ، ولكن هذا لا يكفى لمعاش دولة فى القرن العشرين . ويزرع الفول السودانى

والقطن فى مساحة واسعة ويرسل المحصول إلى لاجوس ليشحن منها إلى الخارج . ولم تسخر القوة الهائلة فى نهر النيجر للأغراض النافعة بعد .

لقد قال الزعماء النيجريون إنهم يريدون البقاء فى الكومنولث . إنهم مرتبطون ببريطانيا بروابط المحبة ، ويأملون أن تتمكن من مساعدتهم على أن يحتلوا مكانا ثابتا بين الشعوب المستقلة .

وأقدم دولة زنجية مستقلة فى غرب أفريقيا هى ليبيريا . وقد جاهدت منذ تأسيسها فى عام ١٨٢٢ من أجل البقاء . وكان التقدم يعرقله دائما العداء بين الزنوج الأمريكيين وأهال أفريقيا الغربية الذين لم يغادر أسلافهم القارة أبداً . وبالرغم من انتماء الجماعتين إلى نفس الجنس الواحد فإن اللغة والنظرة تفصلان بينهما ، وتنظر كل منهما إلى الأخرى بعين الشك . وهذ الصراع لم يتوقعه الذين أنشأوا ليبيريا .

وجعلت الدول المجاورة والقبائل الوطنية والمرض والفقر الحياة خطيرة وصعبة . وبذلت الحكومة محاولات يائسة عن طريق القروض وقدر يسير من التجارة ، كى تعيش الدولة فى حدود دخلها . ولما كانت الولايات المتحدة قد قبلت المسئولية عن بقاء ليبيريا فى عام ١٩١٠ فقد خفت حدة أسباب القلق المالية ، ولكن ليبيريا لم يصبح لها أمل فى سداد ديونها وموازنة ميزانيتها إلا حين قرر « هارفى فايرستون » — قطب صناعة المطاط الأمريكى — أنه يجب على الولايات المتحدة أن تنتج المطاط اللازم لها.

ففي عام ١٩٢٥ أرسل فايرستون ابنه هارفي فايرستون الأصغر للبحث عن موضع يناسب إنشاء مزارع المطاط . وبعــد أن قام بالتنقيب في أمريكا الجنوبية والشرق الأقصى وقع فايرستون الشاب على ليبيريا . لم يكن لدى أهل ليبيريا مال أبداً للإنفاق على الأعمال العامة . وفي ذلك الوقت لم تــكن تملك البلاد طرقاً أو نقلا ميكانيكياً او مرفأ طبياً ، وكان عدد المدارس والآلات قليلا .

كل هذا غيَّره فايرستون الذى غرس أشجار المطاط وعلم الناس العناية بها . ثم زرع الرز لإطعام الذين كانوا يزرعون المطاط . وأنشأ المصانع والمستشفيات والمدارس ، وأرسل الأطباء لدراسة أمراض المناطق الحارة ، والعلماء لإجراء التجارب على أشجار المطاط .

وشعر أهل ليبيريا بالامتنان لمـــا جاءت به شركة فايرستون من التقدم والربح ، ولــكنهم يشعرون أن البلاد يحكمها المطاط الآن . والــكشف الحديث عن خام الحديد هام ، ويحاول زعماء ليبيريا أن يخففوا من قوة فايرستون واسترجاع الاستقلال السياسى والاقتصادى .

الفصل الحادى عشر

النضال ضد الاتحاد

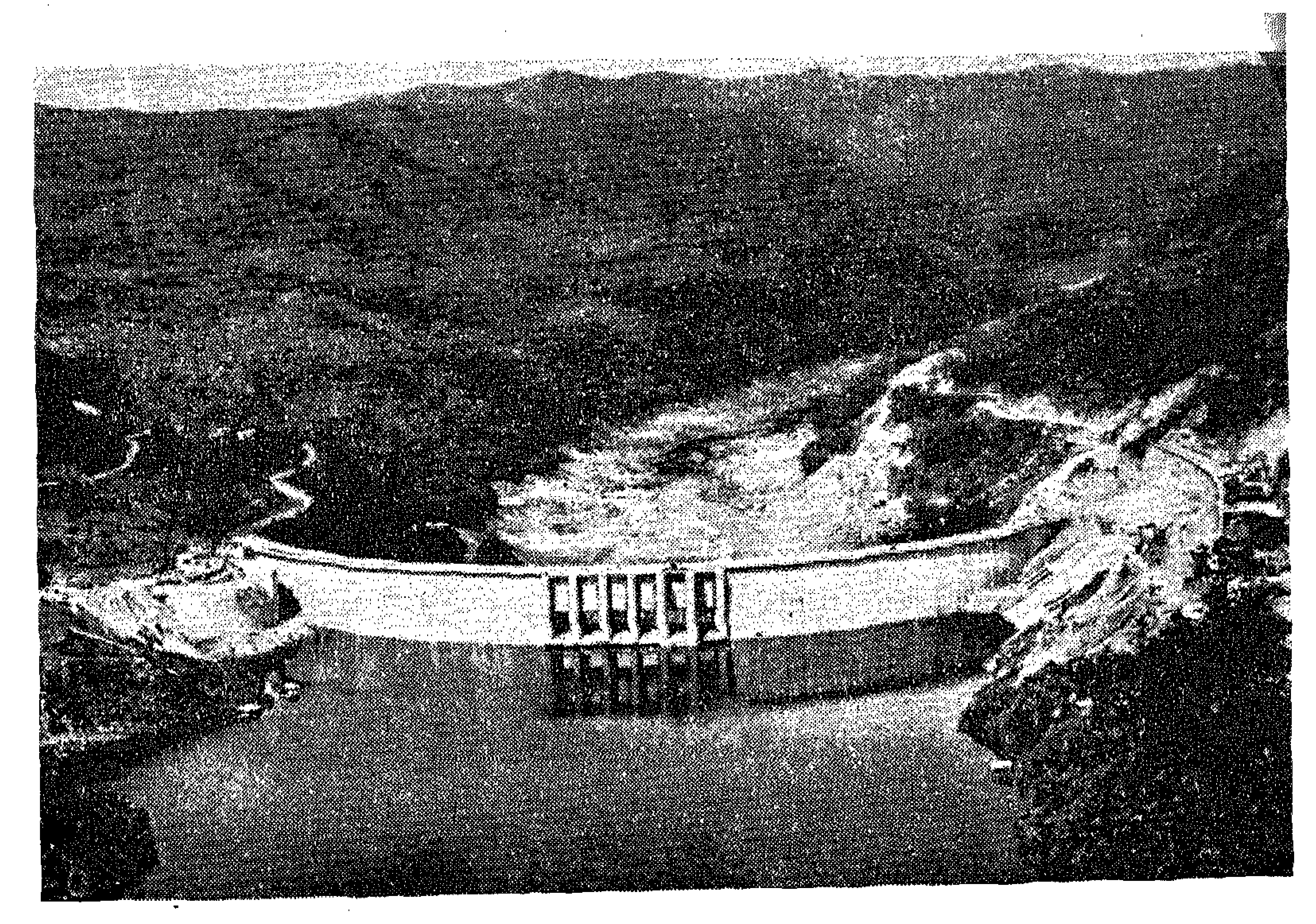
من المناطق التى تتعرض للمتاعب اليوم روديسيا الجنوبية ، وروديسيا الشمالية ونياسالاند . وكانت هذه الأقاليم منذ تأسيسها خلال موجة الزحف على القارة فى العقد التاسع من القرن الماضى ، تديرها بريطانيا ولكل منها دستور مستقل ولكنها ارتبطت عام ١٩٥٣ تحت اسم اتحاد روديسيا ونياسالاند حيث لكل إقليم برلمانه ولكنه مرتبط بالحكومة المركزية فى سالسبورى عاصمة روديسيا الجنوبية .

ويلقى الاتحاد المعارضة العنيفة من جانب الأفريقيين فى روديسيا الشمالية ونياسالاند ، فقد درجوا على قدر أوفر من الحرية وكانوا يأملون أن يكون لهم نصيب أكبر فى الحكومة ، بالقياس إلى جيرانهم الأفريقيين فى روديسيا الجنوبية . أما الآن فإنهم يخشون ألا يقف الحكام البيض فى سالسبورى عند حد رفض توسيع نطاق القوة السياسية للأفريقيين فى روديسيا الشمالية و نياسالاند وإنما قد يحرمونهم من الحقوق التى يملكونها الآن .

لقد أعد زعماء حزب المحافظين فى بريطانيا الخطط ونفذوها . وكانوا على بينة من معارضة الوطنيين ولكنهم قرروا أنه من السهل تحويل اتجاه

الأفريقيين بفضل الإقناع من جانب الساسة من جنسهم ممن لايعرفون بالضرورة ماهو خير لهم . وكان هدف البريطانيين إقامة دولة فى وسط أفريقيا على درجة من الرخاء الذى يجعلها تعيش بمواردها ، ومن القوة بحيث تقف فى وجه أية محاولة يمكن أن يقوم بها البوير لمد حدود اتحاد جنوب أفريقيا .

ويملك كل من هذه الأقاليم الثلاثة شيئاً يفتقر إليه غيره من أعضاء الاتحاد . وكان واضحاً لمن أيدوا الاتحاد أنه إذا ارتبطت أراضى الطباق فى روديسيا الجنوبية بالثروة المعدنية التى يشتمل عليها « حزام النحاس » روديسيا الشمالية ، وإذا عاون أهل نياسالاند المجدون ، وإن كانوا فى



سد كاريبا

حالة فقر ، على سير كلتا الصناعتين ، فسوف يكون ذلك أفضل بالنسبة إلى الجميع . كانوا يأملون أن يدرك الأفريقيون الثائرون هذا وأنهم سوف يؤيدون الاتحاد بعد قليل .

ولكن الآمال لم تتحقق ، ولم تخف عاصفة الغضب بالرغم من إنجاز بعض المشروعات الطموحة فى السنوات القلائل الأخيرة ، وفى مقدمتها سد كاريبا الذى أقيم بتكاليف باهظة عبر خانق متسع فى نهر زمبيزى . والمياه المتدفقة من هذا السد الكبير تدير أقوى محطة لتوليد الكهربا فى أفريقيا مما يعود بالفائدة الضخمة على جميع الأقاليم الثلاثة . وجاء المال اللازم لبناء السد من الحكومة البريطانية وشركات النحاس فى روديسيا الشمالية والبنك الدولى الذى عبر بذلك عن إيمانه بمستقبل الاتحاد .

إن الرواد الذين فتحوا أبواب القارة المظلمة فى القرن التاسع عشر حملوا مواطنيهم مسئولية جسيمة ، وأصبحت القبائل التى أخضعها الإنجيل أو المدفع تعتمد على حكمة وكفاية البيض الذين جاءوا ليتسلطوا عليها .

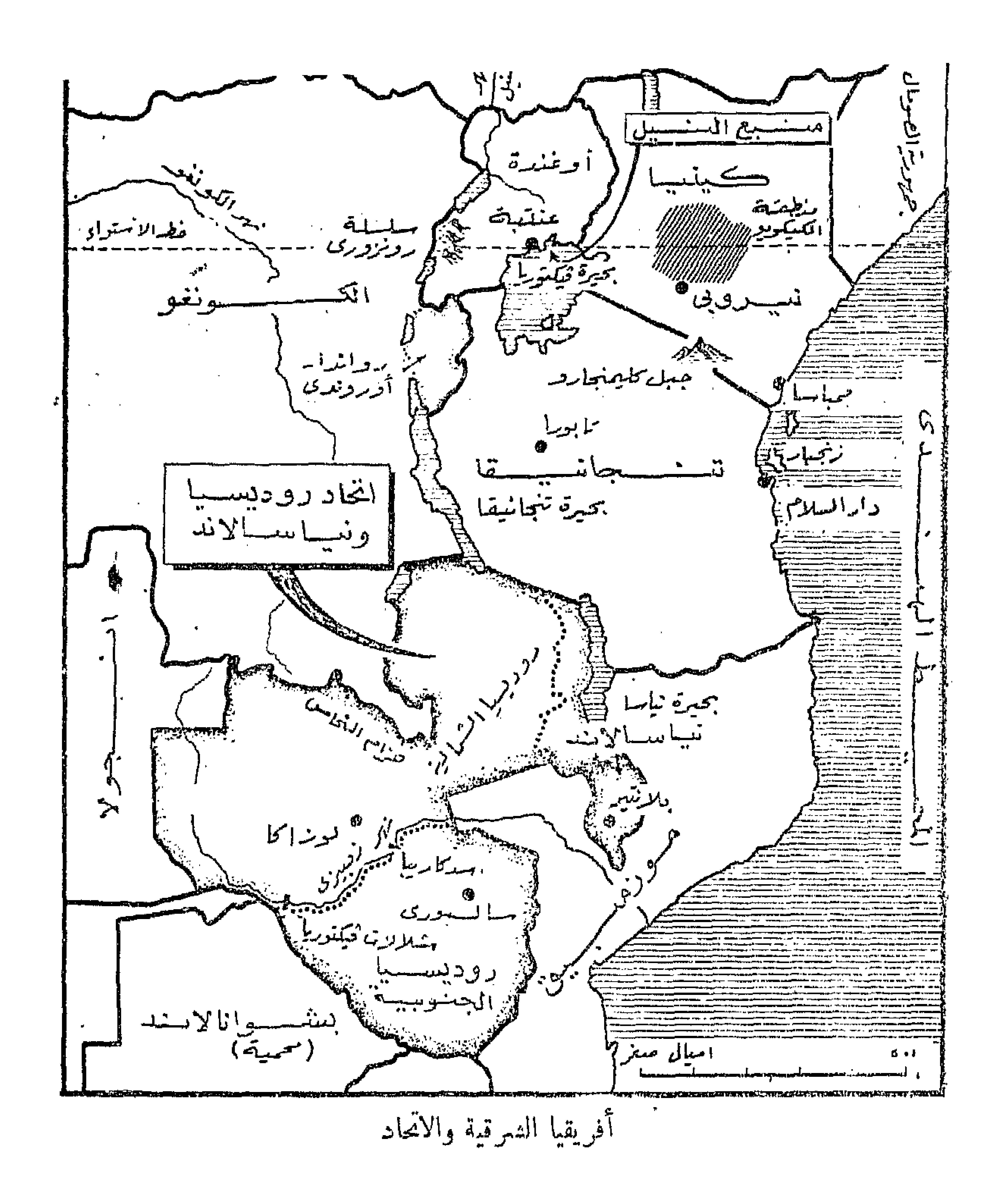
وروديسيا الشمالية هى أرض سيسيل رودس الذى بدأ عملية الاحتلال البريطانى بشراء « حق الحفر » وأكمله بسحق قبائل ماتابيلى وماشونا فى ميادين القتال . وبعد هذه الهزيمة لم يعد هناك زعماء أفريقيون أقوياء بالقدر الذى يجعلهم يدافعون عن حقوقهم القبلية ، وبذلك تسلط المستوطنون وأداروا البلاد على طريقتهم الخاصة دون أن يجعلوا للأفريقيين صوتاً فى

الحـكومة . ولم يجد شيء يقضى على هذه السيطرة ، ولهذا لا تزال السيادة البيضاء قائمة فى روديسيا الجنوبية .

ويكاد حاجز اللون يكون بمثل عنفه فى اتحاد جنوب أفريقيا ، فمزارع الطباق كلها ملك للفلاحين البيض ويشتغل فيها العمال السود . ويعيش الـكثيرون من الأفريقيين فى معازل شديدة الازدحام ولا يحصل إلا القلائل منهم على التعليم الذى يؤهلهم لمزاولة الحرف الحاذقة . وفى المدن قوانين للمرور ، كما نجد مناطق يحرم على السود أن يسكنوا فيها .

والأفريقيون غير ممنوعين من التصويت ، ولـكن قبل أن يتمكنوا من تسجيل أسمائهم فى قوائم الانتخاب يتعين عليهم أن يصلوا إلى مستوى معين من التعليم ، وأن يملـكوا مبلغاً معيناً من المال . والواقع أن المستوى المطلوب من الارتفاع بحيث لا يستطيع بلوغه سوى قلة ضئيلة جداً من الأفريقيين .

وبالرغم من هذا فثمة دلائل على اتجاه جديد أكثر استنارة فى معالجة العلاقات العنصرية . ومن الأعمال الهامة والمتسمة بالشجاعة فى هذا الصدد إنشاء الجامعة الجميلة بالقرب من سالسبورى والتى تفتح أبوابها أمام الطلاب السود والبيض ، وتزحف البيوت التى أحسن تخطيطها على الأكواخ الحقيرة المتفككة . والمستشفيات والـكنائس المسيحية آخذة فى الانتشار بالبلاد . ولـكن لا تزال فرصة اشتراك الأفريقيين فى الحـكم ضئيلة .



أفريقيا الشرقية والاتحاد

وكان تأسيس روديسيا الشمالية أكثر تدرجاً وسلمية . فحوالى نهاية القرن التاسع عشر اتجه صوب الشمال المنقبون عن الذهب الذين أحسوا بالخيبة حين لم يكتشفوا عروقاً غنية من هذا المعدن فى روديسيا الجنوبية . وعقدوا المعاهدات مع رؤساء القبائل ، وشدوا الرحال لاستغلال البلاد وتنميتها .

وفى مستهل القرن الحالى عثروا على حزام من النحاس يبشر بالأمل ، ولكن لم تتكون الشركات الكبرى لاستغلال هذه الثروة الجديدة إلا عام ١٩٢٨ ، وفى هذا الوقت كان قد تم وضع دستور تدير بمقتضاه الحكومة البريطانية الإقليم عن طريق ما للزعماء المحليين من سلطة . وظل هذا التنظيم يحقق الغرض منه بصورة سلمية نوعاً إلى أن بزغ فجر الاتحاد .

أما نياسالاند ، ثالث أعضاء الاتحاد وأشدهم فقراً ، فإقليم طويل جبلى يسير متموجا على طول شواطىء بحيرة نياسا . هذه البلاد الجبلية المغطاة بالغابات لم تنتج الذهب أو الألماس أو النحاس أو المحصولات الوفيرة . ويملك الأفريقيون المزارع التى يقسمونها إلى قطع صغيرة يزرعونها. ولا يستطيع أهل نياسالاند الاعتماد فى معاشهم على الأرض ، ولهذا ينتقلون إلى المدن والمناجم البعيدة بحثاً عن العمل ، إن المسافة من وسط نياسالاند إلى مدينة الرأس ألفا ميل ، ولكن الكثيرين منهم يقطعون هذه الرحلة سيراً على الأقدام . إنهم أقوياء ويتصفون بالجد والنشاط ، والطلب عليهم شديد .

إن الانجليزيين اللذين لعبا دوراً هاماً فى تشكيل الحكم البريطانى فى نياسالاند ومن بعدها فى أوغندة كانا يختلفان من ناحية الخلق والتعليم ، ولكن رابطة مشتركة كانت تصل بينهما ، ذلك أن رغبة ملحة كانت

تعتمل فى نفسيهما كى يخلقا القانون والنظام من الفوضى القائمة فى أفريقية وكرسا حياتهما لهذه المهمة .

كان فردريك لوجارد جندياً بحكم ميله ومهنته ، وكان شاربه الطويل المدلى يجعله يبدو كنموذج لضباط الجيش فى عهد الملكة ڤيكتوريا . وبدأ حياته الطويلة فى أفريقيا عام ١٨٨٨ بالقتال ضد آخر تجار الرقيق حول بحيرة نياسا . وكان مليئاً بالتحمس الوطنى وعلى اقتناع بتفوق قيمة الإمبراطورية البريطانية ولم يدخر جهداً فى أن يدخل الأفريقيين فى ظل حمايتها القوية . كان لوجارد لايهاب شيئاً ولكنه كان متواضعاً ، وكان يعتبر من المسائل البديهية أن يكون المرء شجاعاً وأن يأخذ نفسه بأسباب النظام . وبعد ذلك أرسل إلى نيجيريا حتى ظل حاكما فيها إلى عام ١٩١٩ . وهو الذى وضع أساس استقلال نيجيريا ونال الجزاء على خدماته الممتازة .

والشخص الآخر فى عملية بناء الإمبراطورية فى نياسالاند هو هارى جونستون وكان فنانا وكاتبا وعالما نباتيا ودارساً للغات البانتو ، وكان يحب أفريقيا ويسعى إلى أن ينعم أهلها بالسلام والعدل . وكان يشعر بالسعادة وهو فى أبعد الأماكن عن مراكز الحضارة يحيط به جلال البحيرات والجبال وجمال الطيور والفراشات وثراء الخضرة والنبات . وكان يرسم ويكتب بصفة مستمرة وخلف لنا تسجيلات رائعة للأسفار

التى قام بها وتعليقات أريبة على الشئون الأفريقية .

كان جونستون صغير الحجم يبدو كالأطفال ، وله بشرة يمتزج فيها اللون القرنفلى بالأبيض . ولكن مظهره الضئيل الذى يدل على صغر السن كان يخفى وراءه قوة احتمال هائلة . فبدون خبرة عسكرية سابقة من أى نوع رسم خطط الغارات الجريئة على تجار الرقيق والقبائل الشرسة ممن كانوا يشيعون الرعب فى نياسالاند . ولم يتوان أبداً عن أن يصحب رجاله فى أشد الحملات إرهاقاً وخطراً . وجند جنود السيخ من الهند وألبسهم البذلات الرسمية ذات اللون الأسود والأصفر والأبيض ليكون ذلك رمزاً على الصداقة بين الشعوب الأفريقية والهندية والأوربية وبفضل مزيج من القوة المسلحة والفهم نشر السلام والهدوء فى منطقة واسعة ومهد الطريق إلى الحكم البريطانى .

وبالرغم من أن الفائدة التى يجنيها أهل نياسالاند من انضمامهم إلى الاتحاد أعظم منها فى حالة غيرهم من أعضائه فإنهم يعارضونه بشدة ويبدون العزم على الانفصال عن روديسيا الجنوبية وبالثورة السافرة إذا دعت الضرورة . بل إنهم فكروا فى تكوين اتحاد مع تنجانيقا جارتهم الشرقية التى يعتبرونها فقيرة ولكنها أمينة .

ومن المقرر أن يعاد النظر فى دستور الاتحاد فى عام ١٩٦٠ ، ولكن من الصعب أن نتصور أى حل يعود بالنفع على الجميع ويكون موضع القبول منهم.

ويحد الاتحاد من جانبه الشمالى الشرقى إقليم تنجانيقا الذى انتدبت بريطانيا لإدارته من قبل عصبة الأمم . وكان يعرف حتى عام ١٩١٨ باسم أفريقيا الشرقية الألمانية ، وهى البلاد التى عقدفيها المستكشف كارل بيترز معاهدات لاعد لها مع زعماء البانتو ، ومهد الطريق أمام بسمارك كى يطالب بأن يكون الإقليم مستعمرة ألمانية .

وأعلنت الحكومة البريطانية أنها لا تعتزم تولى الإدارة فى الإقليم إلا « إلى الوقت الذى يتم فيه الوصول إلى الهدف النهائى وهو الحكم الذاتى » . وتنجانيقا بلد كبير ولكنه ليس كثير الإنتاج ويقل فيه عدد البيض ولكنهم متفرقون فى المناطق الزراعية . وفى هذا المكان وعلى الشواطىء البرية الجميلة المحيطة ببحيرة تنجانيقا تلاقى ستانلى ولفنجستون منذ قرن مضى تقريباً .

واليوم يتولى عرض قضية استقلال تنجانيقا عرضا قديراً سياسى شاب يتصف بالحكمة والاعتدال هو « جوليوس نيريرى » . إن الصبر من الصفات النادرة فى السياسة الأفريقية ونيريرى بعيد النظر . إنه شخصية بارزة بين القادة الأفريقيين اليوم ، ومن أولئك القلائل الذين يبدون القدرة والاستعداد لمناقشة وجهى أية مسألة . إن الكثيرين منهم يستطيعون أن يروا الصعاب والأخطار المترتبة على الاستقلال المفاجىء ولكنهم لا يجسرون على النزول على نصيحة الأوربيين مهما بدت حكيمة ،

خشية أن يغضبوا أتباعهم الأفريقيين .

وعلى مقربة من ساحل تنجانيقا تقع الجزيرة الاستوائية زنجبار التى تربض فوق سلسلة من الصخور المرجانية . وظلت زنجبار قرونا يحكمها سلاطين من العرب هم الآن تحت حماية بريطانيا . وكانت طلية سنوات كثيرة مركز تجارة الرقيق العربية ولكن حين أغلقت الأسواق تحول التجار من العبيد إلى التوابل ، وأصبحت زنجبار مشهورة باسم جزيرة القرنفل الذى يفوح عطره فيملأ الجو . والقرنفل عبارة عن براعم إحدى الأشجار ويجرى التقاطها قبل أن تتفتح . ويزرع من القرنفل فى زنجبار أكثر مما يزرع فى أى مكان آخر فى العالم . وفى حدائق القرنفل وأحراج أشجار جوز الهند المتماوجة يشتغل خليط من الناس تباينت ألوانهم ، جنباً إلى جنب . ففى هذه الجزيرة الاستوائية يعيش الأفريقيون والعرب والهنود ومجموعة من الأوربيين الذين ينتمون إلى جنسيات كثيرة معا وفى سعادة تماماً . ولم تتغير المدن كثيراً عما كانت عليه حين جند ستانلى الزنجباريين لمصاحبته فى رحلته إلى الكونغو . فقباب المساجد تلمع فى ضوء شمس المناطق الاستوائية وتمتد الأقواس المنحوتة عبر الشوارع الضيقة من جانب إلى آخر . والأبواب الخشبية الثقيلة المؤدية إلى الأفنية الظليلة لا تزال تضم المسامير النحاسية الكبيرة التى كانت توضع فى الأصل لتتفادى هجمات الفيلة البرية . والزنجباريون من طراز عتيق ، وبالرغم من

بعض حديث عن الاستقلال فإنه لم تقع قلاقل حتى الآن .

وفى داخل القارة وإلى الشمال الغربى من تنجانيقا ، تقع المحمية البريطانية أوغندة ، وهى دولة تكاد تكون أفريقية تماماً ؛ إذ تضم خمسة ملايين نسمة ، نسبة الأوربيين منهم إلى الأفريقيين تبلغ فى المتوسط واحداً إلى ثمانمائة .

وتشغل أوغندة هضبة مرتفعة تحدها من الغرب جبال القمر . وتختفى القمم فى السحاب ، أما السهول فرقيقة تكسوها الخضرة . ولقد زار ونستون تشرشل فى شبابه هذه الدولة الجبلية وكتب يقول : « إن أوغندة أشبه بقصة خيالية » . والأرض يملكها ويستغلها الأفريقيون الذين يزرعون البن والشاى وقصب السكر والقطن والطباق بنجاح كبير . ومدت باجندا[1] — وهى القبيلة الرئيسية فى البلاد — طرقا جميلة ومستقيمة للتنقل عليها ، كما أنشأت لسكانها بيوتاً أنيقة من الغاب تظلل الكثير منها أحراج الموز الخاصة .

وفى جنوبى أوغندة ، وعند منفذ فيكتوريا نيانزا ، حيث حدق المستكشفان سبيك وجرانت النظر فى منبع النيل بشعور من الفوز والعجب ، أقيم سد عظيم عند شلالات أوين ، وهو عمل هندسى رائع لا يفوقه سوى سد كاريبا . وإنه لمن المناسب أن هذا المجرى الأسطورى الذى يسير فيه

---

(١) (با) تعنى الشعب أو الناس .

النيل والذى اجتذب إلى شواطئه الحضارة القديمة ، يسهم أيضاً فى تحقيق التقدم فى العصر الحديث .

وحين توغل المستكشفون والمبشرون الأوائل فى هذا البلد الجبلى وجدوا فى باجندا مملكة منظمة على رأسها أسرة مالكة ترجع بتاريخها إلى أجيال كثيرة خلت . إن الأسماء المحلية تدعو إلى الحيرة والاضطراب . فاسم القبيلة باجندا ، ولغتها لوجاندا ، والأرض بوجندة . وتشمل دولة أوغندة كلها والتى أنشأها البريطانيون بوجندة وعدة ولايات أخرى يحكمها ملوك أفريقيون .

وظلت قبيلة باجندا تسيطر على القبائل الأصغر منها قرونا . . وحين وفد المسيحيون الأولون اجتذب الدين الجديد الزعماء فاعتنقه الكثيرون منهم وحذا حذوهم رجال القبيلة . وطرحوا الملابس السمراء المصنوعة من لحاء الأشجار وارتدوا الملابس البيضاء اللامعة المصنوعة من القطن الذى كان تجار زنجبار يستوردونه . ولسوء الحظ لم يستطع المسيحيون الاتفاق فيما بينهم واشتبكت بعثات التبشير البروتستانتية والكاثوليكية فى صراع من أجل اجتذاب باجندا إلى مذاهبها الخاصة بها ، وهو صراع كان أبعد ما يكون عن الروح المسيحية . وجاهد رجال الدين من العرب أيضا كى يدخلوا الناس فى الإسلام .

وأساليب الكاباكا أو المملوك فى باجندا تتصف بالجلالة للغاية .

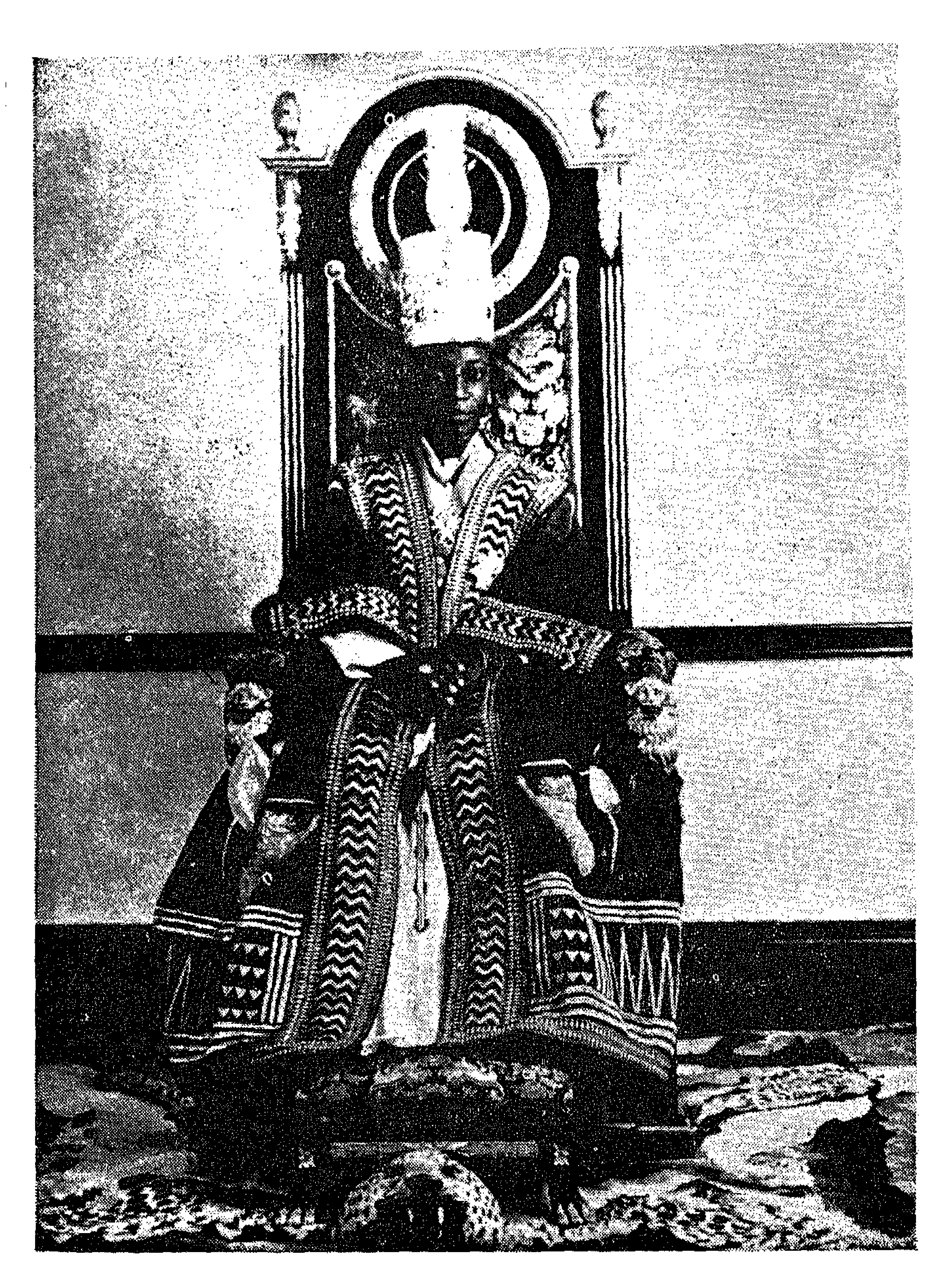
والـكاباكا الحالى ، وهو متيسا الثانى تعلم فى جامعة كمبردج ويجمع فى شخصه بين الأفكار الأوربية والولاء لتقاليد شعبه القديمة . وكان الموظفون البريطانيون يحترمون سلطان الـكاباكا وحاولوا أن يتعاونوا معهم على ما فيه خير أوغندة بصورتها الـكاية . إلا أن المتاعب كانت تنشأ من حين لآخر . وفى سنة ١٩٥٣ ، وهى السنة التى أعلن فيها قيام اتحاد روديسيا ونياسالاند ، نفى البريطانيون الـكاباكا الذى كان يتولى الحـكم ، وهو متيسا الثانى .

ويرجع ذلك الإجراء إلى أن متيسا رفض إرسال ممثلين إلى برلمان أوغندة إذ كان يعرف أن البريطانيين يحاولون إقامة نظام ديموقراطى على غرار الأسلوب الغربى وهذا ما لم يكن يناسبه . كان يفضل أن ينفرد بالسلطان ولا يريد أن يتعاون مع ملوك الأقاليم الأخرى ممن كان يعتبرهم دونه منزلة . وكذلك خشى متيسا أن يكون الإنجليز بصدد إعداد مشروع لإنشاء اتحاد فى شرق أفريقيا تنضم إليه بوجندة . وكان مصمما على ألا تتحكم فى شعبه حكومة بيضاء فى كينيا ، ولذلك حاول أن يعزل مملكته عن التدخل الخارجى . ولما كانت بوجندة أغنى أقاليم أوغندة الأربعة لهذا لم يكن فى إمكان البريطانيين التخلى عنها بغير نضال .

صعق رجال القبيلة عند صدور قرار الإبعاد وحين غادر ملـكهم البلاد أحسوا أنهم من غير قائد وأنهم فى حالة ضياع . لقد ظلت الوراثة

قرونا لا ينازع فى أمرها أحد ، وكاد الكاباكا يكونون من الشخصيات المقدسة . ولم يكن فى وسع رجال القبيلة أن يفكروا فى انتخاب ملك من أية أسرة أخرى ، وغرقوا فى لجة الغم والحزن ، وإذ كادت الحياة فى بوجندة تتوقف قررت بريطانيا أخيراً إلغاء أمر النفى وأعيد متيسا الثانى إلى عرشه وسط مظاهر الابتهاج الشديد .

ولكنه لم يصبح أقل انصياعا وخضوعا منذ عودته . وإذ يلوح الاستقلال فوق الأفق فإن السياسيين فى أوغندة يستجمعون قواهم وتجرى مناورات كبيرة من أجل الوصول إلى القوة . وتتكون الأحزاب المتنافسة من الكاباكا وأتباعه ممن يصممون على الاحتفاظ بالنظم الإقطاعية ، ويعارضهم زعماء آخرون فى بوجندة أكثر تشبعا بروح العصر ، ومعهم قادة غيرهم من الأقاليم المجاورة ممن هم على استعداد تام لقبول ما تعرضه عليهم بريطانيا من الاشتراك فى الحكم ماداموا لا يملكون القوة الكافية التى تمكنهم من أن يحكموا الدولة كلها . وتقف بريطانيا الآن موقف الحكم ، وعلى استعداد للانسحاب حين يتمكن المتنافسون من الاتفاق فيما بينهم .



متيسا الثانى كاباكا بوجندة

الفصل الثانى عشر

ماو ماو

فى المستعمرة البريطانية كينيا نجد الناس وقد فرق بينهم العداء ، يطاردهم الخوف . ولهذه المشاعر من القلق والتعاسة أسباب كثيرة ؛ ففى كينيا مجتمع متعدد الأجناس، أى يعيش فيه عدد من الأجناس ،لا يقتصر على الأفريقيين والأوربيين فحسب ، بل ويشمل العرب والهنود أيضاً.

ومن أقدم السكان هناك العرب الذين اجتازوا البحر الأحمر فى العصور القديمة بزوارقهم الوطنية ، وأنشأوا مدينة ممباسا ، ومدوا شبكة من طرق التجارة بين الساحل والداخل . ووفد معظم الهنود خلال القرن الماضى كعمال أو تجار ثم أقاموا فى البلاد . وهم غير محبوبين بوجه عام . وهذا شعور بعيد عن الإنصاف إلى حد ما ، ولا يثق بهم الأوربيون والأفريقيون أو يميلون إليهم . والحقيقة أنهم أسدوا خدمة طيبة فى أفريقيا وأسهموا فى تحقيق الرفاهيـة والرغد لأهلها ، إذ نظرا لموهبتهم التجارية زاولوا التجارة فى إصرار وحملوا البضائع إلى مناطق ما كان يتراءى لأى أوربى أنها تستأهل أن يدخلها . والكثيرون منهم على ذكاء ومقدرة ، وجمع بعضهم قدرا كبيرا من المال . وقد اتخذوا من

أفريقيا وطناً لهم ، وإنهم يعتبرون من جميع النواحي أفريقيين . ولو قُدِّر لهم الخروج من القارة لحدثت ثغرة واسعة في نشاط الأعمال بأفريقيا الشرقية وأصبح الكثير من الناس أسوأ حالا .

ووصل أول المستوطنين البريطانيين إلى كينيا في بداية القرن الحالي وكانوا في الأغلب من رجال الإرساليات الدينية ممن حذوا حذو رجال من أمثال لفنجستون واستجابوا إلى نداء إحدى جمعيات التبشير التي كانت تجاهد من أجل مساعدة الأفريقيين . ووفد في أثرهم مباشرة المهندسون الذين استعانوا بالعمال الهنود في مد خط حديدي من الساحل مخترقا كينيا بقصد فتح طريق الاتجار مع أوغندة . ثم جاء الفلاحون الذين أقاموا في الأرض التي بدت خالية من السكان واشتروها بعد ذلك على ما ظنوا من الرؤساء القبليين . وموضوع شراء الأرض مصدر متاعب لا نهاية لها وسوء تفاهم بعيد الغور بين المستوطنين البيض ورجال القبائل الأفريقية .

ولما لم يكن المستوطنون البريطانيون على إدراك لهذا النزاع الذي يوشك أن ينشب راحوا يشغلون الأرض ويزرعونها بصورة طيبة ، فأدخلوا نظام الري ، وزرعوا البن ، وأصبحت الأرض غنية وخصيبة ونبذوا كل فكرة للإقامة في إنجلترا ، واتخذوا من كينيا وطنا لهم . وبفضل التأييد من جانب الحكومة البريطانية جاءوا بالمال إلى البلاد، وأنشأوا مدينة

نيروبى ، وبدأوا يقيمون المدارس والمستشفيات والمصانع .

غير أن هؤلاء المستعمرين لم يروا أبداً أن الأفريقيين يستحقون أن يساووهم فى الحقوق . كان الفلاحون البريطانيون يستخدمون الأخيرين فى مزارعهم الواسعة ، وكان رجال الأعمال يستخدمونهم فى مصانعهم ، ولكن الأجور التى كانت تدفع إلى الأفريقيين ، والحرف التى كانوا يمارسونها ، كانت دائما دونها فى حالة العمال البيض . وجنبت الحكومة البريطانية مساحات من الأرض على صورة معازل للوطنيين تستطيع أن تعيش فيها القبائل بعائلاتها وقطعانها . ولكن كما المعازل — هو الشأن فى جنوب أفريقيا وروديسيا الجنوبية — سرعان ما أصبحت مكتظة بأهلها واضطر الأفريقيون إلى التوجه إلى المدن سعيا وراء العمل .

وأكبر قبيلة فى كينيا هى كيكويو ومن أفرادها تكونت الماو الماو ، تلك الحركة التى تزعمت الثورة فى جميع أنحاء كينيا فى أوائل الخمسينات من القرن الحالى . الواقع أنه لم ينضم إلى الحركة سوى نسبة يسيرة من رجال الكيكويو ولكن الذين انخرطوا فى سلكها أكسبوا القبيلة سمعة مخيفة . لقد انتهت المحنة الآن ، ولكن القصة تعد من مآسى أفريقيا الحديثة ، وترجع إلى مستهل هـــذا القرن حين وصل أول المستوطنين البيض إلى كينيا .

فى ذلك العهد كان الكيكويو قد قاسوا سلسلة من النكبات الرهيبة حين اجتاح الجدرى البلاد ، وأعقبه جفاف ، ثم هجوم مدمر شنته أسراب الجراد ومات الكثيرون من الكيكويو، أما الآخرون ممن فقدوا كل شىء بعد المصائب التى حلت بهم فغادروا حقولهم المسودة وقد غمرهم اليأس . وهكذا تصادف أن وجد البريطانيون عند وصولهم أن الأرض خالية من أهلها ، فراحوا يشغلونها ، مما أثار الغضب والفزع فى نفوس رجال القبيلة . وساءت الأمور حين دفع المستوطنون ثمن الأرض إذ شعروا فى هذه الحالة أنها صارت حقا لهم وتجاهلوا احتجاجات الكيكويو .

من الحقائق المسلم بها فى العالم الغربى أن الأرض يستطاع شراؤها شأنها فى هذا تماما شأن البيوت والسيارات وأجهزة التليفزيون وبمجرد أداء ثمنها تصبح ملكية مطلقة لحائزها . ولكن الأمر يختلف عن هذا تماما عند قبائل البانتو حيث أرض القبيلة مقدسة وتملكها بصفة دائمة . فهى تعتقد أن حياة القبيلة وروحها مرتبطان بحقولها ومراعيها . وأن الأرض ليست من الأشياء التى يمكن للمرء أن يبيعها . وعند مجىء المستوطنين البيض إلى كينيا كان هذا الشعور من ناحية الأرض أقوى عند الكيكويو منه عند أية قبيلة أخرى ؛ لأن الأسر كانت تملك الأرض بصفتها الشخصية وكانت واثقة من إمكان انتقالها من الأب إلى الابن. وظن الكيكويو أن الأوربيين إنما دفعوا ثمنا مقابل استخدام

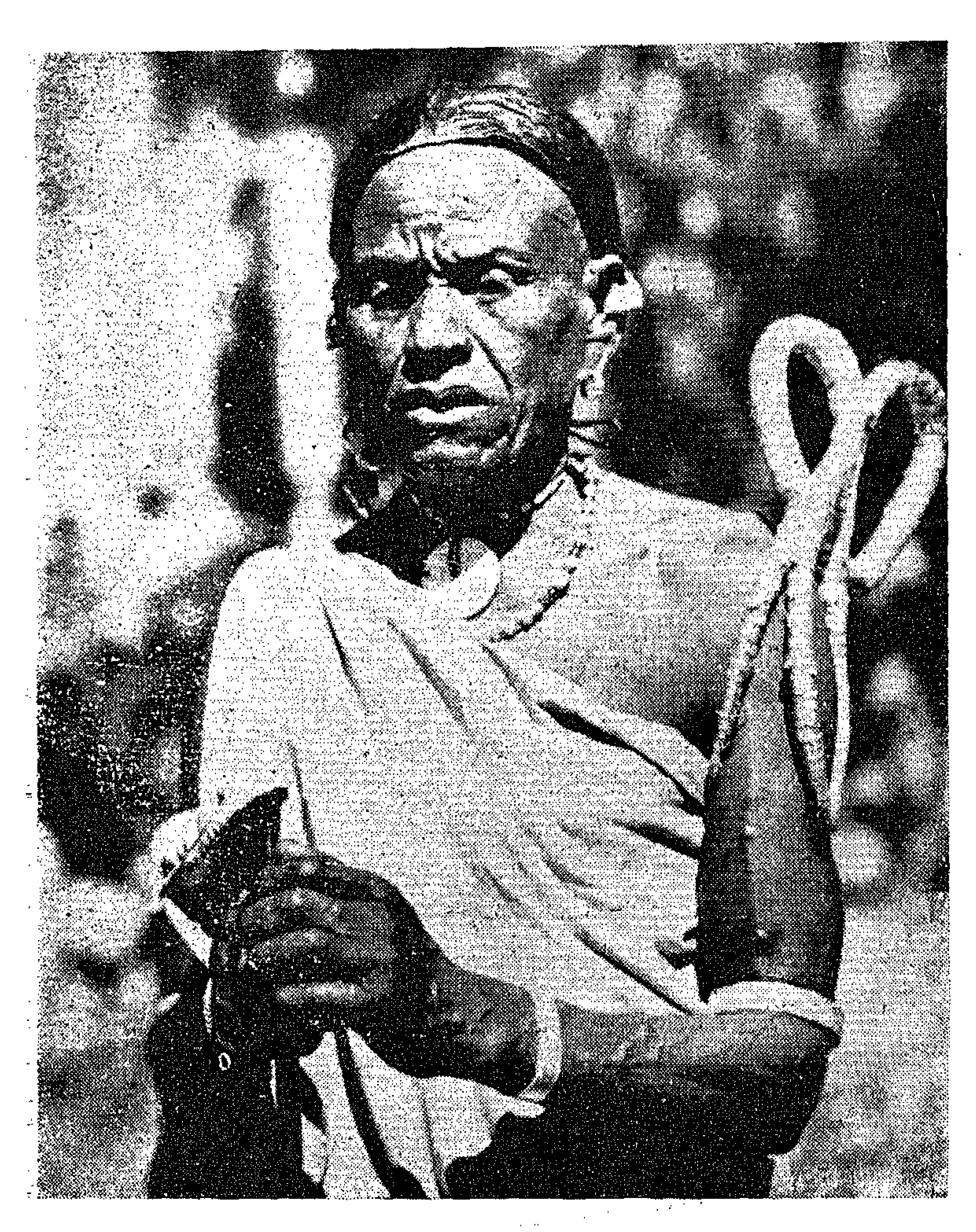


تؤدى نساء قبيلة كيكويو معظم الأعمال

الأرض بصورة مؤقتة ، ولم يداخلهم الشك فى أنهم يستطيعون استرجاعها حينما يشاءون .

وحين وضح أن البريطانيين يظنون أن الأرض أصبحت ملكاً لهم إلى الأبد لاينوون إعادتها إلى أصحابها استشار الزعماء رجال الشامان بشأن هذه الخسارة التى لحقت بهم . كانوا متدينين للغاية ، كانت جميع أفكار الكيكويو وتصرفاتهم توجهها معتقداتهم الوثنية . كانت القبيلة غارقة فى السحر وتطيع الشامان طاعة عمياء لاتقبل الجدل . وكانوا يعبدون فى احترام وخوف شديد إلهاً عظيما يقال له ناجى nagi يقيم فى أربعة مواضع بالجبال المقدسة فى كينيا ، يرى كل شىء ويعلم كل شىء . وكانوا يؤمنون بأنه لامنجاة لهم من هذا الإله الذى يراقبهم بصفة دائمة ، أو من أرواح أسلافهم والأرواح الأقل شأناً التى تسكن الصخور والأشجار والشلالات . وكانوا يثقون ببركات السحر الأبيض وتمتلىء نفوسهم بالخوف الباعث على اليأس من لعنة السحر الأسود . ومات بالفعل بعض الكيكويو من الخوف حين ألقى عليهم سحر شرير . وكان إجراء القسم من أعظم المناسبات الدينية ، سواء كان قسما بالولاء أو وعدا بالقيام بعمل فى المستقبل . كان كل قسم مقدسا ويحدث تغييراً فى حياة المرء بأسرها ، والحنث به معناه الموت على الفور .

وفى أوائل العهد بكينيا وجد المبشرون المسيحيون من الصعب عليهم



أحد شيوخ الكيكويو

أن يفهموا كيف تكون للدين الوثنى — وهو دين فاسد فى نظرهم — مثل هذه السيطرة القوية على الكيكويو . لقد بنوا المدارس والكنائس وحاولوا نشر الإنجيل ، وكان لذلك وقع فى نفس رجال القبيلة الذين رغبوا فى التعليم ، ووجدوا أن ثمة مصلحة كبيرة فى التحول إلى المسيحية وهم بالمدرسة . وهكذا اعتنق الكثيرون منهم المسيحية قبل أن يعرفوا كنهها، إذ كانوا يعدونها وسيلة لتحسين أحوالهم ، وربما لاسترداد أرضهم، ولم يجسروا على أن يجعلوا الفرصة تفلت من أيديهم . وبدأوا يطرحون جانبا المعتقدات والقوانين القديمة دون أن يفهموا معنى لغيرها فى الحقيقة . كانت هذه عملية بطيئة لأن العادات تموت بصعوبة ، ولكن بعد حوالى أربعين عاما أو نحو ذلك — أى بانتهاء الحرب العالمية الثانية — كان هناك عدد من رجال الكيكويو لم يكن لهم دين حقيقى أو نظام قبلى ، كان هؤلاء يحسون أنهم يعيشون فى فراغ ويشعرون بالقلق والاضطراب، وكانوا يبحثون عن قيادة توجههم وتقدمت « ماو ماو » لتضطلع بهذه القيادة .

الواقع أن البريطانيين قدموا إلى كينيا بنوايا خاصة . وهم لم يستولوا بالفعل على الكثير من أرض الكيكويو ، ولكن ماشغلوه منها كان فى المرتفعات حيث المناخ صحى والأرض خصيبة ، وسرعان ما أطلق على هذا عبارة « المرتفعات البيضاء » وأصبح المعادون للبريطانيين

يجعلون هذه المزارع تبدو حقا كبيرة جداً فى نظر من لا يملكون أى أرض.

وقبيل نشوب الحرب العالمية الثانية عاد إلى كينيا بعد إقامة طويلة فى الخارج ، أحد أبناء كيكويو وهو « جومو كنياتا » الذى كان على قدر جيد من التعليم والمقدرة على التنظيم ، وانضم إلى حركة سياسية تستهدف « طرد البيض من الأرض » وكوّن . كنياتا وزملاؤه بالتدريج حركة الماو ماو .

وجندت ماو ماو فى صفوفها عدداً من رجال القبيلة ممن انتقتهم بعناية ، وأرغمتهم على أن يقسموا يمينا بالولاء إلى الأبد ، وتلاه قسم آخر بأن يقتلوا عندما تأمرهم الحركة . وكانت الأيمان مصحوبة بطقوس قبلية ، وصار من المستحيل الحنث بها مطلقاً . ولم يكن أمام الذين أقسموا اليمين خيار .

وبدأت « ماو ماو » تجمع الأسلحة واستولى رجالها على عدد كبير من البنادق وكمية من الذخيرة وأنشأوا المصانع السرية والمخابىء ووضع قادتها الخطط لارتكاب أعمال الإرهاب . وبعد وقوع حوادث عنيفة ألقى القبض على كنياتا وزملائه وحوكموا وزج بهم فى السجون . وعند بلوغ هذه النقطة انطلق غضب « ماو ماو » بكليته إذ كان القادة الجدد أشد تعصبا من القدامى . فأحيوا جميع المخاوف القديمة من السحر الأسود كى يفرضوا الطاعة ، فأعلن حاكم كينيا حالة الطوارىء ، ووصلت قوات بريطانية

لتحمي قومها . واستمر الرعب يسود البلاد مدى عامين .

إننا نلقى الخطر والشقاء مجتمعين حين لا يفهم الناس بعضهم بعضا ؛ ففي أيام حركة الماو ماو لم يكن هناك بالفعل رجل أبيض يتكلم لغة الكيكويو ، ولم يتكلم الإنجليزية من أبناء القبيلة إلا عدد قليل جداً . لقد كان الكيكويو يعانون الفاقة والجوع قبل مجيء البيض ، ولكن سرعان ما طوى النسيان ذلك في غمرة الغضب بشأن الأراضي الضائعة . وتحمل البريطانيون اللوم عن جميع المتاعب التي لاقاها رجال قبيلة الكيكويو .

والآن يعمل البريطانيون على إقامة المشاركة بالتدريج على أساس المساواة في الحقوق بين السود والبيض . وهذه الخطوة تعتبر أبطأ مما يجب في نظر القوميين الأفريقيين كما يعدون الهدف محدودا أكثر مما يجب . لقد ظل جومو كنياتا نزيل السجن سنوات كثيرة ، ولكن نشأ جيل جديد من القادة ممن يطالبون بما هو أكثر من المساواة . إنهم في كينيا والأجزاء الأخرى من أفريقيا يطالبون بالاستقلال الكامل الآن وليس في المستقبل البعيد .

الفصل الثالث عشر

أفريقيا فى الغد

واضح أن أحداثا تقع اليوم فى أفريقيا

فخلال السنوات المائة الأخيرة حمل البيض الحضارة الغربية إلى أعماق القارة ، ففتحوا مناطق شاسعة من الغابات والبرية وأزاحوا الستار عن ثروة عظيمة . هذه الموجة من الكشف والاستيطان من قبل الأوربيين جرت فى أذيالها الخير والشر ؛ إذ حيث يتوافر للطبيعة ما تمنحه فإن الفرص المتاحة أمام البشر لإبداء الكرم والجشع فرص لا حدود لها .

إن عدم المساواة العنيف بسبب حاجز اللون وتقييد حقوق الوطنيين ، والتفاوت بين رخاء الأوربيين وفقر الأفريقيين فى أقاليم كثيرة ـ كل هذا وصمات سوداء تلطخ صفحات التاريخ الأفريقى الحديث .

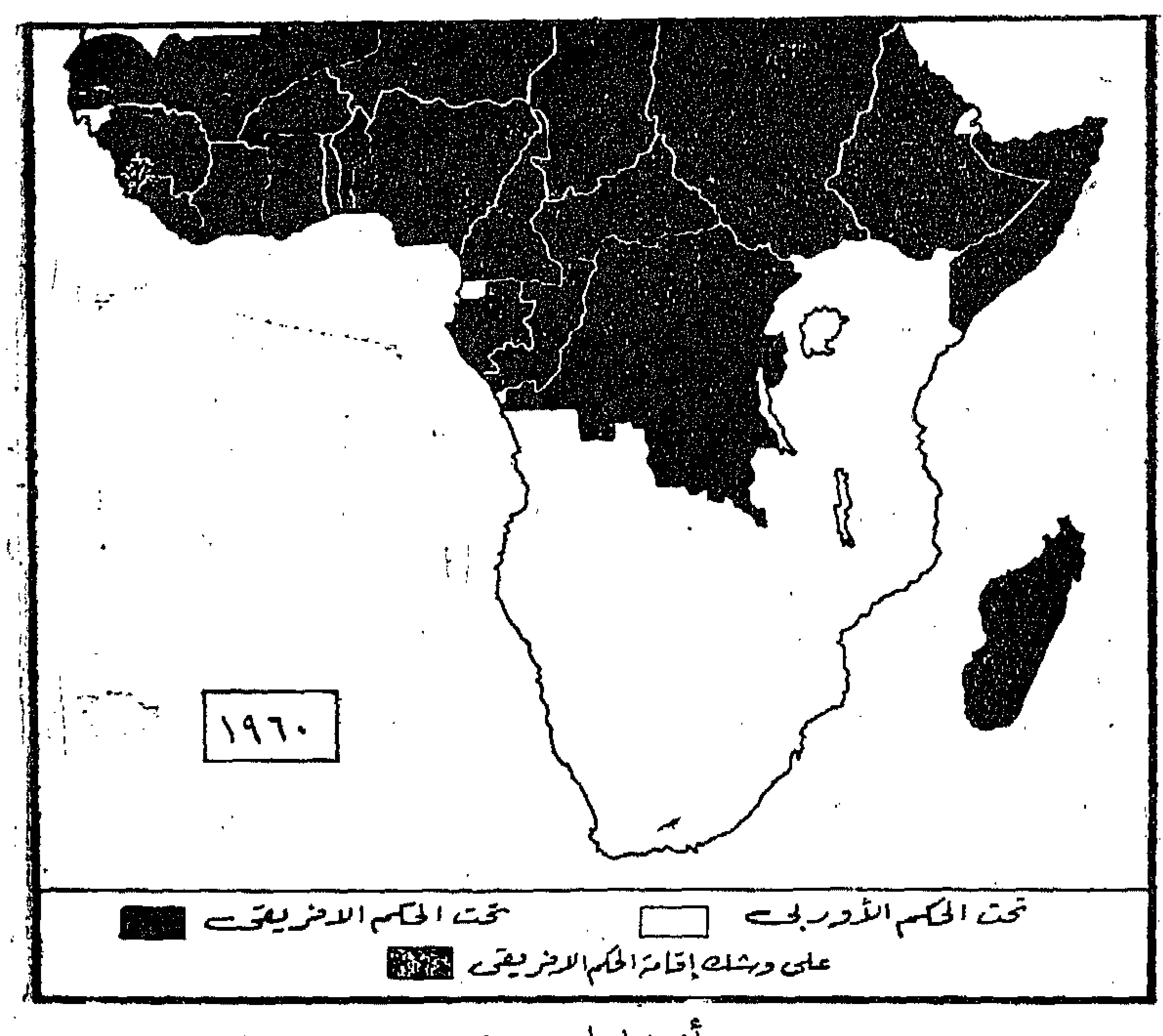
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فازدياد التعليم ، وانتشار المسيحية ، والتغلب على المرض ، والقضاء على الحروب القبلية ، كلها إنجازات حقيقية حققها رجال ونساء ذوو شجاعة نادرة ومقدرة و إخلاص فائق لقضية التقدم الأفريقى .

ويجرى الآن انتقال القوة من يد إلى يد ، وثمة تاريخ جديد بصدد

أن يصنع ويجاهد زعماء بعيدو النظر و يتصفون بالاعتدال ، من السود والبيض على حد سواء ، من أجل تدريب الأفريقيين على الحـكم . إنهم يعتزمون مضاعفة المنافع التى حققها الحـكم الأوربى والقضاء على مساوئه .

هذه الخطط القائمة على أسس سليمة يهددها خطران جسيمان أولهما تصميم بعض الأوربيين والمقيمين البيض على الاحتفاظ بسيادتهم مهما كان الثمن ، وثانيهما ما يبديه الأفريقيون من التعجل فى الاستيلاء على السلطة قبل أن يتقنوا أساليب الحـكم .

وفى أثناء عملية الزحف من أجل اقتسام القارة فى الثمانينات من القرن الماضى خطت فى أوربا الحدود الفاصلة بين مختلف الدول الأفريقية دون استشارة الأجناس السوداء التى كانت تقطن هذه الأقاليم بالفعل فقسمت بعض القبائل بين الممتلـكات الأوربية المختلفة فى حين جرى تجميع البعض الآخر دون أى اعتبار لعاداتها وأخلاقها . وأخمدت الحروب القبلية بالقوة ، وفضت المنازعات عن طريق إصدار المراسيم ، وفى أجزاء كثيرة من أفريقيا لا نجد روابط طبيعية تشد هذه القبائل بعضها إلى بعض ، ولهذا فحيث يزول الحـكم الأوربى ليخلفه حكم وطنى ضعيف فسوف تنفصل القبائل بعضها عن بعض ، وينشأ الشك ويثور الغضب وتنشب الحروب القبلية من جديد. وهذا هو الخطر الأساسى الذى تتعرض له بلاد الـكونغو اليوم. إن صراعا كبيراً ومفجعاً بين الأجناس يمكن أن يسفر عن آلام



أفريقيا عام ١٩٦٠

لا توصف لـكل بيت فى البلاد ويمكن أن يزول إلى الأبد التقدم الذى تم فى القرن الأخير .

وفى جميع أرجاء القارة وصلت القومية إلى الذروة . ووعد الزعماء الوطنيون أتباعهم بالحرية وهم مشغوفون بالاستيلاء على مقاليد الحـكم بدون إبطاء .

والحـكومات الأوربية فى ورطة . فإذا سلمت الاستقلال أسرع مما يجب فقد يثور رجال القبائل الأفريقية ؛ ولـكن إذا رجأت التسليم

بحقوق الوطنيين زمناً أطول مما يجب فمن المؤكد أن ينفجر الغضب المكبوت فى نفوس الملايين من الأفريقيين ضد حكامهم البيض . إن الطريق الذى يتوسط تردد أوربا وتعجل أفريقيا طريق صعب العثور عليه ، وأصعب من ذلك السير فيه ، ولكن الحكومتين البريطانية والفرنسية أظهرتا على الأقل أن فى الإمكان نقل السلطة بسلام .

إن خير أمل بالنسبة إلى المستقبل يكمن فى أيدى الأمم المتحدة . ففى كل عام تزداد المعرفة بأفريقيا ولم تعد المشكلات تحل على أيدى ساسة يقيمون بعيداً عنها فى عواصم أوربا . إنها تناقش الآن فى مقدمة الشئون الدولية ، إذ من بين الشعوب التسعة والتسعين الأعضاء بالجمعية العامة خمسة وعشرون شعباً أفريقياً . هؤلاء المندوبون الذين جرى انتخابهم حديثاً آخذون فى تعلم طرق الحياة فى خارج أفريقيا . إنهم على استعداد لأن يتكلموا ، وعلى باقى العالم أن يكون مستعداً للإنصات إليهم .

قائمة المراجع

Buell, Raymond Leslie. LIBERIA, A CENTURY OF SURVIVAL. Philadelphia : University Museum, 1947.

Carter, Gwendolen. SOUTH AFRICA. New York : Foreign Policy Association, 1955.

Carter, Gwendolen. THE POLITICS OF INEQUALITY. New York : Frederick A. Praeger, Inc., 1958.

Cohen, Andrew B. BRITISH POLICY IN CHANGING AFRICA. Evanston: Northwestern University Press, 1959.

Goldschmidt, Walter, ed. THE UNITED STATES AND AFRICA. New York : American Assembly, 1958.

Haynes, George Edmund. AFRICA, CONTINENT OF THE FUTURE. New York : Association Press, 1958.

Hole, Hugh Marshall, LOBENGULA. London : Philip Alan and Co., Ltd., 1929.

Hole, Hugh Marshall. THE PASSING OF THE BLACK KINGS. London : Philip Alan and Co., Ltd., 1932.

Huddleston, Trevor. NAUGHT FOR YOUR COMFORT. New York : Doubleday, 1953.

Huxley, Elspeth and Margery Perham. RACE AND POLITICS IN KENYA. Hollywood-by-the-Sea.: Trans-atlantic Arts, Inc., 1956.

Light, Richard Upton. FOCUS ON AFRICA. New York : American Geographical Society, 1941.

Mason, Philip. THE BIRTH OF A DILEMMA. New York: Oxford University Press, Inc., 1958.

Millin, Gertrude Sarah. GENERAL SMUTS. London: Faber and Faber, 1936.

Millin, Gertrude Sarah. RHODES. London : Chatto and Windus, 1933.

Moorehead, Alan. NO ROOM IN THE ARK. New York : Harper and Brothers, 1960

Oliver, Roland, SIR HARRY JOHNSTON AND THE SCRAMBLE FOR AFRICA. New York : St. Martin's Press, Inc., 1957.

Paton, Alan. CRY, THE BELOVED COUNTRY. New York: Charles Scribner's Sons, 1948.

Perham, Margery and J. Simmons, Eds. AFRICAN DISCOVERY. Chester Springs . Dufour Editions 1957.

Simmons, Jack. LIVINGSTONE AND AFRICA. New York: Macmillan Co., 1955.

Smuts, J. C. JAN CHRISTIAN SMUTS : A Biography. New York : William Morrow and Co., Inc., 1952

Thomson, A. A. and Dorothy Middleton. LUGARD IN AFRICA. London : Robert Hale, Ltd., 1959.

Walker, Eric A. HISTORY OF SOUTHERN AFRICA. New York : Longmans, Green and Co., Inc., 1957.

Ward, W. E. F. A HISTORY OF GHANA. New York : Macmillan Co., 1959.

كشاف تحليلي

« ا »

« ج »

« ى »

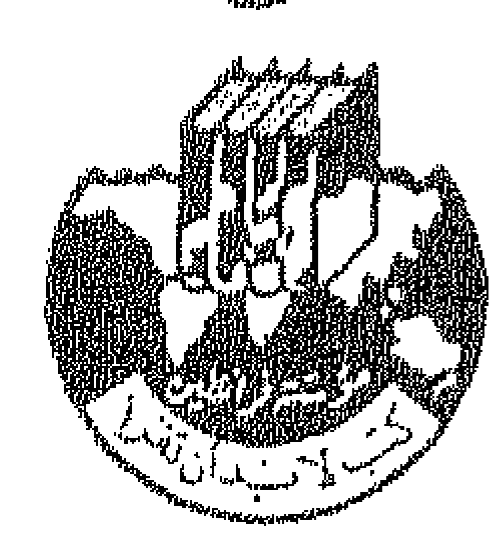
هذا الكتاب

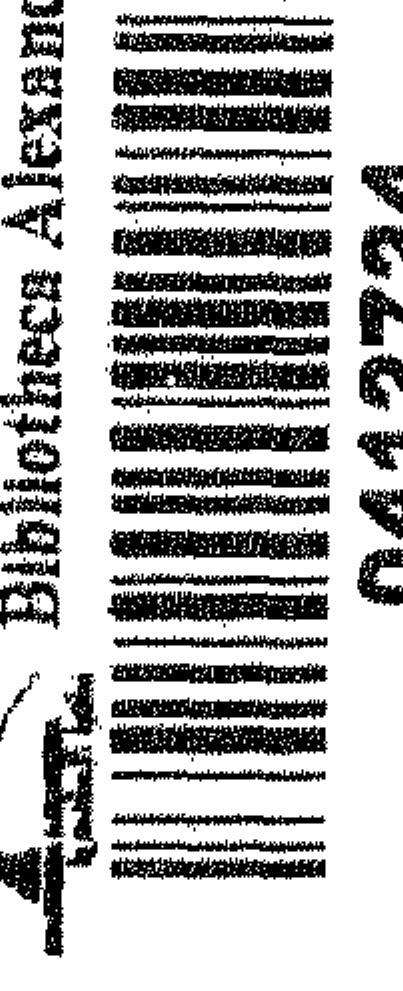
لقد أصبحت شئون القارة الأفريقية موضع اهتمام العالم بوجه عام والدول النامية بوجه خاص ، لأن النهضة الأفريقية متعددة الجوانب ، ولأن الاستقلال - فى الحاضر والمستقبل - ليس سوى مقدمة لتغييرات عميقة فى المجال الاقتصادى وحياة المجتمعات الأفريقية .

والكتاب الذى بين يديك يتابع تطور القارة فى مراحله المتعاقبة ويتحدث عن معالمها الجغرافية الرئيسية وأجناسها وفروعها المتعددة ، ومواردها الطبيعية ، وتقدمها الحالى وإمكانياتها ، ومشكلاتها البارزة مع محاولة الإشارة إلى حلولها ، كل ذلك فى إيجاز معتدل وبأسلوب سهل وروح من الدقة العلمية والنزاهة فى العرض . وهذه مميزات يزيد من قيمتها ما يشتمل عليه الكتاب من خرائط ورسوم توضيحية وصور كثيرة . والواقع أننا هنا أمام كتاب يشبع رغبة القارىء ويعتبر مرشداً إلى مزيد من الاطلاع لمن يشاء .

من مقدمة

الدكتور راشد





الثمن ٢٢

مطبعة المعرفة
عمارة التأمين ميدان لاظوغلى